(سلسلة تقريب التراث الإسلامي إلى القارئ المعاصِر ٢٦)

مختصر كتاب

العُزْلَة

للإمام الخَطَّابي رحمه الله (٣١٩ - ٣٨٨هـ)

اختصار وتعليق

محمَّد علي أبو زَهْرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قالوا

الاستئناسُ بالناس

مِنْ عَلاماتِ الإفلاس

تمهيد

كان في السلف مَنْ يؤثرُ العزلةَ لفوائدها؛ كالمواظبة على العبادة والتفكر ومُدارسة العلم، واجتناب المناهي التي يتعرض الإنسان لها بالمخالطة؛ كالرياء والغِيبة والعجز عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومُسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة من جلساء السوء، إلى غير ذلك[١].

وبالجملة فالعُزلة مستحبّة عند فسادِ الزمان، وتغيّر الأحوال، وخوف الإنسان على نفسِه من الفتن، فتُستحب له العُزلة؛ ليسلَم من شرِّ الفتن، قال الله تعالى: {فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ}، فالفرار إلى الله: الفرار إلى أسباب النّجاة وإلى أسباب السلامة؛ ولهذا يقول ﷺ: "إنَّ الله يُحبُّ العبدَ التَّقيَّ، الغنيَّ، الخفيَّ"[٢] الذي لا يطلب الشهرة، ولا يطلب الرياء بين الناس، إنما تهمُّه سلامةُ دينه، وهكذا ينبغي للمؤمن[٣].

فما المرادُ بالعزلة؟ يقول الخطَّابي[٤]: "ونُرِيدُ بِالْعُزْلَةِ تَرْكَ فُضُولِ الصُّحْبَةِ، وَنَبْذَ الزِّيَادَةِ مِنْهَا، وَحَطَّ الْعِلَاوَةِ الَّتِي لَا حَاجَةَ بِكَ إِلَيْهَا؛ فَإِنَّ مَنْ جَرَى فِي صُحْبَةِ النَّاسِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْ مَعْرِفَتِهِمْ عَلَى مَا يَدْعُو إِلَيْهِ شَغَفُ النُّفُوسِ، وَإِلْفُ

---

[١] انظر: إحياء علوم الدين للغزالي.

[٢] رواه مسلم.

[٣] انظر: الموقع الرسمي للشيخ ابن باز رحمه الله.

[٤] في أول كتابه هذا.

الْعَادَاتِ وَتَرْكُ الِاقْتِصَادِ فِيهَا وَالِاقْتِصَارِ الَّذِي تَدَعُوهُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ كَانَ جَدِيرًا أَلَّا يُحْمَدَ غِبُّهُ، وَأَنْ تُسْتَوْخَمَ عَاقِبَتُهُ، وَكَانَ سَبِيلُهُ فِي ذَلِكَ سَبِيلَ مَنْ يَتَنَاوَلُ الطَّعَامَ فِي غَيْرِ أَوَانِ جُوعِهِ، وَيَأْخُذُ مِنْهُ فَوْقَ قَدْرِ حَاجَتِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُلْبِثُهُ أَنْ يَقَعَ فِي أَمْرَاضٍ مُدْنِفَةٍ وَأَسْقَامٍ مُتْلِفَةٍ[١]، وَلَيْسَ مَنْ عَلِمَ كَمَنْ جَهِلَ، وَلَا مَنْ جَرَّبَ وَامْتَحَنَ كَمَنْ بَادَهَ وَخَاطَرَ".

ومِن أشهر مَن كتب في فضائل العزلة الإمام أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطّاب البُسْتي المعروف بالخطَّابي (ت ٣٨٨ هـ) في كتابه الشهير "العُزلة" وهو كتاب ذو أهمية خاصة لدى باحثي العلوم الإسلامية المهتمين بموضوعات الزهد والرقائق والموضوعات ذات الصلة؛ حيث يدخل كتاب العزلة للخطّابي ضمن تصنيفات كتب الزهد والرقائق؛ والتي تتصل بالعديد من فروع المعارف الإسلامية، وعلوم الفقه والعقيدة. وهذا الكتاب هو أول ما كُتب في بابه؛ إذ لم يَكتب في العُزلة في كتاب خاص مستقل قبل أبي سليمان الخطّابي أحدٌ.

وقد بيَّن المؤلف إيجابياتِ العزلة وسلبياتِها، بروح العالِم الفقيه الجريء في قول الحق، وأوضح وجوبَ الاعتدال في الخُلطة بالناس والعزلة عنهم، دون مغالاة

---

[١] وهذا المعنى فطن إليه ابن الرومي:

عدوُّكَ من صديقك مستفادٌ فلا تستكثرنَّ من الصِّحابِ
فإن الداءَ أكثرَ ما تراهُ يحولُ من الطعام أو الشرابِ

أو إجحاف، فجاء كتابه رائداً في موضوعه، وقد احتوى أدباً جمّاً، وحكمةً بالغة، وموعظة رقيقةً، اعتماداً على الآياتِ والأحاديثِ والآثارِ والأشعارِ التي تحمل أنفاسَ البلغاء، من الشعراء الجهابذة.

قال المؤلفُ في أوّل الكِتاب: "وَلْنَذْكُرِ الْآنَ مَا جَاءَ فِي مَدْحِ الْعُزْلَةِ وَمَا رُوِيَ فِيهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَمَّنْ بَعْدَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَعَمَّنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ، وَنُخْبِرُ عَنْ مَحِلِّهَا مِنَ الْحِكْمَةِ وَمَوْقِعِهَا مِنَ الْمَصْلَحَةِ؛ لِيَنْظُرَ الْمَرْءُ لِدِينِهِ وَيُحْسِنَ الِارْتِيَادَ لِنَفْسِهِ، وَنَسْأَلَ اللَّهَ السَّلَامَةَ مِنْ شَرِّ هَذَا الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ، إِنَّهُ لَا خِيفَةَ عَلَى مَنْ حَفِظَهُ وَلَا وَحْشَةَ عَلَى مَنْ عَرَفَهُ".

التعريف بالمؤلف

أبو سليمان حَمْد بن محمد بن إبراهيم بن الخَطَّاب البُسْتي الخَطَّابي الشافعي (٣١٩ - ٣٨٨ هـ)، المشهور باسم الخَطَّابي، محدِّث وفقيه وعالم من كبار أئمة الشافعية، ولد في مدينة بُسْت (لشكر كاه حاليًا)، وارتحل وطلب العلم والحديث، فذهب إلى بغداد والبصرة ومكة وخراسان وبلاد ما وراء النهر، وتفقه على المذهب الشافعي، ولقد صنف التصانيف وألف كتابًا في شرح الأسماء الحسنى سمَّاه "شأن الدعاء"، وشرح سنن أبي داود في "معالم السنن"، وله شرح لكتاب صحيح البخاري اسمه "أعلام السنن"، وله كتاب ينهى فيه

عن علم الكلام اسمه "الغُنية عن الكلام وأهله"، وكتاب "غريب الحديث" وكتاب "إصلاح غلط المحدِّثين"، وغيرها من الكتب والتصانيف، وكان لغويًا له قصائد شعر، توفي سنة ٣٨٨ بمدينة بست.

مولده

ولد أبو سليمان الخطابي في مدينة بُست (لشكر كاه حاليًا) وهي مدينة تقع في أفغانستان على شاطئ نهر هلمند، وهي عاصمة ولاية هلمند،، وكان ميلاده في شهر رجب سنة ٣١٩ هـ، ينسب لقبهُ الخطَّابي إلى جدهِ الخطَّاب، وقيل إنه من نسل الصحابي زيد بن الخطَّاب، إلا أن المؤرخ ابن كثير ذهب إلى القول بعدم ثبوت ذلك.

طلبه للعلم

أخذ الخطَّابي العلمَ عن علماء بلده، ثم ارتحل طلبًا للاستزادة وسماعًا للحديث، فكان ينتقل بين بُسْت وسِجِسْتان، ثم رحل إلى نيسابور وأقام بها سنتين، وأخذ عن عالمها أبي العباس الأصمّ (المتوفى ٢٧٧ هـ)، وزار بُخارَى، ورحل إلى بغداد وسمع من إسماعيل بن محمد الصفار (المتوفى ٣٤١ هـ)، وأبي عمر الزاهد المعروف بغلامِ ثعلب، وأحمد بن سليمان النجاد، وأبي عمرو السَّمَّاك، ومكرم القاضي، وجعفر بن محمد الخلدي، وحمزة بن محمد العقبي، وأبي جعفر الرزاز.

ثم ذهب إلى البصرة، وسمع من أبي بكر بن داسة، وذهب إلى مكة وسمع من أبي سعيد بن الأعرابي (المتوفى ٣٤٠ هـ)، ثم عاد إلى بُسْت واستقر بها. وأخذ الفقه على مذهب الشافعي عن أبي بكرٍ القفَّال الشاشي (المتوفى ٣٦٥ هـ)، وأبي علي بن أبي هريرة (المتوفى ٣٤٥ هـ).

روى عنه الحاكم النيسابوري، وأبو حامد الإسفراييني، وأبو نصر محمد بن أحمد البلخي الغزنوي، وأبو مسعود الحسين بن محمد الكرابيسي، وأبو عمرو محمد بن عبد الله الرزجاهي، وأبو ذر عبد بن أحمد الهروي، وأبو عبيد الهروي اللغوي، وأبو الحسين عبد الغافر الفارسي، وجعفر بن محمد بن علي المروذي المجاور، وأبو بكر محمد بن الحسين الغزنوي المقرئ، وعلي بن الحسن السجزي الفقيه، ومحمد بن علي بن عبد الملك الفارسي الفسوي.

توفي في مدينة بُست في يوم السبت ٧ ربيع الآخر سنة ٣٨٨ هـ.

هذا الكتاب

ونظراً إلى أن كتاب "العزلة" في الأساس هو كتاب حديث وأسانيد؛ فقد رغبتُ في اختصاره وتقريبه إلى القارئ المعاصر.

وكان من عملي في خدمة كتاب العزلة:

- اعتماد نسخة (الشاملة) لكتاب "العزلة" للخطابي عن طبعة المطبعة السلفية – القاهرة – الطبعة: الثانية، ١٣٩٩ هـ.

- حذف أسانيد الخطابي، والاكتفاء بذكر راوي الخبر فقط.

- تخريج الأحاديث النبوية الشريفة، من كتب الأحاديث.

- التعريف بالأعلام، والأماكن والبلدان التي ورد ذكرها في هذا الكتاب.

- إيضاح معاني الكلمات والألفاظ والعبارات التي تحتاج إلى بيان وشرح وتفسير، من خلال كتب اللغة والمعاجم.

- ضبط الضروريّ من ألفاظ الكتاب، تيسيراً على القارئ المعاصر ومساعدةً له في إقامة اللغة التراثية المرويَّة في الكتاب.

- تصويب أخطاء المطبوعة، من خلال المصادر التي ورد فيها ذكر هذه الأخبار.

وهو المنهج الذي التزمتُه وأخذتُ به نفسي فيما وفَّقني الله في إخراجه من كتب التراث، في المشروع الذي تبنَّيتُه وسميتُه (سلسلة تقريب التراث الإسلامي إلى القارئ المعاصر) وهذا هو الكتابُ السادس والعشرون - بفضل الله - في هذه السلسلة[١].

---

[١] وقد سبقه لي خمسة وعشرون عملاً في الجمع والدراسة والاختصار هي: (التوبة وقصص التائبين - هذا نبينا كأننا نراه - دولة بني العباس - دولة بني أمية - الثائران: الحسين وابن الزبير - معاوية كسرى العرب — خلافة علي بن أبي طالب - خلافة ذي النورين عثمان بن عفان - خلافة الصِّدِّيق والفاروق - محمد رسول رب العالمين - علي ومعاوية يوم صفين - الفتنة ووقعة الجمل

رحم اللهُ الشيخ العالم الجليل أبا سليمان الخطابي، وجزاه عنا خيراً، ونفعنا بعلمه، وآخرُ دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أبو زهرة

الكويت – مايو ٢٠٢٤م

لسيف بن عمر – التعازي والمراثي للمبرد – محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني – الداء والدواء لابن القيم – أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي – النساء لابن قتيبة – بهجة المجالس لابن عبد البر – تهذيب تاريخ ابن خياط – مختصر زاد المعاد لابن القيم – قصة الإيمان منذ آدم حتى محمد – تحقيق العواصم من القواصم لابن العربي – حقوق آل البيت في مفهوم ابن تيمية – الشواهد الشعرية في معجم البلدان لياقوت الحموي – مختصر فضائل القرآن لأبي عبيد) إضافة إلى كتابين آخرين خارج السلسلة هما: "علماء معاصرون نصروا الإسلام"، وكتاب "غرباء". وكلها كتب منشورة على مواقع نشر الكتب الإلكترونية مثل موقع: نور، وموقع فولة بوك (في صفحة: محمد علي أبو زهرة).

بداية الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ أَبَدًا، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى مُحَمَّدٍ دَائِمًا سَرْمَدًا.

مَا احْتَجَّ بِهِ مَنْ أَنْكَرَ الْعُزْلَةَ

قَالَ الْمُنْكِرُ لَهَا[١]: قَدْ أَمَرَ اللهُ سُبْحَانَهُ بِالِاجْتِمَاعِ وَحَضَّ عَلَيْهِ، وَنَهَى عَنِ الِافْتِرَاقِ وَحَذَّرَ مِنْهُ؛ فَقَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا}، وَأَعْظَمَ الْمِنَّةَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ فِي جَمْعِ الْكَلِمَةِ وَتَأْلِيفِ الْقُلُوبِ مِنْهُمْ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: {وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ}، وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ}. فِي آيٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ.

وَذَكَرَ فِيهَا أَخْبَارًا عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

[١] يعني المنكر للعزلة وفضلها.

- عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ سَرَّهُ بُحْبُوحَةُ الْجَنَّةِ[١] فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْفَذِّ وَهُوَ مِنَ الِاثْنَيْنِ أَبْعَدُ»[٢].

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ فَمِيتَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ»[٣].

- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ شَقَّ عَصَا الْمُسْلِمِينَ، وَالْمُسْلِمُونَ فِي إِسْلَامٍ دَامِجٍ[٤]، فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ»[٥].

قَالُوا[٦]: قَدْ نَطَقَتْ هَذِهِ الْأَخْبَارُ بِأَنَّ الْمُعْتَزِلَ عَنِ النَّاسِ الْمُنْفَرِدَ عَنْهُمْ مُفَارِقٌ لِلْجَمَاعَةِ شَاذٌّ عَنِ الْجُمْلَةِ شَاقٌّ لِعَصَا الْأُمَّةِ خَالِعٌ لِلرِّبْقَةِ مُخَالِفٌ لِلسُّنَّةِ، وَأَقَلُّ مَا فِي الْعُزْلَةِ أَنَّهَا إِذَا امْتَدَّتْ وَاسْتَمَرَّتْ بِصَاحِبِهَا صَارَتْ هِجْرَةً، وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْهِجْرَةِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثٍ؛ عَنْ أَنَسٍ قَالَ:

---

[١] بُحْبُوحَةُ الْجَنَّةِ: وسطها.

[٢] صححه الألباني.

[٣] تفرد به مسلم.

[٤] دامج: مجتمِع منتظِم.

[٥] أخرجه الطبراني بإسناد جيد.

[٦] القائلون هم من أنكروا العزلة.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا هِجْرَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ أَوْ قَالَ: ثَلَاثَ لَيَالٍ"[١].

جواب الخطَّابي على منكِري العُزلة

فَالْجَوَابُ وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ: أَنَّ الْآيَ الَّتِي تَلَوهَا فِي ذَمِّ الْعُزْلَةِ وَالْأَحَادِيثَ الَّتِي رَوَوْهَا فِي التَّحْذِيرِ وَمُفَارَقَةِ الْجَمَاعَةِ لَا يَعْتَرِضُ شَيْءٌ مِنْهَا عَلَى الْمَذْهَبِ الَّذِي نَذْهَبُهُ فِي الْعُزْلَةِ وَلَا يُنَاقِضُ تَفْصِيلُهَا جُمْلَتَهُ، لَكِنَّهَا تَجْرِي مَعَهُ عَلَى سَنَنِ الْوِفَاقِ وَقَضِيَّةِ الِائْتِلَافِ وَالِاتِّسَاقِ، وَسَأُوَضِّحُ لَكَ التَّوْفِيقَ بَيْنَهُمَا بِمَا أُقَسِّمُهُ لَكَ مِنْ بَيَانِ وُجُوهِهَا وَتَرْتِيبِ مَنَازِلِهَا.

فَأَقُولُ: الْفُرْقَةُ فُرْقَتَانِ: فُرْقَةُ الْآرَاءِ وَالْأَدْيَانِ، وَفُرْقَةُ الْأَشْخَاصِ وَالْأَبْدَانِ، وَالْجَمَاعَةُ جَمَاعَتَانِ: جَمَاعَةٌ هِيَ الْأَئِمَّةُ وَالْأُمَرَاءُ، وَجَمَاعَةٌ هِيَ الْعَامَّةُ وَالدَّهْمَاءُ.

فَأَمَّا الِافْتِرَاقُ فِي الْآرَاءِ وَالْأَدْيَانِ فَإِنَّهُ مَحْظُورٌ فِي الْعُقُولِ مُحَرَّمٌ فِي قَضَايَا الْأُصُولِ؛ لِأَنَّهُ دَاعِيَةُ الضَّلَالِ وَسَبَبُ التَّعْطِيلِ وَالْإِهْمَالِ. وَلَوْ تُرِكَ النَّاسُ مُتَفَرِّقِينَ لَتَفَرَّقَتِ الْآرَاءُ وَالنِّحَلِ، وَلَكَثُرَتِ الْأَدْيَانِ وَالْمِلَلِ، وَلَمْ تَكُنْ فَائِدَةٌ فِي بِعْثَةِ الرُّسُلِ، وَهَذَا هُوَ الَّذِي عَابَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ مِنَ التَّفْرِيقِ فِي كِتَابِهِ وَذَمَّهُ فِي الْآيِ الَّتِي تَقَدَّمَ ذِكْرُهَا.

---

[١] رواه ابن عساكر في معجم الشيوخ بإسناد صحيح.

وَعَلَى هَذِهِ الْوَتِيرَةِ نُجْرِي الْأَمْرَ أَيْضًا فِي الِافْتِرَاقِ عَلَى الْأَئِمَّةِ وَالْأُمَرَاءِ؛ فَإِنَّ فِي مُفَارَقَتِهِمْ مُفَارَقَةَ الْأُلْفَةِ وَزَوَالَ الْعِصْمَةِ وَالْخُرُوجَ مِنْ كَنَفِ الطَّاعَةِ وَظِلِّ الْأَمَنَةِ، وَهُوَ الَّذِي نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْهُ وَأَرَادَهُ بِقَوْلِهِ: «مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ فَمَاتَ فَمِيتَتُهُ جَاهِلِيَّةٌ»، وَذَلِكَ أَنَّ أَهْلَ الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ إِمَامٌ يَجْمَعُهُمْ عَلَى دِينٍ وَيَتَأَلَّفُهُمْ عَلَى رَأْيٍ وَاحِدٍ، بَلْ كَانُوا طَوَائِفَ شَتَّى وَفِرَقًا مُخْتَلِفِينَ، آرَاؤُهُمْ مُتَنَاقِضَةٌ وَأَدْيَانُهُمْ مُتَبَايِنَةٌ، وَذَلِكَ الَّذِي دَعَا كَثِيرًا مِنْهُمْ إِلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَطَاعَةِ الْأَزْلَامِ؛ رَأْيًا فَاسِدًا اعْتَقَدُوهُ فِي أَنَّ عِنْدَهَا خَيْرًا وَأَنَّهَا تَمْلِكُ لَهُمْ نَفْعًا أَوْ تَدْفَعُ عَنْهُمْ ضَرًّا.

وَأَمَّا عُزْلَةُ الْأَبْدَانِ وَمُفَارَقَةُ الْجَمَاعَةِ الَّتِي هِيَ الْعَوَامُّ؛ فَإِنَّ مِنْ حُكْمِهَا أَنْ تَكُونَ تَابِعَةً لِلْحَاجَةِ وَجَارِيَةً مَعَ الْمَصْلَحَةِ، وَذَلِكَ أَنَّ عِظَمَ الْفَائِدَةِ فِي اجْتِمَاعِ النَّاسِ فِي الْمُدُنِ وَتَجَاوُرِهِمْ فِي الْأَمْصَارِ إِنَّمَا هُوَ أَنْ يَتَضَافَرُوا فَيَتَعَاوَنُوا وَيَتَوَازَرُوا فِيهَا إِذْ كَانَتْ مَصَالِحُهُمْ لَا تَكْمُلُ إِلَّا بِهِ وَمَعَايِشُهُمْ لَا تَزْكُو إِلَّا عَلَيْهِ.

فَعَلَى الْإِنْسَانِ أَنْ يَتَأَمَّلَ حَالَ نَفْسِهِ فَيَنْظُرَ فِي أَيَّةِ طَبَقَةٍ يَقَعُ مِنْهُمْ وَفِي أَيَّةِ جَنَبَةٍ يَنْحَازُ مِنْ جُمْلَتِهِمْ، فَإِنْ كَانَتْ أَحْوَالُهُ تَقْتَضِيهِ الْمُقَامَ بَيْنَ ظَهْرَانِيَ الْعَامَّةِ لِمَا يَلْزَمُهُ مِنْ إِصْلَاحِ الْمِهْنَةِ الَّتِي لَا غُنْيَةَ لَهُ بِهِ عَنْهَا وَلَا يَجِدُ بُدًّا مِنَ الِاسْتِعَانَةِ بِهِمْ فِيهَا وَلَا وَجْهَ لِمُفَارَقَتِهِمْ فِي الدَّارِ وَمُبَاعَدَتِهِمْ فِي السَّكَنِ وَالْجِوَارِ فَإِنَّهُ إِذَا فَعَلَ ذَلِكَ تَضَرَّرَ بِوَحْدَتِهِ وَأَضَرَّ بِمَنْ وَرَاءَهُ مِنْ أَهْلِهِ وَأُسْرَتِهِ.

وَإِنْ كَانَتْ نَفْسُهُ بِكُلِّهَا مُسْتَقِلَّةً وَحَالُهُ فِي ذَاتِهِ وَذَوِيهِ مُتَمَاسِكَةً فَالِاخْتِيَارُ لَهُ فِي هَذَا الزَّمَانِ اعْتِزَالُ النَّاسِ وَمُفَارَقَةُ عَوَامِّهِمْ؛ فَإِنَّ السَّلَامَةَ فِي مُجَانَبَتِهِمْ وَالرَّاحَةَ فِي التَّبَاعُدِ مِنْهُمْ.

وَلَسْنَا نُرِيدُ، رَحِمَكَ اللَّهُ، بِهَذِهِ الْعُزْلَةِ الَّتِي نَخْتَارُهَا مُفَارَقَةَ النَّاسِ فِي الْجَمَاعَاتِ وَالْجُمُعَاتِ وَتَرْكَ حُقُوقِهِمْ فِي الْعِبَادَاتِ وَإِفْشَاءَ السَّلَامِ وَرَدَّ التَّحِيَّاتِ وَمَا جَرَى مَجْرَاهَا مِنْ وَظَائِفِ الْحُقُوقِ الْوَاجِبَةِ لَهُمْ وَوَضَائِعِ السُّنَنِ وَالْعَادَاتِ الْمُسْتَحْسَنَةِ فِيمَا بَيْنَهُمْ؛ فَإِنَّهَا مُسْتَثْنَاةٌ بِشَرَائِطِهَا جَارِيَةٌ عَلَى سُبُلِهَا، مَا لَمْ يَحُلْ دُونَهَا حَائِلُ شُغْلٍ وَلَا يَمْنَعُ عَنْهَا مَانِعُ عُذْرٍ.

إِنَّمَا نُرِيدُ بِالْعُزْلَةِ تَرْكَ فُضُولِ الصُّحْبَةِ وَنَبْذَ الزِّيَادَةِ مِنْهَا وَحَطَّ الْعِلَاوَةِ الَّتِي لَا حَاجَةَ بِكَ إِلَيْهَا؛ فَإِنَّ مَنْ جَرَى فِي صُحْبَةِ النَّاسِ وَالِاسْتِكْثَارِ مِنْ مَعْرِفَتِهِمْ عَلَى مَا يَدْعُو إِلَيْهِ شَغَفُ النُّفُوسِ، وَإِلْفُ الْعَادَاتِ وَتَرْكُ الِاقْتِصَادِ فِيهَا وَالِاقْتِصَارِ الَّذِي تَدَعُوهُ الْحَاجَةُ إِلَيْهِ كَانَ جَدِيرًا أَلَّا يُحْمَدَ غِبُّهُ[١] وَأَنْ تُسْتَوْخَمَ عَاقِبَتُهُ[٢] وَكَانَ سَبِيلُهُ فِي ذَلِكَ سَبِيلَ مَنْ يَتَنَاوَلُ الطَّعَامَ فِي غَيْرِ أَوَانِ جُوعِهِ وَيَأْخُذُ مِنْهُ فَوْقَ قَدْرِ حَاجَتِهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ لَا يُلْبِثُهُ أَنْ يَقَعَ فِي أَمْرَاضٍ مُدْنِفَةٍ

---

[١] الغِب: العاقبة والنهاية والنتيجة.

[٢] اسْتَوْخَمَ الشيء: استثقله.

وَأَسْقَامٍ مُتْلِفَةٍ، وَلَيْسَ مَنْ عَلِمَ كَمَنْ جَهِلَ، وَلَا مَنْ جَرَّبَ وَامْتَحَنَ كَمَنْ بَادَهَ[١] وَخَاطَرَ.

وَلِلَّهِ دَرُّ أَبِي الدَّرْدَاءِ[٢] حَيْثُ يَقُولُ: وَجَدْتُ النَّاسَ "اُخْبُرْ تَقْلُهْ"[٣].

- أَنْشَدَ ابْنُ أَبِي الدُّنْيَا[٤]:

مَنْ حَمِدَ النَّاسَ وَلَمْ يَبْلُهُمْ ثُمَّ بَلَاهُمْ ذَمَّ مَنْ يَحْمَدُ

وَصَارَ بِالْوَحْدَةِ مُسْتَأْنِسًا يُوحِشُهُ الْأَقْرَبُ وَالْأَبْعَدُ

---

[١] باده: جرَّب وخاطر من غير استعداد.

[٢] أَبُو الدَّرْدَاءِ الأنصَارِيُّ: صحابي وفقيه وقاضٍ وأحد رواة الحديث النبوي، أسلم متأخرًا يوم بدر، ودافع عن النبي يوم أُحُد، وشهد ما بعد ذلك، وكان من المجتهدين في التعبد وقراءة القرآن. رحل إلى الشام بعد فتحها ليُعلّم الناس القرآن، وليُفقّههم في دينهم، وتولى قضاء دمشق، ظل بها إلى أن مات فيها في خلافة عثمان بن عفان.

[٣] قَالَ أبو عبيد في الأمثال: جاءنا الحديثُ عن أبي الدرداء الأَنصاري رضي الله عنه، "اُخْبُرْ تَقْلُهْ"، يريد أنك إذا خَبَرْتَهُمْ قَلَيْتهم. وهو مثل يضرب في ذم الناس وسُوء مُعاشرتهم. فمن اختبر الناس وجربهم أبغضهم، فإن التجربة تكشف مساويهم وسوء أخلاقهم.

[٤] أبو بكر، عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس القرشي البغدادي (٢٠٨ - ٢٨١ هـ) الملقب بابن أبي الدنيا (وقد طغى لقبه على اسمه حتى اشتهر به): الإمام، الحافظ، المحدِّث، العالم، الصدوق، الزاهد، المؤدب. وُلد في مدينة بغداد، في أوائل القرن الثالث للهجرة سنة ٢٠٨ هـ. ونشأ في بيت عِلم، فأبوه من رُوَّاةِ الأخبار وقد بدأ في طلب العلم قبل بُلوغ سِنِّ العاشرة. وله العشرات من المؤلفات الجليلة.

ما جاء في مدح العزلة

وَلْنَذْكُرِ الْآنَ مَا جَاءَ فِي مَدْحِ الْعُزْلَةِ وَمَا رُوِيَ فِيهَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَعَمَّنْ بَعْدَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَعَمَّنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ وَالْفَضْلِ، وَنُخْبِرُ عَنْ مَحِلِّهَا مِنَ الْحِكْمَةِ وَمَوْقِعِهَا مِنَ الْمَصْلَحَةِ؛ لِيَنْظُرَ الْمَرْءُ لِدِينِهِ وَيُحْسِنَ الِارْتِيَادَ[١] لِنَفْسِهِ، وَنَسْأَلَ اللَّهَ السَّلَامَةَ مِنْ شَرِّ هَذَا الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ إِنَّهُ لَا خِيفَةَ عَلَى مَنْ حَفِظَهُ وَلَا وَحْشَةَ عَلَى مَنْ عَرَفَهُ.

– قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ حِكَايَةً عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: {وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا}، اعْتَصَمَ خَلِيلُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ بِالْعُزْلَةِ وَاسْتَظْهَرَ بِهَا[٢] عَلَى قَوْمِهِ عِنْدَ جَفَائِهِمْ إِيَّاهُ وَخُذْلَانِهِمْ لَهُ فِي عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ وَمُعَانَدَةِ الْحَقِّ، وَكَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى أَمْرَهُمْ وَعَصَمَهُ مِنْ شَرِّهِمْ وَأَثَابَهُ عَلَى ذَلِكَ بِالْمَوْهِبَةِ الْجَزِيلَةِ وَعَوَّضَهُ النُّصْرَةَ بِالذُّرِّيَّةِ الطَّيِّبَةِ، قَالَ اللَّهُ وَهُوَ أَجَلُّ قَائِلٍ: {فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا}.

---

[١] الارتياد: الاختيار.

[٢] استظهر على عدوّه: غلبه.

- وَقَالَ تَعَالَى فِي قِصَّةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: {وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ}، فَزِعَ نَبِيُّ اللَّهِ تَعَالَى إِلَى الْعُزْلَةِ حِينَ ظَهَرَ لَهُ عِنَادُهُمْ فِي قَبُولِ الدَّعْوَةِ وَإِصْرَارِهِمْ عَلَى مُنَابَذَةِ الْحَقِّ.

- وَقَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ فِي قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ: {وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُهَيِّئْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقًا}، وَكَانُوا قَوْمًا كَرِهُوا الْمُقَامَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ أَهْلِ الْبَاطِلِ فَفَرُّوا مِنْ فِتْنَةِ الْكُفْرِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ فَصَرَفَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ شَرَّهُمْ وَدَفَعَ عَنْهُمْ بَأْسَهُمْ وَرَفَعَ فِي الصَّالِحِينَ ذِكْرَهُمْ.

- وَقَدِ اعْتَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَوْمَهُ قُرَيْشًا لَمَّا جَفَوْهُ وَآذَوْهُ فَدَخَلَ الشِّعْبَ[1] وَأَمَرَ أَصْحَابَهُ بِاعْتِزَالِهِمْ وَالْهِجْرَةِ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، ثُمَّ تَحَوَّلَ إِلَى الْمَدِينَةِ مُهَاجِرًا حَتَّى تَلَاحَقَ بِهِ أَصْحَابُهُ وَتَوَافَوْا بِهَا مَعَهُ؛ فَأَعْلَى اللَّهُ كَلِمَتَهُ وَتَوَلَّى إِعْزَازَهُ وَنُصْرَتَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَالْعُزْلَةُ عِنْدَ الْفِتْنَةِ سُنَّةُ الْأَنْبِيَاءِ وَعِصْمَةُ الْأَوْلِيَاءِ وَسِيرَةُ الْحُكَمَاءِ الْأَلِبَّاءِ وَالْأَوْلِيَاءِ، فَلَا أَعْلَمَ لِمَنْ عَابَهَا عُذْرًا، لَاسِيَّمَا فِي هَذَا الزَّمَانِ الْقَلِيلِ خَيْرُهُ الْبَكِيءُ دَرُّهُ[2]، وَبِاللَّهِ نَسْتَعِيذُ مِنْ شَرِّهِ وَرَيْبِهِ.

---

[1] شعب أبي طالب.

[2] البكيء: القليل، مِن "بَكَأَتِ البئرُ": قلَّ ماؤها.

- قَالَ عُقْبَةُ بْنُ عَامِرٍ الْجُهَنِيُّ[١]: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: «لِيَسَعْكَ بَيْتُكَ وَأَمْسِكْ عَلَيْكَ دِينَكَ وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ»[٢].

- قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ[٣]: بَيْنَمَا نَحْنُ حَوْلَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ ذَكَرَ الْفِتْنَةَ، أَوْ ذُكِرَتْ عِنْدَهُ، فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا رَأَيْتُمُ النَّاسَ مَرِجَتْ عُهُودُهُمْ[٤] وَخَفَّتْ أَمَانَتُهُمْ وَكَانُوا هَكَذَا» وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، قَالَ: فَقُمْتُ إِلَيْهِ فَقُلْتُ: كَيْفَ أَفْعَلُ عِنْدَ ذَلِكَ جَعَلَنِي اللَّهُ فِدَاكَ؟ فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْزَمْ بَيْتَكَ وَأَمْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ وَخُذْ مَا تَعْرِفُ وَدَعْ مَا تُنْكِرُ وَعَلَيْكَ بِأَمْرِ الْخَاصَّةِ وَدَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ»[٥].

---

[١] عقبة بن عامر الجهني (نحو ١٥ ق. هـ - ٥٨ هـ): أمير، صحابي، كان كاتبًا وشاعرًا وفقيهًا. شهد فتوح الشام، ثم فتوح مصر مع عمرو بن العاص، ثم لحق بمعاوية بن أبي سفيان في صفين. وولي مصر سنة ٤٤ هـ، وعزل عنها سنة ٤٧ هـ وولي غزو البحر. مات بمصر، وله ٥٥ حديثاً. وفي القاهرة «مسجد عقبة بن عامر» بجوار قبره.

[٢] صححه الألباني.

[٣] عبد الله بن عمرو بن العاص السهمي القرشي (٢٧ ق هـ - ٦٥ هـ): صحابي، وهو أكبر أبناء عمرو بن العاص. كان يكتب في الجاهلية، ويجيد السريانية. وأسلم في سنة ٧ هـ قبل أبيه. وصحب الرسول ﷺ، واستأذنه في أن يكتب ما يسمع منه، فأذن له، وهو أحد حفّاظ الصّحابة، من أصحاب الألوف. ولد سنة ٢٧ ق هـ، وبينه وبين أبيه إحدى عشرة أو اثنتا عشرة سنة.

[٤] "مرَجتْ عُهودُهم" أي: ظَهرَ فيهِم وانتشَرَ فسادُ العَهدِ ولم يُوفُوا به.

[٥] صححه الألباني.

تفسير ما ورد في هذا الحديث

فقَدْ نَصَحَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثِيرًا، وَلَمْ يَأْلُ شَفَقَةً وَنُصْحًا، وَكَانَ جَدِيرًا أَنْ يَفْعَلَ ذَلِكَ، وَبِهِ وَصَفَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ؛ قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ}، وَذَلِكَ أَنَّهُ قَسَمَ لَهُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ إِلَى قِسْمَيْنِ اثْنَيْنِ؛ فَقَالَ فِي الْأَوَّلِ وَهُوَ قِسْمُ أَمْرِ الدِّينِ «خُذْ مَا تَعْرِفُ» فَكَانَ هَذَا إِشَارَةً إِلَى مَعْهُودٍ تَعَارَفُوهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَكَانَ الَّذِي تَعَارَفُوهُ مَعْهُودًا مِنْ حُقُوقِ الْأَئِمَّةِ وَمُتَعَلِّقًا بِهِمْ مِنْ أَمْرِ الدِّينِ: إِقَامَةَ الصَّلَاةِ خَلْفَهُمْ وَأَدَاءَ الزَّكَاةِ إِلَيْهِمْ وَجِهَادَ الْكُفَّارِ مَعَهُمْ، إِلَى مَا يُشْبِهُ هَذَا مِنَ الْأُمُورِ الَّتِي يَلِيهَا الْأُمَرَاءُ فَأَمَرَهُ بِطَاعَتِهِمْ فِيهَا.

ثُمَّ قَالَ: «وَدَعْ مَا تُنْكِرُ» وَهُوَ كُلُّ مَا حَدَثَ بَعْدَهُ مِنَ الْفِتَنِ وَنَشَبَ بَيْنَ بَعْضِ أَصْحَابِهِ مِنَ الْحُرُوبِ وَالتَّنَازُعِ فِي الْمُلْكِ، يَقُولُ: إِذَا دَعَوْكَ إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا فَدَعْهُمْ وَاعْتَزِلْهُمْ وَلَا تَكُنْ مَعَهُمْ.

ثُمَّ قَسَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ الْقِسْمَةَ الثَّانِيَةَ الَّتِي هِيَ قَسْمُ أَمْرِ دُنْيَاهُ فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «عَلَيْكَ بِأَمْرِ الْخَاصَّةِ» وَهُوَ كُلُّ مَا يَخُصُّهُ وَيَعْنِيهِ وَيَخُصُّ كُلَّ إِنْسَانٍ فِي ذَاتِهِ مِنْ إِعَالَةِ أَهْلِهِ وَسِيَاسَةِ ذَوِيهِ وَالْقِيَامِ لَهُمْ وَالسَّعْيِ فِي مَصَالِحِهِمْ، وَنَهَاهُ عَنِ التَّعَرُّضِ لِأَمْرِ الْعَامَّةِ وَالتَّعَاطِي لِسِيَاسَتِهِمْ وَالتَّرَأُّسِ عَلَيْهِمْ وَالتَّوَسُّطِ فِي أُمُورِهِمْ فَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَعْ عَنْكَ أَمْرَ الْعَامَّةِ» فَقَدْ

نَظَمَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطَّوِيلَ الْعَرِيْضَ مِنْ أَمْرِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ فِي الْقَصِيرِ الْوَجِيزِ مِنْ كَلَامِهِ.

– عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ[١] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُوشِكُ أَنْ يَكُونَ خَيْرَ مَالِ الْمُسْلِمِ غَنَمٌ يَتْبَعُ بِهَا شِعَافَ الْجِبَالِ[٢] وَمَوَاقِعَ الْقَطْرِ يَفِرُّ بِدِينِهِ مِنَ الْفِتَنِ»[٣].

– عَنْ أَبِي سَعِيدٍ[٤] قَالَ: قَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «مُؤْمِنٌ مُجَاهِدٌ بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ» قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: «ثُمَّ رَجُلٌ مُعْتَزِلٌ فِي شِعْبٍ مِنَ الشِّعَابِ يَعْبُدُ رَبَّهُ وَيَدَعُ النَّاسَ مِنْ شَرِّهِ»[٥].

– عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ[٦] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَسْلَمُ لِذِي دِينٍ دِينُهُ، إِلَّا مَنْ فَرَّ بِدِينِهِ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَى قَرْيَةٍ

---

[١] أبو سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري (١٠ ق.هـ – ٧٤ هـ): صحابي من صغار الصحابة، وأحد المكثرين لرواية الحديث النبوي.

[٢] شِعَافَ الْجِبَالِ: رؤوسها.

[٣] متفق عليه.

[٤] الخدري.

[٥] متفق عليه.

[٦] عبد الله بن مسعود الهُذلي (ت ٣٢ هـ): فقيه الأمة وصحابي جليل وفقيه ومقرئ ومحدّث، وأحد السابقين إلى الإسلام وهو سادس من أسلم وأحد المبشرين بالجنة، وصاحب نعلي النبي وسواكه،

وَمِنْ شَاهِقٍ إِلَى شَاهِقٍ وَمِنْ جُحْرٍ إِلَى جُحْرٍ كَالثَّعْلَبِ الَّذِي يَرُوغُ» قَالُوا: وَمَتَى ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: إِذَا لَمْ تُنَلِ الْمَعِيشَةُ إِلَّا بِمَعَاصِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ الزَّمَانُ حَلَّتِ[1] الْعُزُوبَةُ" قَالُوا: وَكَيْفَ ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَقَدْ أَمَرْتَنَا بِالتَّزَوُّجِ؟ قَالَ: «لِأَنَّهُ إِذَا كَانَ ذَلِكَ الزَّمَانُ كَانَ هَلَاكُ الرَّجُلِ عَلَى يَدَيْ أَبَوَيْهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبَوَانِ فَعَلَى يَدَيْ زَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ وَلَا وَلَدٌ فَعَلَى يَدَيْ قَرَابَتِهِ» قَالُوا: وَكَيْفَ ذَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يُعَيِّرُونَهُ بِضِيقِ الْمَعِيشَةِ فَيَتَكَلَّفُ مَا لَا يُطِيقُ حَتَّى يُورِدَهُ مَوَارِدَ الْهَلَكَةِ»[2].

– عن أَبِي مُوسَى[3]، قالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ يُصْبِحُ الرَّجُلُ فِيهَا مُؤْمِنًا وَيُمْسِي كَافِرًا وَيُمْسِي

وواحد ممن هاجروا الهجرتين إلى الحبشة وإلى المدينة المنورة، وممن أدركوا القبلتين، وهو أول من جهر بقراءة القرآن في مكة وهو الذي قتل أبا جهل وقطع رأسه في معركة بدر. وقد تولى قضاء ووزارة الكوفة وبيت مالها في خلافة عمر وصدر من خلافة عثمان.

[1] يعني صارت حلالاً.

[2] رواه أبو نُعيم في "الحلية" وابن حبان في "الثقات"، وإسنادهما ضعيف.

[3] أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري: صحابي، وَلَّاهُ النبي صلى الله عليه و سلم على زبيد وعدن، وولاه عمر بن الخطاب على البصرة، وولاه عثمان بن عفان على الكوفة، وكان المحكّم الذي اختاره علي بن أبي طالب من بين حزبه يوم صفين.

مُؤْمِنًا وَيُصْبِحُ كَافِرًا، الْقَائِمُ فِيهَا خَيْرٌ مِنَ الْمَاشِي، وَالْمَاشِي خَيْرٌ مِنَ السَّاعِي» قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا؟ قَالَ: «كُونُوا أَحْلَاسَ[1] بُيُوتِكُمْ»[2].

- عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: "ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفِتْنَةَ وَأَيَّامَ الْهَرْجِ، قُلْتُ: وَمَا الْهَرْجُ؟ قَالَ: «حِينَ لَا يَأْمَنُ الرَّجُلُ جَلِيسَهُ» قُلْتُ: فَبِمَ تَأْمُرُنِي إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ الزَّمَانَ؟ قَالَ: «تَكُفُّ نَفْسَكَ وَيَدَكَ وَادْخُلْ دَارَكَ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ دَخَلَ عَلَيَّ دَارِي؟ قَالَ: «فَادْخُلْ بَيْتَكَ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ إِنْ دَخَلَ عَلَيَّ بَيْتِي؟ قَالَ: «فَادْخُلْ مَسْجِدَكَ وَاصْنَعْ هَكَذَا، وَقَبَضَ بِيَمِينِهِ عَلَى الْكُوعِ، وَقُلْ رَبِّيَ اللَّهُ، حَتَّى تَمُوتَ عَلَى ذَلِكَ»[3].

فقَدْ أَنْذَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَهُ أَيَّامَ الْهَرْجِ فِي عِدَّةِ أَخْبَارٍ وَحَذَّرَهُمْ فِتْنَةً، وَأَوْضَحَ فِي هَذَا الْخَبَرِ مَعْنَاهُ، وَذَكَرَ أَنَّ أَمَارَةَ الْهَرْجِ أَنْ لَا يَأْمَنَ الرَّجُلُ جَلِيسَهُ، فَتَأَمَّلُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ، فَإِنْ كُنْتُمْ لَا تَأْمَنُونَ جُلَسَاءَكُمْ فِي هَذَا الزَّمَانِ وَلَا تَسْلَمُونَ عَلَى أَكْثَرِ مَنْ تَصْحَبُونَهُ، فَاعْلَمُوا أَنْ قَدْ حَلَّتِ الْعُزْلَةُ

---

[1] هو حِلْسُ بيته: لا يبرحُهُ. وهو من أحلاس البلاد: لا يفارقها. وهو من أحلاس الخيل: ملازم لظُهورها أو رياضتها.

[2] صححه الألباني.

[3] صححه الألباني.

وَطَابَ الْهَرَبُ وَحَانَ الْفِرَارُ مِنْهُمْ. وَإِنْ كَانُوا عَلَى خِلَافِ هَذَا النَّعْتِ فَكُونُوا لَهُمْ عَلَى خِلَافِ هَذَا الرَّأْيِ، وَمَا التَّوْفِيقُ إِلَّا بِاللَّهِ.

- عن عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «خُذُوا بِحَظِّكُمْ مِنَ الْعُزْلَةِ»[١].

- عن عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فِي الْعُزْلَةِ رَاحَةٌ مِنْ خَلِيطِ السُّوءِ»[٢].

- عَنْ طلحةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ[٣] قَالَ: «إِنَّ أَقَلَّ لِعَيْبِ الرَّجُلِ أَنْ يَجْلِسَ فِي دَارِهِ»[٤].

---

[١] انظر: الزهد والرقائق لابن المبارك، والزهد لابن أبي عاصم، والعزلة والانفراد لابن أبي الدنيا.

[٢] أخرجه ابن أبي شيبة.

[٣] طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّه التَّيمي القُرشي (٢٨ ق.هـ - ٣٦ هـ): أحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين الأولين إلى الإسلام، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين اختارهم عمر بن الخطاب ليختاروا الخليفة من بعده. قال عنه النبي ﷺ إنه شهيد يمشي على الأرض فقال: «من سرَّه أن ينظر إلى شهيد يمشي على وجه الأرض فلينظر إلى طلحة بن عبيد الله».

[٤] انظر: الزهد لابن أبي عاصم، والزهد لوكيع، والزهد والرقائق لابن المبارك.

- قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ[١]: «نِعْمَ صَوْمَعَةُ الرَّجُلِ بَيْتُهُ يَكُفُّ سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ وَدِينَهُ وَعِرْضَهُ. وَإِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ فِي الْأَسْوَاقِ فَإِنَّهَا تُلْهِي وَتُلْغِي[٢]»[٣].

- قَالَ عَامِرُ بْنُ سعدٍ[٤]: كَانَ سَعْدٌ فِي إِبِلٍ لَهُ وَغَنَمٍ فَأَتَاهُ ابْنُهُ عُمَرُ بْنُ سَعْدٍ، فَلَمَّا رَآهُ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الرَّاكِبِ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَيْهِ قَالَ: يَا أَبَتِ أَرَضِيتَ أَنْ تَكُونَ أَعْرَابِيًّا فِي إِبِلِكَ وَغَنَمِكَ وَالنَّاسُ يَتَنَازَعُونَ فِي الْمُلْكِ؟[٥]

---

[١] أَبُو الدَّرْدَاءِ الأنصَارِيُّ: صحابي وفقيه وقاضٍ وقارئ قرآن وأحد رواة الحديث النبوي، وهو من الأنصار من بني كعب بن الخزرج بن الحارث بن الخزرج. أسلم متأخرًا يوم بدر، ودافع عن النبي يوم أحد، وشهد ما بعد ذلك، وكان من المجتهدين في التعبد وقراءة القرآن. رحل إلى الشام بعد فتحها ليُعلّم الناس القرآن، وليُفقّههم في دينهم، وتولى قضاء دمشق، وظل بها إلى أن مات فيها في خلافة عثمان بن عفان.

[٢] تُلغي: تُخيّب وتُفشّل وتُفوّت المطلوب.

[٣] انظر: العزلة والانفراد لابن أبي الدنيا، والأدب والزهد لأحمد بن حنبل، ومكارم الأخلاق للخرائطي، والزهد لأبي داود، والزهد الكبير للبيهقي.

[٤] ابن أبي وقصاص رضي الله عنه.

[٥] وذلك في أيام فتنة اختلاف الصحابة بعد مقتل عثمان.

فَضَرَبَ سَعْدٌ صَدْرَ عُمَرَ بِيَدِهِ وَقَالَ: اسْكُتْ يَا بُنَيَّ فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ»[١].

وَكَانَ سَعْدٌ رَحِمَهُ اللَّهُ مِمَّنِ اعْتَزَلَ أَيَّامَ الْفِتْنَةِ فَلَمْ يَكُنْ مَعَ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ فَأَرَادُوهُ عَلَى الْخُرُوجِ فَأَبَى وَضَرَبَ لِذَلِكَ مَثَلًا.

– عَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ[٢] قَالَ: "إِنَّ سَعْدًا لَمَّا دَعَوْهُ إِلَى الْخُرُوجِ مَعَهُمْ أَبَى عَلَيْهِمْ ثُمَّ قَالَ: "لَا إِلَّا أَنْ تُعْطُونِي سَيْفًا لَهُ عَيْنَانِ بَصِيرَتَانِ وَلِسَانٌ يَنْطِقُ بِالْكَافِرِ فَأَقْتُلُهُ وَالْمُؤْمِنِ فَأَكُفُّ عَنْهُ، وَضَرَبَ لَهُمْ مَثَلًا فَقَالَ: مَثَلُنَا وَمَثَلُكُمْ كَمَثَلِ قَوْمٍ كَانُوا عَلَى مَحَجَّةٍ بَيْضَاءَ فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ يَسِيرُونَ هَاجَتْ رِيحٌ عَجَّاجَةٌ فَضَلُّوا الطَّرِيقَ وَالْتُبِسَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: الطَّرِيقُ ذَاتَ الْيَمِينِ فَأَخَذُوا فِيهَا فَتَاهُوا وَضَلُّوا، وَقَالَ آخَرُونَ: الطَّرِيقُ ذَاتَ الشِّمَالِ فَأَخَذُوا فِيهَا فَتَاهُوا وَضَلُّوا، وَقَالَ آخَرُونَ: كُنَّا فِي الطَّرِيقِ حَيْثُ هَاجَتِ الرِّيحُ فَنِيخَ فَأَنَاخُوا فَأَصْبَحُوا فَذَهَبَ الرِّيحُ وَتَبَيَّنَ الطَّرِيقُ فَهَؤُلَاءِ هُمُ الْجَمَاعَةُ. قَالُوا: نَلْزَمُ مَا فَارَقْنَا

---

[١] رواه مسلم. وكان سعدٌ رَضيَ اللهُ عنه ممَّن قَعَد عن الفتنةِ بعْدَ مَقتَلِ الخليفةِ عُثمانَ بنِ عفَّانَ رَضيَ اللهُ عنه، ولَزِمَ بَيْتَه، وأمَرَ أهْلَه ألَّا يُخبِروه مِن أخبارِ النَّاسِ بشَيءٍ حتَّى تَجتمِعَ الأُمَّةُ على إمامٍ، وكان ابنُه عُمرُ ممَّن اشتَغَل بأمرِ الفتنةِ وقاتَلَ فيها.

[٢] ميمون بن مهران الجزري، الرقي: من كبار العلماء والأئمة. كان مؤدب أولاد عمر بن عبد العزيز. استوطن الرقة، وولاّه عمر بن عبد العزيز قضاءها. كان على مقدمة الجيش مع معاوية بن هشام بن عبد الملك عندما غزوا نحو قبرص سنة ١٠٧ هـ. توفي سنة ١١٦ هـ.

عَلَيْهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى نَلْقَاهُ وَلَا نَدْخُلَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْفِتَنِ. قَالَ مَيْمُونٌ: فَصَارَ الْجَمَاعَةُ وَالْفِئَةُ الَّتِي تَدَّعِي الْإِسْلَامَ مَا كَانَ عَلَيْهِ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ وَأَصْحَابُهُ الَّذِينَ اعْتَزَلُوا الْفِتَنَ حَتَّى أَذْهَبَ اللَّهُ الْفُرْقَةَ وَجَمَعَ الْأُلْفَةَ فَدَخَلُوا الْجَمَاعَةَ وَلَزِمُوا الطَّاعَةَ وَانْقَادُوا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ وَلَزِمَهُ نَجَا وَمَنْ لَمْ يَلْزَمْهُ وَقَعَ فِي الْمَهَالِكِ[1].

وَمِمَّنِ اعْتَزَلَ تِلْكَ الْفِتْنَةَ فَلَمْ يَكُنْ مَعَ وَاحِدٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ حَتَّى انْجَلَتْ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ الْأَنْصَارِيُّ[2] وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فِي عِدَّةٍ كَثِيرَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ.

---

[1] انظر تاريخ دمشق لابن عساكر، ترجمة عثمان بن عفان.

[2] محمد بن مسلمة (ت ٤٦ هـ): صحابي من بني حارثة بن الحارث من الأوس، كان حليفًا لبني عبد الأشهل. أسلم قديمًا، وشهد المشاهد كلها إلا غزوة تبوك، وشارك في الفتح الإسلامي لمصر، وكان المبعوث الخاص لعمر بن الخطاب إلى ولاته. اعتزل محمد بن مسلمة الفتنة، وسكن الربذة إلى أن قُتل في خلافة معاوية بن أبي سفيان.

– عَنْ ثَعْلَبَةَ بْنِ ضُبَيْعَةَ[١] قَالَ: "دَخَلْنَا عَلَى حُذَيْفَةَ فَقَالَ: "إِنِّي لَأَعْرِفُ رَجُلًا لَا تَضُرُّهُ الْفِتَنُ شَيْئًا. فَخَرَجْنَا فَإِذَا فُسْطَاطٌ[٢] مَضْرُوبٌ فَدَخَلْنَا فَإِذَا فِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ مَسْلَمَةَ الْأَنْصَارِيُّ فَسَأَلْنَاهُ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: مَا أُرِيدُ أَنْ يَشْتَمِلَ عَلَيَّ شَيْءٌ مِنْ أَمْصَارِهِمْ حَتَّى تَنْجَلِيَ عَمَّا انْجَلَتْ"[٣].

– عَنِ ابْنِ سِيرِينَ[٤] قَالَ: «ثَارَتِ الْفِتْنَةُ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشَرَةُ آلَافٍ فَلَمْ يَخِفَّ فِيهَا أَرْبَعُونَ رَجُلًا»[٥].

---

[١] ضُبَيْعَةُ بْنُ حُصَيْنٍ الثَّعْلَبِيُّ أَبُو ثَعْلَبَةَ، وَيُقَالُ: ثَعْلَبَةُ بْنُ ضُبَيْعَةَ الْكُوفِيُّ. رَوَى عَنْ حُذَيْفَةَ وَمُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ، وَعَنْهُ أَبُو بُرْدَةَ بْنُ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ. ذَكَرَهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي الثِّقَاتِ. رَوَى لَهُ أَبُو دَاوُدَ حَدِيثًا وَاحِدًا فِي ذِكْرِ الْفِتْنَةِ مِنْ وَجْهَيْنِ: سَمَّاهُ فِي أَحَدِهِمَا ضُبَيْعَةَ وَفِي الْآخَرِ ثَعْلَبَةَ وَقَدْ رَجَّحَ الْبُخَارِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ ضُبَيْعَةُ.

[٢] الفسطاط: الخيمة من الشَّعر.

[٣] رواه أبو داود في سننه بإسناد حسن.

[٤] أبو بكر محمد بن سيرين البصري (٣٢ – ١١٠ هـ): التابعي الكبير والإمام القدير في التفسير، والحديث، والفقه، وتعبير الرؤيا، والمقدم في الزهد والورع وبر الوالدين، توفي بعد الحسن البصري بمائة يوم، وكان عمره ٧٨ عاماً.

[٥] رواه الحاكم في المستدرك كتاب الفتن. وبقية الحديث: "أَرْبَعُونَ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ، فِيهِمْ أَبُو أَيُّوبَ، وَسَهْلُ بْنُ حُنَيْفٍ، وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ». وهؤلاء الأربعون هم فقط من شاركوا في الفتنة واجتنبها بقية العشرة آلاف.

– عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي مَنْ سَمِعَ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ، يَوْمَ صِفِّينَ يَقُولُ لِابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ: "يَا بُنَيَّ انْظُرْ أَيْنَ تَرَى عَلِيًّا؟ قَالَ: أَرَاهُ فِي تِلْكَ الْكَتِيبَةِ الْقَتْمَاءِ ذَاتِ الرَّمَّاحِ عَلَيْهِ عِمَامَةٌ بَيْضَاءُ قَالَ: لِلَّهِ دَرُّ ابْنِ عُمَرَ وَابْنِ مَالِكٍ! لَئِنْ كَانَ تَخَلُّفُهُمْ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ خَيْرًا كَانَ خَيْرًا مَبْرُورًا وَلَئِنْ كَانَ ذَنْبًا كَانَ ذَنْبًا مَغْفُورًا. فَقَالَ لَهُ ابْنُهُ: أَيْ أَبَتِ فَمَا يَمْنَعُكَ إِذْ غَبَطْتَهُمْ أَنْ تَرْجِعَ؟ فَقَالَ: يَا بُنَيَّ إِنَّ الشَّيْخَ مِثْلِي إِذَا دَخَلَ فِي الْأَمْرِ لَمْ يَدَعْهُ حَتَّى يُحْكِمَهُ، أَنَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ إِذَا حَكَكْتُ قَرْحَةً أَدْمَيْتُهَا»[١].

[١] انظر: غريب الحديث للخطابي، وغريب الحديث لابن الأثير. القَتْماء: الغَبْراء، مِنَ القَتام، وتَدْمِية القَرْحَة مَثَلٌ: أَيْ إِذَا قَصَدْتُ غَايَةً تَقَصَّيْتها. وَابْنُ عُمر هُوَ عَبْدُ اللَّهِ، وابْنُ مَالِكٍ هُوَ سَعْدُ بْنِ أَبِي وقاَّص، وَكَانَا مِمَّنْ تَخَلَّف عَنِ الفَرِيقَيْن.

– عَنْ أَبِي بَكْرَةَ[١] قَالَ: "لَمَّا اشْتَدَّ الْقِتَالُ يَوْمَ الْجَمَلِ وَرَأَى عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الرُّءُوسَ تَنْدُرُ[٢] أَخَذَ الْحَسَنَ ابْنَهُ وَضَمَّهُ إِلَى صَدْرِهِ ثُمَّ قَالَ: إِنَّا لِلَّهِ يَا حَسَنُ أَيُّ خَيْرٍ يُرْجَى بَعْدَ هَذَا"[٣].

– قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ وَكَانَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ أَعَفَّ النَّاسِ فِيهَا، فَأَصْبَحَ ذَاتَ يَوْمٍ فَجَمَعَ ابْنَيْهِ عَبْدَ اللَّهِ وَمُحَمَّدًا فَقَالَ: «يَا بَنِيَّ أَصْبَحَتِ الْعَرَبُ غَادِينَ مُضْطَرِبِينَ وَلَيْسَ مِثْلِي يَرْضَى بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ فَإِلَى مَنْ تَرَيَانِ؟» قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: يَا أَبَتِ إِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ فَاعِلًا فَإِلَى عَلِيٍّ. قَالَ: «يَا بُنَيَّ إِنِّي إِنْ أَتَيْتُ عَلِيًّا كُنْتُ عِنْدَهُ كَأَحَدِ الْمُسْلِمِينَ وَإِنْ أَتَيْتُ مُعَاوِيَةَ أَشْرَكَنِي فِي أَمْرِهِ»، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا خِيرَ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ[٤].

---

[١] أبو بكرة الثقفي نُفيع بن الحارث بن كلدة (ت ٥١ هـ) صحابي كان مولى لثقيف في الطائف، سمى نفسه بعد اعتناقه الإسلام بعتيق النبي .أول من نزل إلى النبي محمد من الطائف عند حصاره له، فكنَّاه أبا بكرة؛ لأنه تدلى بواسطة بكرة من أسوار الطائف لما حاصرها النبي فنضم إليه. له مائة واثنان وثلاثون حديثًا، من علماء الصحابة. اعتزل ولم يشارك في الحروب الداخلية بين المسلمين (الجمل وصفين).

[٢] تندر: تسقط.

[٣] رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق، ترجمة علي بن أبي طالب.

[٤] انظر: تاريخ دمشق وتاريخ الذهبي.

– وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ مِنْ أَشَدِّ الصَّحَابَةِ حَذَرًا مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْفِتَنِ وَأَكْثَرِهُمْ تَحْذِيرًا لِلنَّاسِ مِنَ الدُّخُولِ فِيهَا، وَبَقِيَ إِلَى أَيَّامِ فِتْنَةِ ابْنِ الزُّبَيْرِ[١] فَلَمْ يُقَاتِلْ مَعَهُ وَلَمْ يُدَافِعْ عَنْهُ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ يَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَهُ فَإِذَا فَاتَتْهُ صَلَّاهَا مَعَ الْحَجَّاجِ وَكَانَ يَقُولُ: «إِذَا دَعَوْنَا إِلَى اللَّهِ أَجَبْنَاهُمْ وَإِذَا دَعَوْنَا إِلَى الشَّيْطَانِ تَرَكْنَاهُمْ».

– قَالَ مُسْلِمٌ[٢]: كُنَّا مَعَ عَبْدِ اللهِ بْنِ الزُّبَيْرِ وَالْحَجَّاجُ مُحَاصِرُهُ، وَكَانَ ابْنُ عُمَرَ يُصَلِّي مَعَ ابْنِ الزُّبَيْرِ فَإِذَا فَاتَتْهُ الصَّلَاةُ مَعَهُ وَسَمِعَ مُؤَذِّنَ الْحَجَّاجِ، انْطَلَقَ فَصَلَّى مَعَهُ فَقِيلَ لَهُ: لِمَ تُصَلِّي مَعَ ابْنِ الزُّبَيْرِ وَمَعَ الْحَجَّاجِ؟ فَقَالَ: «إِذَا دَعَوْنَا إِلَى اللَّهِ أَجَبْنَاهُمْ وَإِذَا دَعَوْنَا إِلَى الشَّيْطَانِ تَرَكْنَاهُمْ[٣]. وَكَانَ يَنْهَى ابْنَ الزُّبَيْرِ عَنْ طَلَبِ الْخِلَافَةِ وَالتَّعَرُّضِ لَهَا»[٤].

– عَنْ أَبِي نَوْفَلِ بْنِ أَبِي عَقْرَبٍ[٥] قَالَ: "لَمَّا قَتَلَ الْحَجَّاجُ ابْنَ الزُّبَيْرِ وَصَلَبَهُ عَلَى طَرِيقِ الْمَدِينَةِ يُغَايِظُ بِهِ قُرَيْشَ الْمَدِينَةِ، فَمَرَّ بِهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ فَوَقَفَ

---

[١] قتال بني أمية لعبدالله بن الزبير وحصار مكة.

[٢] لعله أَبو نَوْفَلِ بْنِ أَبِي عَقْرَبٍ، راوي الخبر التالي.

[٣] في رواية عن ابن لعبد الله بن عمر قال: فَقُلْتُ: يَا أَبَتَاهُ، وَمَا تَعْنِي الشَّيْطَانَ؟ قَالَ: الْقِتَالُ.

[٤] انظر: الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف لابن المنذر.

[٥] أبو نوفل بن أبي عقرب: قيل اسمه مسلم بن أبي عقرب البكري، الكندي، العرنجي، تابعي ثقة، توفي ١١١ هـ.

عَلَيْهِ فَقَالَ: «السَّلَامُ عَلَيْكَ أَبَا خُبَيْبٍ[١] – ثَلَاثَ مَرَّاتٍ – وَاللَّهِ كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْ هَذَا – ثَلَاثًا – وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتَ صَوَّامًا قَوَّامًا وَصُولًا لِلرَّحِمِ، وَاللَّهِ لَأُمَّةٌ أَنْتَ شَرُّهَا لَنِعْمَ تِلْكَ الْأُمَّةُ. ثُمَّ مَضَى. فَكَانَ كَذَلِكَ أَيْضًا يَكْرَهُ لِلْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا الْخُرُوجَ إِلَى الْعِرَاقِ وَأَشَارَ عَلَيْهِ بِالِانْصِرَافِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَأَبَى إِلَّا مُضِيًّا لِوَجْهِهِ فَجَرَى عَلَيْهِ مِنَ الْقَوْمِ مَا جَرَى، حَسِيبُهُمُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَمُكَافِيهِمْ»[٢].

– عن الشَّعْبِيِّ[٣]، يُحَدِّثُ عَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّهُ كَانَ بِمَالِهِ[٤]، فَبَلَغَهُ أَنَّ الْحُسَيْنَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَدْ تَوَجَّهَ إِلَى الْعِرَاقِ فَلَحِقَهُ عَلَى مَسِيرَةِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، فَإِذَا مَعَهُ طَوَامِيرُ وَكُتُبٌ فَقَالَ: هَذِهِ كُتُبُهُمْ وَبَيْعَتُهُمْ[٥] فَقَالَ: لَا تَأْتِهِمْ، فَأَبَى، فَقَالَ: "إِنِّي مُحَدِّثُكَ حَدِيثًا؛ "إِنَّ جَبْرَائِيلَ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَيَّرَهُ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ

---

[١] كنية عبد الله بن الزبير.

[٢] رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق.

[٣] عامر بن شراحيل بن عبد بن ذي كبار أبو عمرو الهمداني الشعبي الكوفي، المشهور بالإمام الشعبي (٢١ – ١٠٠ هـ): تابعي وفقيه أهل العراق، ومحدّث من السلف، ولد في خلافة عمر بن الخطاب.

[٤] يعني في أرض له عند إبله وأغنامه في البر.

[٥] يقصد الكتب التي أرسلها أهل العراق إلى الحسين يدعونه إلى المجيء إليهم ليبايعوه خليفةً بدلَ يزيد بن معاوية.

فَاخْتَارَ الْآخِرَةَ وَلَمْ يُرِدِ الدُّنْيَا"[١] وَإِنَّكُمْ بَضْعَةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَاللَّهِ لَا يَلِيهَا أَحَدٌ مِنْكُمْ أَبَدًا وَمَا صَرَفَهَا عَنْكُمْ إِلَّا لِلَّذِي هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ. فَأَبَى أَنْ يَرْجِعَ؛ فَاعْتَنَقَهُ ابْنُ عُمَرَ وَبَكَى وَقَالَ: أَسْتَوْدِعُكَ اللَّهَ مِنْ قَتِيلٍ"[٢].

– عَنْ دَاوُدَ بْنِ شَابُورَ[٣] قَالَ: كَانَ طَاوُسُ[٤] قَدْ جَلَسَ فِي بَيْتِهِ فَقُلْنَا لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: «فَسَادُ النَّاسِ وَحَيْفُ الْأَئِمَّةِ[٥]».

– قَالَ: أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَّامٍ[٦]: رُوِيَ عَنِ ابْنِ سِيرِينَ أَنَّهُ قَالَ: «الْعُزْلَةُ عِبَادَةٌ».

---

[١] هذا الجزء من الحديث رواه الهيثمي في مجمع الزوائد وإسناده حسن.

[٢] رواه ابن حبان في موارد الظمآن عن الشعبي، وصححه الألباني في صحيح الموارد.

[٣] أبو سليمان داود بن عبد الرحمن ابن شابور المكي: ثقة نسب إلى جده كان من المتقنين وأهل الفضل في الدين.

[٤] طاووس بن كيسان اليماني (ت ١٠٦ هـ): فقيه وراوي حديث وتابعي من كبار فقهاء التابعين. كان من خواص أصحاب ابن عباس، وعُرف بتقشفه في العيش، وجرأته في وعظ الخلفاء والولاة.

[٥] حيف الأئمة: ظلمهم.

[٦] أبو عبيد القاسم بن سلاّم الهروي (١٥٧ – ٢٢٤ هـ): عالم لغة وفقيه ومحدث وإمام من أئمة الجرح والتعديل عاش في القرنين الثاني والثالث الهجريين، وترك عددا من الكتب أشهرها «الغريب المصنّف» و«غريب الحديث» إضافة إلى كتاب «الأموال» الذي يعد من أمهات الكتب في الاقتصاد الإسلامي.

– عن هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ[١] قَالَ: "لَمَّا بَنَى عُرْوَةُ قَصْرَهُ بِالْعَقِيقِ[٢] لَزِمَهُ فقِيلَ لَهُ: مَا لَكَ لَزِمْتَ هَذَا الْقَصْرَ وَتَرَكْتَ مَسْجِدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَقَالَ: "رَأَيْتُ مَسَاجِدَكُمْ لَاهِيَةً وَأَسْوَاقَكُمْ لَاغِيَةً وَالْفَاحِشَةَ فِي فِجَاجِكُمْ عَالِيَةً فكَانَ فِيمَا هُنَالِكَ عَمَّا أَنْتُمْ فِيهِ عَافِيَة"[٣].

– عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ[٤] قَالَ: "قَالُوا لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ: أَلَا تَأْتِي الْمَدِينَةَ! فَقَالَ: «مَا بَقِيَ بِالْمَدِينَةِ إِلَّا حَاسِدٌ لِنِعْمَةٍ أَوْ فَرِحٌ بِنِقْمَةٍ»[٥].

---

[١] هشام بن عروة بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد القرشي، الزبيري، المدني: من حفاظ الحديث، ورواته، سمع من أبيه، وعمه عبد الله بن الزبير.

[٢] قصر عروة بن الزبير على ضفاف وادي العقيق غرب المدينة المنورة، على امتداد الطريق المؤدّي إلى مسجد ذي الحليفة (ميقات أهل المدينة)، ويبعد عن المسجد النبوي حوالى ٣,٥ كم. قام عمر بن عبد الله ببناء القصر بتكليف من عروة بن الزبير، وما زالت بعض مبانيه قائمة حتى الآن.

[٣] ذكره ابن أبي الدنيا في العزلة وأبو نعيم في الحلية وابن عساكر في تاريخ.

[٤] سفيان بن عيينة بن أبي عمران ميمون الكوفي (١٠٧ – ١٩٨ هـ) : محدّث الحرم المكي. ولد ونشأ بالكوفة، وسكن مكة وتوفي بها. كان حافظًا ثقة، واسع العلم كبير القدر، وعمّر دهرًا، وانتهى إليه علو الإسناد، قال الشافعي: «لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز».

[٥] انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر، وحلية الأولياء لأبي نعيم الأصبهاني.

- عَنْ شُعَيْبِ بْنِ حَرْبٍ[١] قَالَ: "دَخَلْتُ عَلَى مَالِكِ بْنِ مِغْوَلٍ[٢] وَهُوَ فِي دَارِهِ بِالْكُوفَةِ جَالِسٌ وَحْدَهُ فَقُلْتُ: أَمَا تَسْتَوْحِشُ فِي هَذِهِ الدَّارِ؟ فَقَالَ: «مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَحَدًا يَسْتَوْحِشُ مَعَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[٣].

فمَا أَشْرَفَ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ وَأَعْلَى هَذِهِ الدَّرَجَةَ وَأَعْظَمَ هَذِهِ الْمَوْهِبَةَ؛ إِنَّمَا لَا يَسْتَوْحِشُ مَعَ اللَّهِ مَنْ عَمَّرَ قَلْبَهُ بِحُبِّهِ، وَأَنَسَ بِذِكْرِهِ، وَأَلِفَ مُنَاجَاتِهِ بِسِرِّهِ وَشُغِلَ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ، فَهُوَ مُسْتَأْنِسٌ بِالْوَحْدَةِ مُغْتَبِطٌ بِالْخُلْوَةِ.

- عن ذَي النُّونِ[٤]، قال: "وَجَدْتُ صَخْرَةً بِبَيْتِ الْمَقْدِسِ عَلَيْهَا أَسْطُرٌ؛ فَجِئْتُ بِمَنْ تَرْجَمَهَا فَإِذَا عَلَيْهَا مَكْتُوبٌ: كُلُّ عَاصٍ مُسْتَوْحِشٌ، وَكُلُّ مُطِيعٍ

---

[١] شعيب بن حرب أبو صالح المدائني، (ت ١٩٦ هـ): محدّث، من أبناء خراسان من أهل بغداد، تحول إلى المدائن، واعتزل بها، وكان له فضل، ثم خرج إلى مكة، فنزلها إلى أن مات بها.

[٢] مالك بن مِغْوَل بن عاصم الحارثي الصهبي البجلي (ت ١٥٨ هـ): من قبيلة بجيلة، تابعي، وراوي حديث نبوي من الثقات، من أهل الكوفة.

[٣] انظر: العزلة والانفراد لابن أبي الدنيا، والرسالة القشيرية لعبد الكريم القشيري.

[٤] ذو النون المصري: ثوبان بن إبراهيم، أحد علماء المسلمين في القرن الثالث الهجري ومن المحدّثين الفقهاء. ولد في أخميم في مصر سنة ١٧٩ هـ وتوفي سنة ٢٤٥ هـ كان أوحد وقته علماً، وورعاً، وحالاً، وأدباً.

مُسْتَأْنِسٌ، وَكُلُّ خَائِفٍ هَارِبٌ، وَكُلُّ رَاجٍ طَالِبٌ، وَكُلُّ قَانِعٍ غَنِيٌّ، وَكُلُّ مُحِبٍّ ذَلِيلٌ[١].

- أَنْشَدَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْمَعْرِفَةِ:

فَإِنْ كُنْتَ قَدْ أَوْحَشَتْكَ الذُّنُوبُ فَدَعْهَا إِذَا شِئْتَ وَاسْتَأْنِسِ

- أَنْشَدَنِي رَجُلٌ فَاضِلٌ مِنْ أَهْلِ زَمَانِنَا لِنَفْسِهِ فِي كَلِمَةٍ لَهُ:

وَيَأْنَسُ مِنْ وَحْدَةِ الْعَارِفِينَ فَأَوْحِشْ مِنْ وَحْدَةِ الْجَاهِلِ

- قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: إِنَّمَا يَسْتَوْحِشُ الْإِنْسَانُ بِالْوَحْدَةِ لِخَلَاءِ ذَاتِهِ وَعَدَمِ الْفَضِيلَةِ مِنْ نَفْسِهِ فَيَتَكَثَّرُ حِينَئِذٍ بِمُلَاقَاةِ النَّاسِ وَيَطْرُدُ الْوَحْشَةَ عَنْ نَفْسِهِ بِالْكَوْنِ مَعَهُمْ، فَإِذَا كَانَتْ ذَاتُهُ فَاضِلَةً طَلَبَ الْوَحْدَةَ لِيَسْتَعِينَ بِهَا عَلَى الْفِكْرَةِ وَيَتَفَرَّغَ لِاسْتِخْرَاجِ الْحِكْمَةِ[٢].

- قَالَ بَعْضُهُمْ: الِاسْتِئْنَاسُ بِالنَّاسِ مِنْ عَلَامَاتِ الْإِفْلَاسِ.

---

[١] انظر: شعب الإيمان للبيهقي، وتاريخ دمشق لابن عساكر.

[٢] انظر: إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، كتاب آداب العزلة.

– عَنْ خَلَفِ بْنِ تَمِيمٍ[١] قَالَ: "جِئْتُ أَطْلُبُ إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَدْهَمَ[٢] فِي يَوْمٍ مَطِيرٍ فَاطَّلَعْتُ فَلَمْ أَرَهُ فَأَعَدْتُ النَّظَرَ فَإِذَا هُوَ قَاعِدٌ تَحْتَ السَّرِيرِ وَقَدْ فَرَّ مِنَ الْوَكْفِ[٣] فَلَمَّا نَظَرَ إِلَيَّ قَالَ:

ارْضَ بِاللَّهِ صَاحِبَا[٤] وَذَرِ النَّاسَ جَانِبَا
قَلِّبِ النَّاسَ كَيْفَ شِئْـ ـتَ تَجِدْهُمْ عَقَارِبَا

---

[١] خلف بن تميم بن أبي عتاب التميمي ، الكوفي (ت ٢٠٦ هـ): ناسك مجاهد صدوق عابد أقام بالمصيصة، وصحب إبراهيم بن أدهم.

[٢] إبراهيم بن أدهم، أبو إسحاق: أحد علماء أهل السنة والجماعة، من أهل بلْخ في أفغانستان. كان من أبناء الملوك والمياسير. خرج متصيداً، فأثار ثعلباً وإذا هو في طلبه، هتف به هاتف من قربوس سرجه: «والله! ما لهذا خُلقت!، ولا بهذا أُمرت!». فنزل عن دابته، وصادف راعياً لأبيه، فأخذ جبته فلبسها، وأعطاه ثيابه وقماشه وفرسه وترك طريقته في التزين بالدنيا، ورجع إلى طريقة أهل الزهد والورع. وخرج إلى مكة، وصحب بها سفيان الثوري، والُفضيل بن عِياض. ودخل بلاد الشام، فكان يعمل فيها، ويأكل من عمل يده.

[٣] الوكف: المطر.

[٤] وقد سئل إبراهيم بن أدهم: لم لا تخالط الناس؟ فقال: «إن صحبت من هو دوني آذاني بجهله، وإن صحبت من هو فوقي تكبر علي، وإن صحبت من هو مثلي حسدني، فاشتغلت بمن ليس في صحبته ملل ولا في وصله انقطاع ولا في الأنس به وحشة».

– عن الْفُضَيْلِ بْنِ عِيَاضٍ[١]، رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «كَفَى بِاللَّهِ مُحِبًّا، وَبِالْقُرْآنِ مُؤْنِسًا، وَبِالْمَوْتِ وَاعِظًا، اتَّخِذِ اللَّهَ صَاحِبًا وَذَرِ النَّاسَ جَانِبًا».

– قَالَ أَبُو الرَّبِيعِ الزَّاهِدُ: قُلْتُ لِدَاوُدَ الطَّائِيِّ[٢]: أَوْصِنِي. قَالَ: «صُمْ عَنِ الدُّنْيَا، وَاجْعَلْ فِطْرَكَ الْآخِرَةَ، وَفِرَّ مِنَ النَّاسِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ»[٣].

– عنِ ابْنِ السَّمَّاكِ[٤] قال: كَتَبَ إِلَيْنَا صَاحِبٌ لَنَا: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ النَّاسَ كَانُوا دَوَاءً يُتَدَاوَى بِهِ؛ فَأَصْبَحُوا دَاءً لَا يَقْبَلُ الدَّوَاءَ؛ فَفِرَّ مِنْهُمْ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ وَاتَّخِذِ اللَّهَ تَعَالَى مُؤْنِسًا، وَالسَّلَامُ».

---

[١] الفضيل بن عياض: أحد أعلام أهل السنة في القرن الثاني الهجري، لقب بـ «عابد الحرمين» (١٠٧ – ١٨٧ هـ). وهو صاحب التوبة الشهيرة.

[٢] داود بن نصير الطائي، أبو سليمان (ت ١٦٥هـ): كان في أيام الخليفة المهدي وكان كبير الشأن. أصله من خراسان، ومولده بالكوفة. رحل إلى بغداد، فأخذ عن أبي حنيفة وغيره، وعاد إلى الكوفة، فاعتزل الناس، ولزم العبادة إلى أن مات فيها. قال أحد معاصريه: «لو كان داود في الأمم الماضية لقص الله شيئاً من خبره». وقال يوسف بن أسباط: «ورث داود الطائي عشرين ديناراً فأكلها في عشرين سنة» وله أخبار مع أمراء عصره وعلمائه.

[٣] انظر: إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، كتاب آداب العزلة.

[٤] ابْنُ السَّمَّاكِ أَبُو العَبَّاسِ مُحَمَّدُ بنُ صَبِيْحٍ العِجْلِيُّ الزَّاهِدُ، القُدْوَةُ، سَيِّدُ الوُعَّاظِ، تُوُفِّيَ سَنَةَ ثَلاَثٍ وَثَمَانِيْنَ وَمائَةٍ، وَقَدْ أَسَنَّ. ولما حضرته الوفاة قَالَ: اللهم إنك تعلم أني لم أجلس مجلسا للناس إلا لأحببك إلي خلقك، وأحبب خلقك إليك.

– قَالَ عَلِيُّ بْنُ سَهْلِ بْنِ الْمُغِيرَةِ: سَمِعْتُ أَبِي يَقُولُ: "رَأَيْتُ شَرِيكًا[١] وَقَدْ خَرَجَ مِنْ دَارِ الْمَهْدِيِّ فَاحْتَوَشَهُ[٢] أَصْحَابُ الْحَدِيثِ، فَتَقَدَّمْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ: اطْرُدْهُمْ عَنْكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ! قَالَ: وَأَنْطَرِدُ مَعَهُمْ[٣]".

– عن إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ قَالَ: بَلَغَنِي عَنِ الْحَسَنِ[٤]، رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: "كَلِمَاتٌ أَحْفَظُهُنَّ مِنَ التَّوْرَاةِ: قَنَعَ ابْنُ آدَمَ فَاسْتَغْنَى، اعْتَزَلَ النَّاسَ فَسَلِمَ، تَرَكَ الشَّهَوَاتِ فَصَارَ حُرًّا، تَرَكَ الْحَسَدَ فَظَهَرَتْ مُرُوءَتُهُ، صَبَرَ قَلِيلًا فَتَمَتَّعَ طَوِيلًا"[٥].

---

[١] شَريك بن عبد الله بن الحارث النخعي الكوفي القاضي، وكنيته أبو عبد الله، ولد في بخارى. أدرك شريك عمر بن عبد العزيز، وسمع سلمة بن كهيل، ومنصور بن المعتمر، وأبا إسحاق. استقضاه المنصور العباسي على الكوفة سنة ١٥٣ هـ، ثم عزله. وأعاده المهدي، فعزله موسى الهادي. توفي بالكوفة.

[٢] احْتَوَشوه: أحاطُوا به وجعلُوه وَسَطَهُم.

[٣] قال ذلك على سبيل التواضع والاستخفاء والخمول.

[٤] الحسن بن يسار البصري (٢١ – ١١٠ هـ) إمام وقاضٍ ومحدّث من علماء التابعين ومن أكثر الشخصيات البارزة في عصر صدر الإسلام. سكن البصرة، وعظمت هيبته في القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم. تنقل الحسن البصري بين مدن عدة، أولاها المدينة المنورة مسقط رأسه ومكان نشأته الأولى، وسافر إلى كابل مع فاتحيها، كما عمل كاتبًا للربيع بن زياد الحارثي في خراسان على عهد معاوية بن أبي سفيان، ثم استقر بالبصرة فنُسبَ إليها.

[٥] انظر: إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، كتاب آداب العزلة.

عَنْ وُهَيْبِ بْنِ الْوَرْدِ[١] قَالَ: "بَلَغَنَا أَنَّ الْحِكْمَةَ، عَشَرَةُ أَجْزَاءٍ: تِسْعَةٌ مِنْهَا فِي الصَّمْتِ، وَالْعَاشِرُ فِي عُزْلَةِ النَّاسِ"[٢]، وَرَأَيْتُ أَنَّ خَيْرَ هَذِهِ الْأَجْزَاءِ عُزْلَةُ النَّاسِ[٣].

- قِيلَ لِعَلِيِّ بْنِ بَكَّارٍ[٤]: مَا أَصْبَرَكَ عَلَى الْوَحْدَةِ؟ - وَقَدْ كَانَ لَزِمَ الْبَيْتَ - فَقَالَ: «كُنْتُ وَأَنَا شَابٌّ، أَصْبِرُ عَلَى أَشَدِّ مِنْ هَذَا؛ كُنْتُ أُجَالِسُ النَّاسَ وَلَا أُكَلِّمُهُمْ»[٥].

- قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ النَّحْوِيُّ الْوَرَّاقُ: حَدَّثَنِي بَعْضُ مَشَايِخِنَا قَالَ: "رَكِبْتُ فِي سَفِينَةٍ وَمَعَنَا شَابٌّ مِنَ الْعَلَوِيَّةِ[٦]، فَمَكَثَ مَعَنَا سَبْعًا لَا نَسْمَعُ لَهُ كَلَامًا، فَقُلْنَا لَهُ: يَا هَذَا قَدْ جَمَعَنَا اللَّهُ وَإِيَّاكَ مُنْذُ سَبْعٍ لَا نَرَاكَ تُخَالِطُنَا وَلَا تُكَلِّمُنَا! فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

قَلِيلُ الْهَمِّ لَا وَلَدٌ يَمُوتُ وَلَا أَمْرٌ يُحَاذِرُهُ السُّكُوتُ

---

[١] وُهَيْبُ بنُ الورد بن أَبي الورد القرشي: من العبّاد وأحد رواة الحديث النبوي الثقات من تابعي التابعين، توفي ١٥٣ هـ.

[٢] انظر: الزهد الكبير للبيهقي، والعزلة والانفراد لابن أبي الدنيا.

[٣] العبارة الأخيرة للخطابي.

[٤] علي بن بكار الإمام الرباني العابد أبو الحسن البصري الزاهد، نزيل المصيصة، ومريد إبراهيم بن أدهم. مات سنة سبع ومائتين.

[٥] انظر: إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، كتاب آداب العزلة.

[٦] من نسل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قَضَى وَطَرَ الصِّبَا وَأَفَادَ عِلْمًا فَغَايَتُهُ التَّفَرُّدُ وَالسُّكُوتُ[١]

هَذَا مِنْ نَمَطِ قَوْلِ سُفْيَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ: هَذَا زَمَانُ السُّكُوتِ وَلُزُومِ الْبُيُوتِ. وَأَخَذَ هذا المعنى عَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ[٢] فَقَالَ:

زَمَانُكَ ذَا زَمَانُ لُزُومِ بَيْتِ وَحِفْظٍ لِلّسَانِ وَخَفْضِ صَوْتِ

- قَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ[٣] لِمُغِيرَةَ: «تَفَقَّهْ ثُمَّ اعْتَزِلْ».
- قَالَ رَبِيعُ بْنُ خُثَيْمٍ[٤]: «تَفَقَّهْ ثُمَّ اعْتَزِلْ»[٥].

---

[١] انظر: إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي، كتاب آداب العزلة.

[٢] علي بن حجر ابن إياس بن مقاتل بن مخادش بن مشمرج السعدي المروزي (١٤٥ - ٢٤٤هـ): محدث وعالم مسلم، ارتحل في طلب العلم إلى الآفاق. كان ينزل بغداد قديما، ثم انتقل إلى مرو، واشتهر حديثه بها، وكان صادقًا متقنًا حافظًا.

[٣] إبراهيم بن يزيد النخعي الكوفي (٤٧ - ٩٦ هـ): تابعي وفقيه وقارئ كوفي، وأحد رواة الحديث النبوي.

[٤] الربيع بن خثيم بن عائذ بن عبد الله الثوري التميمي الكوفي (١٠ ق هـ - ٦٥ هـ): تابعي من أهل الكوفة، وأحد رواة الحديث النبوي، ولد في الجاهلية وأدرك زمن النبي ﷺ ولم يره ولذلك فهو معدود من كبار التابعين.

[٥] أخرجه الخطيب في "الفقيه والمتفقه"، والبيهقي في "الزهد الكبير".

- أَنْشَدَنِي بَعْضُ أَصْحَابِنَا لِمَنْصُورِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ[١]:

لَيْسَ هَذَا زَمَانَ قَوْلِكَ: مَا الْحُكْمُ عَلَى مَنْ يَقُولُ أَنْتِ حَرَامُ
وَالْحَقِي بَائِنًا بِأَهْلِكِ أَوْ أَنْتَ عَتِيقٌ مُحَرَّرٌ يَا غُلَامُ
وَمَتَى تُنْكَحُ الْمُصَابَةُ فِي الْعِدَّةِ عَنْ شُبْهَةٍ وَكَيْفَ الْكَلَامُ
فِي حَرَامٍ أَصَابَ سِنَّ غَزَالٍ فَتَوَلَّى وَلِلْغَزَالِ بُغَامُ؟
إِنَّمَا ذَا زَمَانُ كَدْحٍ إِلَى الْمَوْ تِ وَقُوتٌ مُبَلِّغٌ وَالسَّلَامُ

- قَالَ أَبُو الْحُسينِ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَبَّاسِ النَّحْوِيُّ[٢]: كَتَبَ إِلَيَّ ابْنُ لَمْجَةَ يَسْتَزِيرُنِي فَكَتَبْتُ إِلَيْهِ:

أَنِسَتْ نَفْسِي بِنَفْسِي فَهِيَ فِي الْوَحْدَةِ أُنْسِي
وَإِذَا آنَسْتُ غَيْرِي فَأَحَقُّ النَّاسِ نَفْسِي
فَسَدَ النَّاسُ فَأَضْحَى جِنْسُهُمْ مِنْ شَرِّ جِنْسِ
فَلَزِمْتُ الْبَيْتَ إِلَّا عِنْدَ تَأْذِينِي لِخَمْسِ

---

[١] منصور بن إسماعيل بن عمر أبي الحسن التميمي الفقيه المصري الشاعر الضرير: حدث عن: الربيع بن سليمان. وعنه: أبو القاسم الطبراني في "معجمه". توفي ٣٠٦ هـ بمصر.

[٢] محمد بن العباس بن الوليد البغدادي النحوي الفقيه القاضي، قاضي كلواذى، توفي عام : ٣٤٣ هـ.

قَالَ: وَكَانَ مُؤَذِّنَ مَسْجِدِهِ[١].

وَأَنْشَدَنِي آخَرُ:

وَإِذَا ضَجَرْتُ بِوَحْدَتِي فَمُؤَانِسِي هُوَ وَحْشَتِي حَتَّى يَقُومَ الْقَاعِدُ

- قَالَ الْأَصْمَعِيُّ[٢]: "سَأَلَنِي الرَّشِيدُ[٣] عَنْ أَعْرَابِ الْبَادِيَةِ، وَعَنْ أَخْبَارِهَا، فَحَدَّثْتُهُ أَنِّي كُنْتُ فِي مَكَانٍ يُقَالُ لَهُ الطِّخْفَةُ، وَهِيَ قَرْيَةٌ لِبَنِي كِلَابٍ، رَأَيْتُ فِيهَا أَعْرَابِيًّا فِي عُنُقِهِ طَوْقٌ مُلْتَوٍ مِنْ فِضَّةٍ، وَبِيَدِهِ زُكْرَةٌ[٤]، وَمَعَهُ قَدَحُ نَبْعٍ[٥]، فَتَتَبَّعْتُ أَثَرَهُ فَجَاءَ إِلَى جِذْمِ حَائِطٍ[٦] فَجَمَعَ رُمَيْلَةً ثُمَّ اتَّكَأَ عَلَيْهَا وَجَعَلَ يَصُبُّ مِنْ شَكْوَتِهِ[٧] نُبَاذَةً لَهُ فِي قَدَحِ النَّبْعِ وَيَشْرَبُهُ وَيَرْجُزُ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَوَقَفْتُ

---

[١] انظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي، ترجمة محمد بن العباسز

[٢] أَبُو سَعِيدْ عَبْدِ الْمَلِكْ بْنْ قَرِيبِ بْنْ عَبْدِ الْمَلِكْ بْنْ عَلِي بْنْ أَصْمَعْ الْبَاهِلِي الْبَصَرِيَّ المعروف بِالْأَصَمَعِي (١٢٣ - ٢١٦ هـ) راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان.

[٣] أَمِيرُ المؤمِنين وخَليفةُ الْمُسْلِمين أَبُو جَعْفَر هارُون الرَّشِيد بن مُحَمَّد المَهْديّ بن عَبدِ الله الْمَنْصُور بن مُحَمَّد بن عَلِيُّ بن عَبدِ الله بن العَبَّاس الهاشِميُّ القُرَشيُّ (١٤٩ - ١٩٣ هـ)، المعرُوف اختصارًا الرَّشيد أو هارُون الرَّشيد، خامِس خُلفاء بَنِي العبَّاس.

[٤] زكرة: وعاء من جلد يوضع فيه الخمر ونحوه.

[٥] نبع: شجر مخصوص يتخذ منه القسي.

[٦] جذم الشيء: أصله أو بقيته، والحائط: البستان.

[٧] الشَّكْوَةُ: وعاءٌ صَغيرٌ للماء واللَّبَن والخمر، يُتَّخذُ من جِلدٍ، وقد يُسْتَعْمَلُ لتبريد الماء.

عِنْدَهُ فَقَالَ: إِنَّ فِيهِ[١] خِلَالًا ثَلَاثًا: إِنْ سَمِعَ مِنِّي حَدِيثًا لَمْ يَنْمِهِ عَلَيَّ[٢]، وَإِنْ تَفَلْتُ فِي وَجْهِهِ احْتَمَلَ، وَإِنْ عَرْبَدْتُ عَلَيْهِ[٣] لَمْ يَغْضَبْ، فَقَالَ الرَّشِيدُ: زَهَّدْتَنِي فِي النُّدَمَاءِ.

– وهَذَا مِنَ الْأَعْرَابِيِّ فِي وَزْنِ قَوْلِ بَعْضِهِمْ، وَقَدْ كَانَ لَزِمَ الْمَقَابِرَ فَكَانَ يَغْدُو إِلَيْهَا وَيَرُوحُ وَمَعَهُ دَفْتَرٌ فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: "لَمْ أَرَ أَسْلَمَ مِنْ وَحْدَةٍ وَلَا أَوْعَظَ مِنْ قَبْرٍ وَلَا جَلِيسًا أَمْتَعَ مِنْ دَفْتَرٍ"[٤].

– وَمِمَّا يَدْخُلُ فِي نَمَطِ صَنِيعِ الْأَعْرَابِيِّ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ شَكْلِ مَا نَسْتَحْسِنُهُ، مَا أَنْشَدَنِيهِ بَعْضُ أَهْلِ الْأَدَبِ لِبَعْضِهِمْ[٥]:

لَمَّا رَأَيْتُ الزَّمَانَ نِكْسًا ... وَلَيْسَ بِالْحِكْمَةِ انْتِفَاعُ
كُلُّ رَئِيسٍ بِهِ مَلَالٌ ... وَكُلُّ رَأْسٍ بِهِ صُدَاعُ
لَزِمْتُ بَيْتِي وَصُنْتُ عِرْضًا ... بِهِ عَنِ الذِّلَّةِ امْتِنَاعُ
أَشْرَبُ مِمَّا ادَّخَرْتُ رَاحًا ... لَهَا عَلَى رَاحَتِي شُعَاعُ

---

[١] يعني في القدح الذي يشرب منه.

[٢] لم يذعه وينشره.

[٣] أسأتُ خلقي معه.

[٤] انظر: إحياء علوم الدين، باب آداب العزلة.

[٥] الأبيات منسوبة إلى أبي نصر الفارابي.

لِي مِنْ قراقيرِها نَدَامَى وَمِنْ قَوَارِيرِهَا سَمَاعُ
وَأَجْتَنِي مِنْ عُقُولِ قَوْمٍ قَدْ أَقْفَرَتْ مِنْهُمُ الْبِقَاعُ

- وَمِمَّا يَقْرُبُ مِنْ هَذَا قَوْلُ بَعْضِهِمْ:

تَبَيَّنْ هَدَاكَ اللَّهُ وَابْتَغِ صَاحِبًا تَقِيًّا وَإِلَّا عِشْ وَصَاحِبُكَ الظِّلُّ

- وَلِلْمُتَنَبِّي فِي هَذَا الْمَعْنَى:

أَجَلُّ مَكَانٍ رُمْتُهُ سَرْجُ سَابِحٍ وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الزَّمَانِ كِتَابُ

- قَالَ الْأَزْرَقِيُّ[١]: "لَمَّا انْصَرَفَ أَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ مِنَ الْحَكَمَيْنِ[٢] نَزَلَ مَكَّةَ فَبَنَى سَقِيفَةً مِنْ حِجَارَةٍ عَلَى فُوَّهَةِ شِعْبِ أَبِي الدُّبِّ[٣] وَهُنَاكَ مَقْبَرَةٌ فَقَالَ: «أُجَاوِرُ قَوْمًا لَا يَغْدِرُونَ»[٤] يَعْنِي أَهْلَ الْقُبُورِ[٥].

---

[١] أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق الغساني المكي المعروف بالأزرقي (ت ٢٥٠هـ). وهو صاحب كتاب أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار.

[٢] يعني لما انتهت مسألة التحكيم، وكان عليٌّ اختار أبا موسى حكماً، واختار معاويةُ عمرو بن العاص حكماً، وانتهى أمر الحَكَمين إلى ما هو مذكور في التاريخ.

[٣] شِعْبُ أَبِي دُبٍّ: هُوَ الشِّعْبُ الَّذِي فِيهِ الْجَزَّارُونَ، وَأَبُو دُبٍّ رَجُلٌ مِنْ بَنِي سُوَاةَ بْنِ عَامِرٍ، وَعَلَى فَمِ الشِّعْبِ سَقِيفَةٌ لِأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ.

[٤] قال ذلك لأنه تجرع مرارة الغدر في مسألة التحكيم.

[٥] انظر: أخبار مكة للأزرقي، فصل: شِقِّ مَعْلَاةِ مَكَّةَ الْيَمَانِيِّ.

فَأَمَّا نَهْيُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْهِجْرَةِ[١] أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثٍ فَإِنَّ الْعُزْلَةَ لَا تَجْرِي مَجْرَاهَا وَلَا تَدْخُلُ فِي مَعْنَاهَا، إِنَّمَا الْمَكْرُوهُ مِنَ الْهِجْرَةِ مَا يَدْعُوكَ إِلَيْهِ عَتَبٌ أَوْ مَوْجِدَةٌ، وَمَا قَصَدْتَ بِهِ الإِيحَاشَ لِأَخِيكَ وَتَعَمَّدْتَ الْإِضْرَارَ بِهِ وَالْإِخْلَالَ بِحُقُوقِهِ فِي مَنْعِ الْكَلَامِ وَرَدِّ التَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ، وَلَيْسَ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا يَجْرِي مُؤْثِرُ الْعُزْلَةِ وَمَنْ يَمِيلُ إِلَى الْإِقْلَالِ مِنَ الْخِلْطَةِ؛ لِأَنَّهُ لَا يُهْمِلُ هَذِهِ الْحُقُوقَ وَلَا يَقْصِدُ فِيهَا بِهَا قَصْدَ الْجَفَاءِ وَالْعُقُوقَ.

وَقَدْ يَحْتَمِلُ عِنْدِي أَنْ يُقَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ يَضِيرُ هُجْرَانُ الظَّالِمِ أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثٍ إِذَا لَمْ تُؤْمَنْ بَوَائِقُهُ وَلَا هُجْرَانُ مَنْ تُرِيدُ بِهَجْرِكَ إِيَّاهُ تَقْوِيمَهُ وَاسْتِصْلَاحَهُ إِذَا كَانَ خَاصًّا بِكَ أَوْ مُنْقَطِعًا إِلَيْكَ أَوْ دَاخِلًا فِي جُمْلَتِكَ وَمِنْ طَبَقَاتِ أَهْلِ سِيَاسَتِكَ، وَرُبَّ هَجْرٍ أَشْبَهَ وَصْلًا، وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ.

- عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَجَرَهَا[٢] ذَا الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمَ وَبَعْضَ صَفَرٍ»[٣].

---

[١] يعني قوله صلى الله عليه وسلم: "لا يهجر المسلم أخاه فوق ثلاث ليال".

[٢] في الحديث أنه هجر زينب بنت جحش أم المؤمنين. انظر الهامش التالي.

[٣] أخرجه أحمد وابن سعد في (الطبقات الكبرى) والطبراني، وأبو داود وسكت عنه وقال: كل ما سكتُّ عنه فهو صالح. ونص حديث عائشة: اعتَلَّ بعيرٌ لصَفِيَّةَ بنتِ حُيَيٍّ، وعند زينب فَضلُ ظَهرٍ، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم لزينبَ: أعطيها بعيرًا، فقالت: أنا أعطي تلك اليهوديَّةَ؟! فغَضِبَ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فهَجَرَها ذا الحِجَّةِ والمحرَّمَ وبَعضَ صَفَرٍ.

– قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعْتَزَلَ نِسَاءَهُ شَهْرًا وَصَعِدَ إِلَى غُرْفَةٍ لَهُ، وَهِيَ خِزَانَتُهُ، فَلَبِثَ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ فَلَمَّا نَزَلَ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كُنْتَ فِي الْغُرْفَةِ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ قَالَ: «إِنَّ الشَّهْرَ قَدْ يَكُونُ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ»[١].

– عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَصْلُحُ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ لَا تُؤْمَنُ بَوَائِقُهُ»[٢].

وَمُحَمَّدُ بْنُ الْحَجَّاجِ الْمُصَقِّرُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِالْقَوِيِّ عِنْدَ أَهْلِ الْحَدِيثِ فَإِنَّ دَلَائِلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْقِيَاسِ مُتَظَاهِرَةٌ عَلَى "جَوَازِ هُجْرَانِ مَنْ لَا تُؤْمَنُ بَوَائِقُهُ وَالتَّبَاعُدِ مِنْهُ بَلْ هُوَ الْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ".

– عَنِ الْحَسَنِ[٣] قَالَ: «هُجْرَانُ الْأَحْمَقِ قُرْبَةٌ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»[٤].

---

[١] رواه مسلم عن عمر بن الخطاب في حديث طويل رائق جميل.

[٢] الجزء الأول من الحديث صحيح متفق عليه، أما الجزء الثاني (إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِمَّنْ لَا تُؤْمَنُ بَوَائِقُهُ) فضعيف قال عنه الألباني في السلسلة: باطل بزيادة آخره.

[٣] البصري.

[٤] انظر: معجم شيوخ ابن الأعرابي، وغذاء الألباب في شرح منظومة الآداب للسفاريني، والفردوس بمأثور الخطاب للديلمي.

- ذُكِرَ عِنْدَ مُحَمَّدِ بْنِ عُمَرَ الْوَاقِدِيُّ[١] رَجُلٌ هَجَرَ رَجُلًا حَتَّى مَاتَ فَقَالَ: هَذَا شَيْءٌ قَدْ تَقَدَّمَ فِيهِ قَوْمٌ: سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ كَانَ مُهَاجِرًا لِعَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ حَتَّى هَلَكَا، وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ كَانَ مُهَاجِرًا لِعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ، وَعَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَتْ مُهَاجِرَةً لِحَفْصَةَ، وَكَانَ طَاوُسٌ مُهَاجِرًا لِوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ حَتَّى مَاتَ"[٢].

أَمَّا مَا شَجَرَ بَيْنَ الصَّحَابَةِ مِنَ الْأُمُورِ وَحَدَثَ فِي زَمَانِهِمْ مِنِ اخْتِلَافِ الْآرَاءِ فَإِنَّهُ بَابٌ كُلَّمَا قَلَّ التَّسَرُّعُ فِيهِ وَالْبَحْثُ عَنْهُ كَانَ أَوْلَى بِنَا وَأَسْلَمَ لَنَا، وَمِمَّا يَجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَعْتَقِدَ فِي أَمْرِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا أَئِمَّةً عُلَمَاءَ قَدِ اجْتَهَدُوا فِي طَلَبِ الْحَقِّ وَتَحَرَّوْا وِجْهَتَهُ وَتَوَخَّوْا قَصْدَهُ، فَالْمُصِيبُ مِنْهُمْ مَأْجُورٌ، وَالْمُخْطِئُ مَعْذُورٌ، وَقَدْ تَعَلَّقَ كُلٌّ مِنْهُمْ بِحُجَّةٍ وَفَزِعَ إِلَى عُذْرٍ، وَالْمُقَايَسَةُ عَلَيْهِمْ وَالْمُبَاحَثَةُ عَنْهُمُ اقْتِحَامٌ فِيمَا لَا يَعْنِينَا. وَاللَّهُ تَعَالَى يَغْفِرُ لَنَا وَلَهُمْ بِرَحْمَتِهِ.

---

[١] الواقدي (١٣٠ - ٢٠٧ هـ): محمد بن عمر بن واقد السهمي الأسلمي، المدني، الواقدي، من أقدم المؤرخين في الإسلام، ومن أشهرهم، ومن حفاظ الحديث. كان إلى حفظه المنتهى في الأخبار والسير والمغازي والحوادث وأيام الناس والفقه. وهو عارف في التاريخ. ذكره الذهبي فقال: «أحد أوعية العلم على ضعفه المتفق عليه.» وقال عنه كذلك «جمع، فأوعى، وخلط الغث بالسمين، والخرز بالدر الثمين، فاطرحوه لذلك، ومع هذا فلا يستغنى عنه في المغازي، وأيام الصحابة وأخبارهم».

[٢] انظر: الكنز الأكبر من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لابن داود الحنبلي، وإحياء علوم الدين للغزالي، والمعارف لابن قتيبة.

وَلَيْسَ التَّهَاجُرُ مِنْهُمْ وَالتَّصَارُمُ بِأَكْثَرَ مِنَ التَّقَاتُلِ فِي الْحُرُوبِ وَالتَّوَاجُهِ بِالسُّيُوفِ، وَلَا أَعْجَبَ مِنَ التَّبَاهُلِ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ مِنَ الِاخْتِلَافِ وَالتَّنَازُعِ فِي التَّأْوِيلِ، وَكُلٌّ مِنْهُمْ فِي ذَلِكَ مَأْجُورٌ عَلَى قَدْرِ اجْتِهَادِهِ فِي طَلَبِ الْحَقِّ وَحُسْنِ نِيَّتِهِ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ، وَنَسْأَلُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُ رَءُوفٌ رَحِيمٌ.

فَأَمَّا مَنْ بَعْدَ الصَّحَابَةِ مِنَ التَّابِعِينَ وَمَنْ وَرَاءَهُمْ مِنْ طَبَقَاتِ الْمُتَأَخِّرِينَ فَلَنَا مُنَاظَرَتُهُمْ فِي مَذَاهِبِهِمْ وَمُوَافَقَتُهُمْ عَلَيْهَا وَالْكَشْفُ عَنْ حُجَجِهِمْ وَالْقَوْلُ بِتَرْجِيحِ بَعْضِهَا عَلَى الْبَعْضِ، وَإِظْهَارُ الْحَقِّ مِنْ أَقَاوِيلِهِمْ لِيُقْتَدَى بِهِمْ، وَالتَّنْبِيهُ عَلَى الْخَطَأِ مِنْهُمْ لِيُنْتَهَى عَنْهُ.

وَإِنَّمَا كَانَ هُجْرَانُ طَاوُسَ وَهْبًا لِأَنَّ وَهْبًا مَالَ فِي آخِرِ أَمْرِهِ إِلَى رَأْيِ الْقَدَرِيَّةِ وَأَظْهَرَهُ لِلنَّاسِ فَعَاتَبَهُ طَاوُسُ عَلَى ذَلِكَ فَلَمَّا لَمْ يَنْتَهِ عَنْهُ نَابَذَهُ وَهَجَرَهُ.

- قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ: "كَانَ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ[١] يَشْهَدُ الْجَنَائِزَ وَيَعُودُ الْمَرْضَى وَيُعْطِي الْإِخْوَانَ حُقُوقَهُمْ، فَتَرَكَ ذَلِكَ وَاحِدًا وَاحِدًا حَتَّى تَرَكَهَا كُلَّهَا وَكَانَ يَقُولُ: لَا يَتَهَيَّأُ لِلْمَرْءِ أَنْ يُخْبِرَ بِكُلِّ عُذْرٍ"[٢].

- وعنِ ابْنِ وَهْبٍ[٣] قَالَ: لَا تَعُدْ إِلَّا مَنْ يَعُودُكَ وَلَا تَشْهَدْ جَنَازَةَ مَنْ لَا يَشْهَدُ جَنَازَتَكَ وَلَا تُؤَدِّ حَقَّ مَنْ لَا يُؤَدِّي حَقَّكَ فَإِنْ عَدَلْتَ عَنْ ذَلِكَ فَأَبْشِرْ بِالْجَوْرِ"[٤].

ومِثْلُ هَذِهِ الْمُحَاسَبَةِ إِذَا كَانَ مِنَ الْأَئِمَّةِ وَأَهْلِ الْقُدْوَةِ فَإِنَّمَا يُرَادُ بِهِ التَّأْدِيبُ وَالتَّقْوِيمُ دُونَ الْمُكَافَأَةِ وَالْمُجَازَاةِ، وَبَعْضُ هَذَا مِمَّا يُرَاضُ بِهِ بَعْضُ النَّاسِ

---

[١] مالك بن أنس بن مالك المدني. (٩٣ - ١٧٩ هـ): فقيه ومحدِّث ، وثاني الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة، وصاحب المذهب المالكي في الفقه الإسلامي. اشتُهر بعلمه الغزير وقوة حفظه للحديث النبوي وتتبُّعه فيه، وكان معروفاً بالصبر والذكاء والهيبة والوقار والأخلاق الحسنة.

[٢] انظر: الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن مفلح، وغذاء الألباب في شرح منظومة الآداب للسفاريني، وإحياء علوم الدين للغزالي.

[٣] لعله عبد الله بن وهب بن مسلم الفقيه المالكي من العهد العباسي: كان يسكن مصر وهو المولود في الفسطاط سنة ١٢٥ هـ، لزم الإمام مالكاً أكثر من عشرين سنة، وقضى حياته في طلب العلم.

[٤] الفروع وتصحيح الفروع لابن مفلح، وغذاء الألباب في شرح منظومة الآداب للسفاريني، والآداب الشرعية والمنح المرعية لابن مفلح.

وَيُصْلَحُ بِذَلِكَ مِنْ أَوَدِ أَخْلَاقِهِمْ. وَقَدْ رُوِيَ فِيمَا يُشْبِهُ هَذَا الْمَعْنَى حَدِيثٌ مَرْفُوعٌ:

- عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا خَيْرَ فِي صُحْبَةِ مَنْ لَا يَرَى لَكَ مِثْلَ الَّذِي تَرَى لَهُ»[1].

- قَالَ عَمْرُو بْنُ عَلِيٍّ: قُلْتُ لِأَبِي عَاصِمٍ: يَا أَبَا عَاصِمٍ، إِنَّ لِي قَرَابَةً إِذَا كَلَّمْتُهُ آذَانِي وَإِذَا تَرَكْتُهُ اسْتَرَحْتُ مِنْهُ، فَقَالَ أَبُو عَاصِمٍ:

وَفِي الْأَرْضِ مَنْجَاةٌ وَفِي الصِّرْمِ رَاحَةٌ وَفِي النَّاسِ أَنْدَادٌ سِوَاهُ كَثِيرُ

- قِيلَ لِعَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: "إِنَّ لِي قَرَابَةً يُهِينُونَنِي وَجِيرَانًا يُكْرِمُونَنِي، فَقَالَتْ: «أَكْرِمِي مَنْ أَكْرَمَكِ وَأَهِينِي مَنْ أَهَانَكِ»[2].

- أَنْشَدَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي حَكِيمٍ:

---

[1] رواه أبو نعيم في الحلية. وقال الخطابي في غريب الحديث: وقوله: "لا خَيرْ في صُحْبَةِ مَنْ لا يَرَى لَكَ مِثْلَ الَّذِي ترى له" يُتَأَوّلُ عَلَى وَجْهَين: أحدهما أن يكون حذَّرَه صُحْبَةَ مَنْ يذهب بنَفْسه تِيهًا وكِبْرًا فلا يَرَى لأحدٍ عَلَى نَفْسه حَقًا. والوَجْهُ الآخرُ: أن يكون حَثَّه بذلك عَلَى شُكْرِ العارفة والمكافأةِ عَلَى الإحْسان كأنّه قَالَ: لا خيرَ لك في صُحْبَة مَنْ لا يرى لك عنده من الصنيعة مِثْل الَّذِي تراه لَهُ عندك يُريدُ لا تَرْضَ بأن تكون مَغْمُورًا بِبِرّ من تَصْحَبُه حتّى تُنيلَه من بِرِّك مثْل ما تَنَالُ من بِرِّه.

[2] أمثال الحديث لأبي الشيخ الأصبهاني، وطبقات الحنابلة لابن أبي يعلى، والتاسع من المشيخة البغدادية لأبي طاهر السِّلَفي.

إِذَا كُنْتُ أَرْضَى مِنَ الدَّهْرِ أَنْ ... أَنَالَ الْكَفَافَ وَعَيْشًا سَدَادَا

فَإِنَّ الْغَنِيَّ وَإِنَّ الْفَقِيرَ ... وَإِنَّ الْبَخِيلَ وَإِنَّ الْجَوَادَا

عَلَيَّ سَوَاءٌ فَمَا لِي أَذِلُّ ... لِمَنْ لَا يَذِلُّ وَأُعْطِي الْقِيَادَا

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مُنْصِفًا فِي الْإِخَاءِ ... إِذَا زُرْتُ زَارَ وَإِنْ عُدْتُ عَادَا

يَرَانِي سَوَاءً فَيُعْطِي السَّوَاءَ ... عَلَى كُلِّ حَالٍ وَإِنْ زِدْتُ زَادَا

أَبَيْتُ عَلَيْهِ أَشَدَّ الْإِبَاءِ ... وَإِنْ كَانَ أَعْلَى قُرَيْشٍ عِمَادَا

وَقَارَضْتُهُ الْفِعْلَ وَزْنًا بِوَزْنٍ ... وَكَيْلًا بِكَيْلٍ عَلَى مَا أَرَادَا

وَنَافَقْتُهُ بِاقْتِصَارِ السَّلَامِ ... عَلَيْهِ وَلَمْ آلُ عَنْهُ بِعَادَا

وَإِنْ هُوَ سَارَ بِسِيرَةِ حُرٍّ ... جَعَلْتُ اللِّسَانَ لَهُ وَالْفُؤَادَا

صَحِبْتُ الزَّمَانَ فَإِمَّا مُقِيمًا ... وَإِمَّا مُفِيدًا أَجُوبُ الْبِلَادَا

وَأَسْتَعْرِضُ النَّاسَ عَرْضَ الْعِيَانِ ... وَأَسْأَلُ عَنْ ذَا وَذَاكَ اعْتِمَادَا

فَلَمْ أَرَ مِثْلَ الرِّضَا صَاحِبًا ... أَعَزَّ وَأَوْطَأَ مِنْهُ مِهَادَا

وَمَنْ فَارَقَ الصَّبْرَ أَعْطَى الْقِيَادَا ... وَرَاحَ يَذُمُّ إِلَيْكَ الْعِبَادَا

وَمَنْ طَلَبَ النُّجْحَ عِنْدَ الْكَذُوبِ ... أَطَالَ الرُّكُوبَ وَأَحْفَى الْجَوَادَا

وَأَعْيَا الْكِتَابَ بِرَدِّ الْجَوَابِ ... فَأَفْنَى قَرَاطِيسَهُ وَالْمِدَادَا

وَأَقْرَبَ مَا كَانَ مِنْ مَوْعِدٍ ... وَأَبْعَدَ مِنْهُ إِلَى مَا أَرَادَا

- وَعَلَى الْمَعْنَى الْأَوَّلِ مِنْ هَذَا الشِّعْرِ قَوْلُ مَعْنِ بْنِ أَوْسٍ[١]:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تُنْصِفْ أَخَاكَ وَجَدْتَهُ عَلَى طَرَفِ الْهِجْرَانِ إِنْ كَانَ يَعْقِلُ

وَيَرْكَبُ حَدَّ السَّيْفِ مِنْ أَنْ تَضِيمَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ عَنْ شَفْرَةِ السَّيْفِ مَرْحَلُ

- ولِمَالِكِ بْنِ الرَّيْبِ[٢]:

فَإِنْ تُنْصِفُوا يَا آلَ مَرْوَانَ نَقْتَرِبْ إِلَيْكُمْ وَإِلَّا فَأْذَنُوا بِبِعَادِ

فَإِنَّ لَنَا عَنْكُمْ مَرَاحًا وَمَرْحلًا بِعِيسٍ إِلَى رِيحِ الْفَلَاةِ صَوَادِي

---

[١] معن بن أوس بن نصر بن زياد المزني: شاعر فحل، من مخضرمي الجاهلية والإسلام، له مدائح في جماعة من الصحابة، رحل إلى الشام والبصرة، وكُف بصره في أواخر أيامه، وكان يتردد إلى عبد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر بن أبي طالب فيبالغان في إكرامه. له أخبار مع عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، وكان معاوية يفضله ويقول: أشعر أهل الجاهلية زهير بن أبي سلمى، وأشعر أهل الإسلام ابنه كعب ومعن بن أوس. وهو صاحب لامية العجم التي أولها: (لعمرك ما أدري وإني لأوجل على أينا تعدو المنية أول) مات في المدينة.

[٢] مالك بن الريب بن حوط بن قرط المازني التميمي: شاعر، من الظرفاء الأدباء الفتاك. اشتهر في أوائل العصر الأموي. ورويت عنه أخبار في أنه قطع الطريق مدة. ورآه سعيد بن عثمان بن عفان، بالبادية في طريقه بين المدينة والبصرة، وهو ذاهب إلى خراسان وقد ولّاه عليها معاوية (سنة ٥٦) فأنَّبه سعيد على ما يقال عنه من العيث وقطع الطريق واستصلحه واصطحبه معه إلى خراسان، فشهد فتح سمرقند، وتنسك. وأقام بعد عزل سعيد، فمرض في (مرو) وأحس بالموت فقال قصيدته المشهورة، وهي من غرر الشعر، وعدّتها ٥٨ بيتاً، مطلعها : ألا ليت شعري هل ابيتنّ ليلة بجنب الغضا أزجي القلاصَ النواجيا

فَفِي الْأَرْضِ عَنْ دَارِ الْمَذَلَّةِ مَذْهَبٌ وَكُلُّ بِلَادٍ أَوْطَنَتْ كَبِلَادِي

- وَبَلَغَنِي عَنِ ابْنِ شُبْرُمَةَ[١]، أَنَّهُ رَأَى مِنْ صَدِيقٍ لَهُ انْقِبَاضًا فَكَتَبَ إِلَيْهِ:

كِلَانَا غَنِيٌّ عَنْ أَخِيهِ حَيَاتَهُ وَنَحْنُ إِذَا مِتْنَا أَشَدُّ تَغَانِيَا

بَاب أَسْبَاب تُسَهِّلُ عَلَى الْمَرْءِ الْعُزْلَةَ

- عنِ ابْنِ إِبْرَاهِيمَ[٢]، قالَ: «لَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْعُزْلَةِ أَكْثَرُ مِنْ أَنَّكَ لَا تَجِدُ أَعْوَانًا عَلَى الْغِيبَةِ لَكَفَى».

وصَدَقَ أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ؛ فَإِنَّهُ مَا مِنْ أَحَدٍ جَالَسَ النَّاسَ فِي هَذَا الزَّمَانِ وَعَاشَرَهُمْ إِلَّا قَلَّتْ سَلَامَتُهُ مِنَ الْغِيبَةِ؛ فَإِنَّ مِنْ شَأْنِهِمُ الْيَوْمَ أَنْ يَقَعَ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ وَأَنْ يَسْبَعَ[٣] بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَأَنْ يَتَمَضْمَضُوا بِذِكْرِ الْأَعْرَاضِ وَيَتَفَكَّهُوا بِهَا، وَيَتَنَقَّلُوا بِحَلَاوَتِهَا[٤]، فَإِمَّا أَنْ يُسَاعِدَهُمْ جَلِيسُهُمْ عَلَى إِثْمٍ وَتَرْكِ

---

[١] عبد الله بن شُبْرُمَة بن طفيل بن حسان الضبي الكوفي وكنيته أبو شبرمة: الإمام العلامة فقيه العراق قاضي الكوفة، تابعي من صغار التابعين، ومن رواة الحديث، وثقه أحمد بن حنبل، وكان عفيفاً صارماً عاقلاً خيّراً يشبه النساك وكان شاعراً كريماً جواداً توفي عام ١٤٤ هـ.

[٢] لم أجده.

[٣] يسبع: يعيب، يشتم.

[٤] من النَّقْلُ: ما يُتَنَقَّلُ به على الشراب من فواكهَ وكوامخَ وغيرِها وكل ما يُتفكَّه به من جَوز ولوز وبُندق ونحوها، وأكثر ما يكون ذلك في ليالي رمضان.

مُرُوءَةٍ، وَإِمَّا أَنْ يُخَالِفَهُمْ عَنْ قِلًى وَشَنَآنَ، فَمُجَالَسَتُهُمْ دَاءٌ يُعْدِي يَضُرُّ وَلَا يُجْدِي.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْعُزْلَةِ إِلَّا السَّلَامَةُ مِنْ آفَةِ الرِّيَاءِ وَالتَّصَنُّعِ لِلنَّاسِ وَمَا يُدْفَعُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ إِذَا كَانَ فِيهِمْ مِنِ اسْتِعْمَالِ الْمُدَاهَنَةِ مَعَهُمْ وَخِدَاعِ الْمُوَارَبَةِ فِي رِضَاهُمْ لَكَانَ فِي ذَلِكَ مَا يُرَغِّبُ فِي الْعُزْلَةِ وَيُحَرِّكُ إِلَيْهَا.

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ ذَا الْوَجْهَيْنِ الَّذِي يَأْتِي هَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ وَهَؤُلَاءِ بِوَجْهٍ»[1].

فَمَنْ أَحَبَّ السَّلَامَةَ مِنْ هَذِهِ الْخَلَّةِ فَلْيُقِلَّ مِنْ مُخَالَطَةِ النَّاسِ وَلْيَتَحَذَّرْ مُدَاخَلَتَهُمْ وَالتَّوَسُّطَ فِي أُمُورِهِمْ؛ فَإِنَّهُ إِذَا مُنِيَ بِذَلِكَ وَابْتُلِيَ بِشَيْءٍ مِنْهُ لَمْ يَسْلَمْ أَنْ يَلْقَى هَذَا بِوَجْهٍ وَصَاحِبَهُ بِوَجْهٍ آخَرَ، وَلَئِنْ خَالَفَ هَذِهِ الطَّرِيقَةَ أَوْشَكَ أَنْ يَشْنَأَهُ النَّاسُ وَيَتَّخِذُوهُ عَدُوًّا.

وَفِي الْعُزْلَةِ السَّلَامَةُ مِنَ الْمَأْثَمِ فِي الْمُنْكَرِ يَرَاهُ الْإِنْسَانُ فَلَا يُغَيِّرُهُ وَالْأَمَانُ مِنْ غَوَائِلِ أَهْلِهِ وَمِنْ عَادِيَتِهِمْ[2] إِذَا غَيَّرَهُ؛ فَقَدْ أَبَى أَكْثَرُ أَهْلِ هَذَا الزَّمَانِ قَبُولَ النَّصَائِحَ وَنَصَبُوا الْعَدَاوَةَ لِمَنْ دَعَاهُمْ إِلَى هُدًى أَوْ نَهَاهُمْ عَنْ رَدًى. فَلَوْ لَمْ

---

[1] متفق عليه.

[2] العادية: الظلم والشر.

يَكُنْ فِي الْوَحْدَةِ وَالتَّبَاعُدِ مِنْهُمْ إِلَّا السَّلَامَةُ مِنْ إِثْمِ الْمُدَاهَنَةِ وَخَطَرِ الْمُكَافَحَةِ لَكَانَ فِي ذَلِكَ الرِّبْحُ الرَّابِحُ وَالْغَنِيمَةُ الْبَارِدَةُ.

- قَالَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ[١]: "مَنْ خَالَطَ النَّاسَ لَمْ يَسْلَمْ مِنْ أَحَدِ اثْنَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَخُوضَ مَعَهُمْ إِذَا خَاضُوا فِي الْبَاطِلِ أَوْ يَسْكُتَ إِنْ رَأَى مُنْكَرًا فَيَأْثَمَ"[٢].

- وَقَدْ جَمَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْوَعِيدِ وَسَوَّى فِي الْعُقُوبَةِ بَيْنَ مَنْ أَتَى الْمُنْكَرَ وَبَيْنَ مَنْ رَآهُ فَلَا يُغَيِّرُهُ وَلَا يَأْبَاهُ"؛ فَعَنْ قَيْسِ بْنِ أَبِي حَازِمٍ[٣] قَالَ: قامَ أبو بَكْرٍ ، رضيَ اللَّهُ عنهُ ، فحمِدَ اللَّهَ وأثنى عليهِ، ثم قال: يا أيُّها النَّاسُ، إنَّكم تقرءون هذه الآيةَ، وتضعونها على غيرِ موضعِها "عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ" وإنَّا سمِعنا النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: "إنَّ النَّاسَ إذا رأَوُا الظَّالمَ فلم يأخُذوا على يدَيْه أوشك أن يعُمَّهم اللهُ بعقابٍ" وإنِّي سمِعتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: "ما من قومٍ يُعمَلُ فيهم

---

[١] الفضيل بن عياض: أحد أعلام أهل السنة في القرن الثاني الهجري، لقب بـ «عابد الحرمين» (١٠٧ - ١٨٧ هـ).

[٢] انظر: الزهد الكبير للبيهقي، فصل في العزلة والخمول.

[٣] قَيْس بن أَبي حازم أبو عبد الله البجلي الأحمسي الكوفي: من بجيلة، أدرك الجاهلية، وهاجر إِلَى النَّبِيّ ليبايعه، فقُبض وهو في الطريق، وأبوه أَبُو حازم له صحبة. وكان من علماء زمانه. كان قيس في جيش خالد بن الوليد في اليرموك وغيره، كبر قيس حتى جاوز المائة بسنين كثيرة ومات في آخر خلافة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٨ هـ.

بالمعاصي، ثمَّ يقدِرون على أن يُغيّروا، ثمَّ لا يُغيّروا إلَّا يوشِكُ أن يعُمَّهم اللهُ منه بعقابٍ"[١].

وَمِنْ مَنَاقِبِ الْعُزْلَةِ السَّلَامَةُ مِنْ آفَاتِ النَّظَرِ إِلَى زِينَةِ الدُّنْيَا وَزَهْرَتِهَا وَالِاسْتِحْسَانُ لِمَا ذَمَّهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ زُخْرُفِهَا وَعَابَهُ مِنْ زِبْرِجِ غُرُورِهَا[٢].

وَفِيهَا مَنْعُ النَّفْسِ مِنَ التَّطَلُّعِ إِلَيْهَا وَالِاسْتِشْرَافِ لَهَا وَمِنْ مُحَاكَاةِ أَهْلِهَا وَمُنَافَسَتِهِمْ عَلَيْهَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ}. وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ دُونَكُمْ وَلَا تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ»[٣].

- عَنِ الْحَسَنِ قَالَ: «إِيَّاكُمْ وَمُجَالَسَةَ أَهْلِ الْبَسْطَةِ فَإِنَّ مُجَالَسَتَهُمْ مَسْخَطَةٌ لِلرِّزْقِ»[٤].

---

[١] رواه أبو داود وصححه عنه الألباني.

[٢] الزبرج: الزينة.

[٣] رواه الترمذي بإسناد صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه.

[٤] رواه الإمام أحمد في "الزهد" عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: يا معشر المهاجرين! لا تدخلوا على أهل الدنيا؛ فإنها مَسْخطة للرزق.

- وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ[١]: كُنْتُ أُجَالِسُ الْأَغْنِيَاءَ فَلَا أَزَالُ مَغْمُومًا كُنْتُ أَرَى ثَوْبًا أَحْسَنَ مِنْ ثَوْبِي وَدَابَّةً أَفْرَهَ مِنْ دَابَّتِي فَجَالَسْتُ الْفُقَرَاءَ فَاسْتَرَحْتُ[٢].

- عَنِ الْحَسَنِ، فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ} قَالَ: «جَعَلْنَا الْغَنِيَّ فِتْنَةً لِلْفَقِيرِ وَالْفَقِيرَ فِتْنَةً لِلْغَنِيِّ».

- حُكِيَ أَنَّ الْمُزَنِيَّ[٣] خَرَجَ مِنْ بَابِ جَامِعِ الْفُسْطَاطِ مُعَلِّقًا نَعْلَيْهِ وَقَدْ أَقْبَلَ ابْنُ عَبْدِ الْحَكَمِ[٤] فِي مَوْكِبِهِ فَبَهَرَهُ مَا رَأَى مِنْ حَالِهِ وَحُسْنِ هَيْبَتِهِ فَتَلَا قَوْلَهُ عَزَّ

---

[١] عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود الهذلي الكوفي: تابعي وأحد رواة الحديث النبوي. أخو فقيه المدينة عبيد الله بن عبد الله بن عتبة. توفي سنة بضع عشرة ومائة.

[٢] أخرجه أبو نُعَيم في الحلية، ترجمة عون بن عبدالله.

[٣] إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن عمرو بن إسحاق بن مسلم بن نهدلة بن عبد الله المصري المعروف بالمزني (١٧٥ - ٢٦٤ هـ) أشهر تلاميذ الشافعي، قال الشافعي: المزني ناصر مذهبي. كان المزني زاهدًا عالمًا مجتهدًا مناظرًا محجاجًا غواصًا على المعاني الدقيقة. من كتبه الجامع الكبير والجامع الصغير والمختصر والمنثور، والمسائل المعتبرة، والترغيب في العلم، وكتاب الوثائق، وشرح السنة للمزني.

[٤] أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم: مؤرخ من أهل العلم بالحديث. مصري المولد والوفاة (١٨٧ -٢٥٧ هـ). وكان والده يشغل إذ ذاك منصب صاحب المسائل، وهي وظيفة لا ينالها إلا العلماء الأمناء. وأسرة ابن عبد الحكم إحدى الأسر العربية التي جاءت إلى مصر في القرن الأول الهجري. في عام ١٩٩ هـ، زار الإمام الشافعي مصر ونزل ضيفًا على والده عبد الله بن عبد الحكم.

وَجَلَّ {وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ} ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ بَلَى أَصْبِرُ وَأَرْضَى. وَكَانَ مُقِلًّا رَحْمَةُ اللَّهُ عَلَيْهِ[١].

وَمِنْ مَنَاقِبِ الْعُزْلَةِ أَنَّهَا خَالِعَةٌ عَنْكَ رِبْقَةَ ذُلِّ الْآمَالِ، وَقَاطِعَةٌ رِقَّ الْأَطْمَاعِ، وَمُعْيِدَةٌ عِزَّ الْيَأْسِ مِنَ النَّاسِ؛ فَإِنَّ مَنْ صَحِبَهُمْ وَكَانَ فِيهِمْ وَمَعَهُمْ لَمْ يَكَدْ يَخْلُو مِنْ أَنْ يُحَدِّثَ نَفْسَهُ بِنَوْعٍ مِنَ الطَّمَعِ فِيهِمْ؛ إِمَّا فِي مَالٍ أَوْ جَاهٍ؛ وَالطَّمَعُ فَقْرٌ حَاضِرٌ وَذُلٌّ صَاغِرٌ.

- وَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْغِنَى الْيَأْسُ عَمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ، وَمَنْ مَشَى مِنْكُمْ إِلَى طَمَعٍ فَلْيَمْشِ رُوَيْدًا»[٢].

- عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَيْسَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ»[٣].

---

[١] انظر: مرشد الزوار الى قبور الأبرار لزين الدين ابن الموفق، ترجمة المزني، وإحياء علوم الدين للغزالي، كتاب آداب العزلة.

[٢] من رواية عبدالله بن مسعود، قال الألباني في "ضعيف الجامع" وفي "السلسلة الضعيفة": ضعيف جداً.

[٣] حسنه الألباني في "هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة" عن حذيفة بن اليمان ونصه: "لا ينبغي للمؤمنِ أن يُذِلَّ نفسَه، قالوا: وكيف يُذِلُّ نفسَه؟! قال: يتعرضُ من البلاءِ لما لا يُطِيقُ".

- ولِعَبْدِ الصَّمَدِ بْنِ الْمُعَذَّلِ[١]:

تُكَلِّفُنِي إِذْلَالَ نَفْسِي لِعِزِّهَا وَهَانَ عَلَيْهَا أَنْ أُهَانَ فَتُكْرَمَا
تَقُولُ سَلِ الْمَعْرُوفَ يَحْيَى بْنَ أَكْثَمٍ فَقُلْتُ سَلِيهِ رَبَّ يَحْيَى بْنِ أَكْثَمَا

- عَنِ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ[٢]:

إِذَا كَانَ بَابُ الذُّلِّ مِنْ جَانِبِ الْغِنَى سَمَوْتُ إِلَى الْعَلْيَاءِ مِنْ جَانِبِ الْفَقْرِ
صَبَرْتُ وَكَانَ الصَّبْرُ مِنِّي سَجِيةً وَحَسْبُكَ أَنَّ اللَّهَ أَثْنَى عَلَى الصَّبْرِ

وَلَوْ لَمْ يَرْبَحِ الْإِنْسَانُ فِي الْعُزْلَةِ وَالتَّخَلِّي عَنِ النَّاسِ وَفِي النَّأْيِ عَنْ مَثَاوِيهِمْ[٣] وَالِانْقِطَاعِ عَنْ مُحَاوَرَتِهِمْ إِلَّا مَا يُكْفَاهُ مِنْ فَضْلِ مَؤُونَةِ التَّحَرُّزِ مِنْهُمْ وَمَا يَسْتَفِيدُهُ مِنَ الْأَمَانِ أَنْ يَرْفَعُوا عَلَيْهِ قَوْلًا يَسْمَعُونَهُ يَتَكَلَّمُ بِهِ فِي حَالِ غَفْلَةٍ

---

[١] عبد الصمد بن المعذّل بن غيلان بن الحكم بن البُختري الأسدي (ت ٢٤٠هـ): شاعر عربي من العصر العباسي الأوَّل.

[٢] أبو عبد الله محمد بن زياد بن الأعرابي الهاشمي: إمام لغة وراوية وناسب علامة باللغة، له مصنفات أدبية كثيرة، ولد في ١٥٠ هـ ٦٧ ومات بسامراء في ٢٣١ هـ ويعد من أعلام أهل الكوفة وكان أحول، أبوه مولى للعباس بن محمد بن علي الهاشمي، قال ثعلب: شاهدت مجلس ابن الأعرابي وكان يحضره زهاء مئة إنسان وكان يُسأل ويُقرأ عليه فيجيب من غير كتاب ولزمتُه بضع عشرة سنة ما رأيت بيده كتابًا قط ولقد أملى على الناس ما يُحمل على الجمال ولم يُر أحد في علم الشعر أغزر منه.

[٣] منازلهم، جمع مثوى.

وَاسْتِرْسَالِ، أَوْ يَتَأَوَّلُوا عَلَيْهِ كَلَامًا لَا تَبْلُغُ عُقُولُهُمْ كُنْهَهُ فَيُوَجِّهُوهُ إِلَى غَيْرِ جِهَتِهِ وَيَنْحلُوهُ غَيْرَ صِفَتِهِ، فَكَانَ فِيهِ كِفَايَةٌ كَافِيَةٌ وَعِصْمَةٌ وَافِيَةٌ.

– وَقَدْ رُوِّينَا عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: «مَا أَنْتَ مُحَدِّثٌ قَوْمًا حَدِيثًا لَا يَبْلُغُهُ عُقُولُهُمْ إِلَّا كَانَ لِبَعْضِهِمْ فِتْنَةً»[1].

قَالَ الْعَلَاءُ بْنُ سَعِيدٍ الْكِنْدِيُّ: حَدَّثَنِي شَيْخٌ، لَنَا قَالَ: "كُنْتُ أُمَاشِي إِسْمَاعِيلَ بْنَ سَهْلٍ، وَكَانَ أَحَدَ الْحُكَمَاءِ، فَقَالَ: "أَلَا أُخْبِرُكَ بِبَيْتِ شِعْرٍ خَيْرٍ لَكَ مِنْ عَشَرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ؟ فَقُلْتُ: بَيْتُ شِعْرٍ خَيْرٌ مِنْ عَشَرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ! فَقَالَ: نَعَمْ! ثُمَّ قَالَ: أَيُّهُمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ نَفْسُكَ أَوْ عَشَرَةُ آلَافِ دِرْهَمٍ؟ قُلْتُ: نَفْسِي: فَأَنْشَأَ يَقُولُ[2]:

اخْفِضِ الصَّوْتَ إِنْ نَطَقْتَ بِلَيْلٍ وَالْتَفِتْ بِالنَّهَارِ قَبْلَ الْمَقَالِ
لَيْسَ فِي الْقَوْلِ رَجْعَةٌ حِينَ يَبْدُو بِقَبِيحٍ يَكُونُ أَوْ بِجَمَالِ[3]

فَصَاحِبُ الْعُزْلَةِ فِي أَمَانٍ مِنْ هَذَا الْوَجَلِ وَفِي حِصْنٍ مِنْ هَذَا الثَّغْرِ.

---

[1] رواه مسلم.

[2] انظر الإحياء للغزالي، كتاب آداب العزلة.

[3] البيتان منسوبان لأبان اللاحقي.

وَقَدْ أَنْعَمَ بَيَانَ هَذَا الْمَعْنَى ذُو الرُّمَّةِ[١] حَيْثُ يَقُولُ:

أُحِبُّ الْمَكَانَ الْقَفْرَ مِنْ أَجْلِ أَنَّنِي ... بِهِ أَتَغَنَّى بِاسْمِهَا غَيْرَ مُعْجِمِ[٢]

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي الْعُزْلَةِ إِلَّا السَّلَامَةُ مِنْ صُحْبَةِ الْعَامَّةِ وَالرَّاحَةُ مِنْ تَعَبِ مُجَالَسَتِهِمْ وَمُصَابَرَةُ أَخْلَاقِهِمُ الْأَخْلَاقِ[٣] وَمَا يَسْتَفِيدُهُ الْإِنْسَانُ بِمُفَارَقَتِهِمْ وَيُكْفَاهُ مِنْ مَؤُونَةِ تَقْوِيمِهِمْ، وَيَأْمَنُهُ مِنْ غَوَائِلِهِمْ فِي صَدْقِهِمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، وَإِمْحَاضِ النَّصِيحَةِ لَهُمْ، فَإِنَّ الْحَقَّ كَمَا قِيلَ مَغْضَبَةٌ، وَبَعْضُ النُّصْحِ لِلْعَدَاوَةِ مَكْسَبَةٌ، لَكَانَ فِي ذَلِكَ رَاحَةٌ مُرِيحَةٌ.

وَقَدْ قَلَّ مَنْ يَعْرِفُ، وَأَقَلُّ مِنْهُ مَنْ يُنْصِفُ.

---

[١] ذو الرمة غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي: شاعر، من فحول الطبقة الثانية في عصره. قال أبو عمرو بن العلاء: فتح الشعر بامرئ القيس وختم بذي الرمة. وكان شديد القصر، دميماً، يضرب لونه إلى السواد. أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلال، يذهب في ذلك مذهب الجاهليين. وكان مقيماً بالبادية، يحضر إلى اليمامة والبصرة كثيراً.

[٢] البيت من قصيدته التي مطلعها: أَلا أَيُّهَذا المنزِلُ الدارِسُ اِسلَمِ ... وَسُقّيتَ صَوبَ الباكِرِ المتَغَيِّمِ

[٣] الأخلاق: جمع الخَلِق: وهو البالي من كل شيء.

- قيل لِلْأَصْمَعِيِّ: مَا قَوْلُ النَّاسِ: الْحَقُّ مَغْضَبَةٌ؟ فَقَالَ: «وَهَلْ يَسْأَلُ عَنْ مِثْلِ هَذَا إلاَ رازِمٌ[١]؟ قَلَّمَا بَكَعَ[٢] أَحَدٌ بِالْحَقِّ إِلَّا اعْرُنْزِمَ له[٣]»[٤].

- عَنِ الرِّيَاشِيِّ[٥]:

وَكَمْ سُقْتُ فِي آثَارِكُمْ مِنْ نَصِيحَةٍ وَقَدْ يَسْتَفِيدُ الْبِغْضَةَ الْمُتَنَصِّحُ[٦]

وَقَدْ روينَا عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي التَّرَخُّصِ لِمَنْ رَأَى مُنْكَرًا فَلَمْ يُغَيِّرْهُ حَذَرَ الْفِتْنَةِ وَخَوْفَ الْقَالَةِ مِنَ النَّاسِ[٧].

---

[١] ضعيف.

[٢] بَكَعَه: استقبله بما يكره.

[٣] اعرنزم: تقبَّض وتجمَّع وتغضَّب واشتد.

[٤] ذكره الخطَّابي في غريب الحديث، والعيني في شرح سنن أبي داود. و"الحق مغضبة" مَثَل يُقَال للرجل تصدُّه عَن الْأَمر في هلاكه فيغضب. وتفسير كلام الأصمعي أن من تنصحه بحق يكرهه يغضب وتأخذه العزة بالإثم ولا ينالك من ذلك إلا غضبه عليك وبغضه لك.

[٥] أبو الفضل العباس بن الفرج الرياشي (ت ٢٥٧ هـ) مولى محمد بن سليمان الهاشمي. من كبار النحاة وأهل اللغة، راوية للشعر وعالم بأيام العرب. كان يحفظ كتب الأصمعي وكتب أبي زيدٍ. وسمي بالرياشي لأن أباه كان عند رجلٍ يقال له رياش فبقي عليه نسبه. مات مقتولاً في واقعة الزنج بالبصرة في خلافة المعتمد سنة سبعٍ وخمسين ومائتين.

[٦] البيت في "الكامل" للمبرِّد عن الرِّياشي، وفي "جمهرة الأمثال" للعسكري من إنشاد عمارة بن عقيل. وعزي في "مجموعة المعاني" و"التذكرة الحمدونية" إلى الأقرع بن معاذ.

[٧] سيأتي هذا الحديث بعد قليل.

فعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَيَسْأَلُ الْعَبْدَ حَتَّى يَقُولَ: مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَ الْمُنْكَرَ فِي الدُّنْيَا أَنْ تُنْكِرَهُ؟ فَإِذَا لَقَّنَ اللَّهُ عَبْدًا حُجَّتَهُ قَالَ: يَا رَبِّ رَجَوْتُكَ وفَرِقْتُ مِنَ النَّاسِ"[١].

هَذَا طَرِيقٌ فِي الرِّوَايَةِ يَرْتَضِيهِ أَهْلُ النَّقْلِ مِنْ أَهْلِ الْحَدِيثِ، فَعَلَى هَذَا لَا يُحَرَّجُ الْمَرْءُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ إِنْ تَرَكَ أَنْ يَتَعَرَّضَ لِأَهْلِ الْمُنْكَرِ إِذَا خَافَ عَادِيَتَهُمْ وَلَمْ يَأْمَنْ بَوَائِقَهُمْ مَا دَامَ كَارِهًا لِفِعْلِهِمْ بِقَلْبِهِ وَمُصَارِمًا لَهُمْ بِعَزْمِهِ وَنِيَّتِهِ.

ثُمَّ اعْلَمْ يَا أَخِي أَنَّ عَامَّةَ أَهْلِ هَذَا الزَّمَانِ قَدْ سَاءَتْ رَغْبَتُهُمْ وَقَلَّتْ آدَابُهُمْ وَغَلُظَتْ مِحْنَتُهُمْ عَلَى مَنْ يُعَاشِرُهُمْ؛ لِأَنَّ مَوْقِفَهُ فِيهِمْ بَيْنَ أَنْ يُخَوِّنَهُمْ فَيُسَالِمَهُمْ وَبَيْنَ أَنْ لَا يَصُونَ نَفْسَهُ فَيُنَاصِحَهُمْ.

وَقَدْ كَانُوا وَالنَّاسُ نَاسٌ وَالزَّمَانُ زَمَانٌ يَسْتَبْشِعُونَ الْحَقَّ[٢] وَيَسْتَمْرِئُونَ[٣] طَعْمَ النُّصْحِ، وَيَتَنَكَّرُونَ لِمَنْ يُهْدِي إِلَيْهِمْ عُيُوبَهُمْ وَيَصْدُقُهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ، فَمَا

---

[١] أخرجه ابن ماجه، وأحمد، وصححه الألباني. ومعنى "وفَرِقْتُ مِن النَّاسِ"، أيْ: خِفتُ مِنهم، فسامَحتُ في حقِّك؛ اعتِمادًا على أنَّك كريمٌ مَرجُوٌّ؛ لكَمالِ فَضلِك ولُطفِك.

[٢] يستقبحونه.

[٣] يستسيغون ويستطيبون ويقبلون.

ظَنُّكَ بِهِمُ الْآنَ مَعَ فَسَادِ هَذَا الزَّمَانِ الْكَلِبِ[١] الْمُتَقَلِّبِ؟ أَتُرَاهُمْ يُذْعِنُونَ لِلْحَقِّ وَيُصِيخُونَ[٢] إِلَى النُّصْحِ؟ كَلَّا، إِنَّكَ إِلَى أَنْ تَفْسُدَ بِهِمْ أَقْرَبُ مِنْهُمْ إِلَى أَنْ يَصْلُحُوا بِكَ.

وَقَدْ قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مَنْ قَابَلَ الْكَثِيرَ مِنَ الْفَسَادِ بِالْيَسِيرِ مِنَ الصَّلَاحِ فَقَدْ غَرَّرَ بِنَفْسِهِ، مِثَالُهُ أَنْ يَمِيلَ جِدَارٌ فَيَأْتِيَهُ رَجُلٌ فَيَدْعَمَهُ بِيَدِهِ لِيُقِيمَهُ؛ فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يَسْقُطَ عَلَيْهِ فَيَكُونَ فِيهِ تَلَفُهُ. بَلَى، إِذَا وَجَدَ أَعْوَانًا وَآلَةً فَدَعَمَهُ بِأَعْمِدَةٍ وَرَدِفَهُ بِقَوَائِمَ مِنْ خَشَبٍ وَنَحْوِهَا كَانَ جَدِيرًا أَنْ يَسْتَقِلَّ وَيَثْبُتَ، وَكَانَ الرَّجُلُ حَقِيقًا أَنْ يَسْلَمَ وَيَنْجُو.

فَانْظُرْ رَحِمَكَ اللَّهُ وَتَأَمَّلْ هَلْ تَجِدُ الْيَوْمَ أَعْوَانًا عَلَى الْمَعْرُوفِ وَدُعَاةً إِلَى الْخَيْرِ وَنُهَاةً عَنِ الْمُنْكَرِ؟ فَإِنْ كُنْتَ لَا تَظْفَرُ بِهِمْ وَلَا تَقْدِرُ عَلَيْهِمْ فَانْجُ بِرَأْسِكَ وَلَا تُغَرِّرْ بِنَفْسِكَ؛ إِنَّ رَضا النَّاسِ غَايَةٌ لَا تُدْرَكُ، هيهات! قَدْ أَعْيَا الْأَوَّلِينَ دَوَاؤُهُمْ وَانْقَطَعَتْ فِيهِمْ حِيَلُهُمْ، فَمَا حَاجَتُكَ إِلَى غَنَاءٍ لَا غَنَاءَ لَهُ وَتَعَبٍ لَا نُجْحَ فِيهِ، وَمَا أَرَبُكَ بِصُحْبَةِ قَوْمٍ لَا تَسْتَفِيدُ بِلُقِيِّهِمْ عِلْمًا وَلَا بِمَشْهَدِهِمْ جَمَالًا وَلَا بِمَعُونَتِهِمْ مَالًا، إِذَا تَأَمَّلْتَهُمْ حَقًّا وَجَدْتَهُمْ إِخْوَانَ الْعَلَانِيَةِ أَعْدَاءَ السَّرِيرَةِ، إِذَا لَقُوكَ تَمَلَّقُوكَ

---

[١] المؤذي.

[٢] يستمعون.

وَإِذَا غِبْتَ عَنْهُمْ سَبَعُوكَ[١]، مَنْ أَتَاكَ مِنْهُمْ كَانَ عَلَيْكَ رَقِيبًا، وَمَنْ خَرَجَ قَامَ بِكَ خَطِيبًا. أَهْلُ نِفَاقٍ وَخَدِيعَةٍ وَأَصْحَابُ نَقْلٍ وَنَمِيمَةٍ وَإِخْوَانُ بَهْتٍ وَعَظِيمَةٍ. لَا يَغُرَّنَّكَ مَا تَرَى مِن احْتِشَادِهِمْ عِنْدَكَ وَازْدِحَامِهِمْ عَلَيْكَ، وَلَا تَتَوَهَّمَنَّ أَنَّ بِهِمْ تَعْظِيمًا لِعِلْمِكَ أَوْ تَقْدِيمًا لِحَقِّكَ، إِنَّ عُظْمَ مَا يَقُودُهُمُ الْيَوْمَ إِلَى مَجَالِسِ الْعُلَمَاءِ وَيَحْشُرُهُمْ إِلَى أَبْوَابِهِمُ الرَّغْبَةُ فِي مَنَالٍ لِمَآرِبِهِمْ وَيَتَّخِذونَكَ سُلَّمًا إِلَى أَوْطَارِهِمْ وَجَمِيرًا لِحَاجَاتِهِمْ، فَهُمُ الْمَسَاكِينُ بَيْنَ شَرَّيْنِ: مِنْهُمْ وَمِنْ تَكَالِيفِهِمْ؛ إِنْ أَسْعَفُوهُمْ بِبَعْضِهَا أَضْجَرُوهُمْ بِكَثْرَةِ تَوَابِعِهَا وَآذَوهُمْ، وَإِنِ امْتَنَعُوا عَلَيْهِمْ فِيهَا سَبَعُوهُمْ وَعَادوهُمْ، ثُمَّ إِنَّهُمْ عَلَى ذَلِكَ يُلْزِمُونَهُمْ بَدَالَّةِ الْمَعْرِفَةِ أَنْ يُهْدِفُوا لَهُمْ أَغْرَاضَهُمْ[٢] فَيُخَاصِمُوا عَنْهُمْ مَنْ خَاصَمَهُمْ وَيُعَادُوا مَنْ عَادَاهُمْ وَيُنَازِلُوا مَنْ نَازَلَهُمْ، فَيَصِيرُونَ مِنْ حَيْثُ قَدَّرُوا أَنَّهُمْ فُقَهَاءُ سُفَهَاءَ، وَمِنْ حَيْثُ ظَنُّوا أَنَّهُمْ مَتْبُوعُونَ رُؤَسَاءُ أَتْبَاعًا أَخِسَّاءَ، فَمَنْ أَخْسَرُ صَفْقَةً وَأَشَدُّ بَلِيَّةً مِنْ هَؤُلَاءِ مَعَهُمْ؟ أَلَيْسَ الْفِرَارُ مِنْهُمْ حَقًّا وَاجِبًا؟ وَالتَّخَلُّصُ مِنْ بَيْنِهِمْ غُنْمًا؟ بَلَى إِنَّهُ لَكَذَلِكَ، وَبِحَقِّ مَا قِيلَ: اعْتِزَالُ الْعَامَّةِ مُرُوءَةٌ تَامَّةٌ.

وَمِنْ مَنَاقِبِ الْعُزْلَةِ أَنَّهَا تَحْسِمُ عَنْكَ أَوْهَامَ الْمُتَجَنِّينَ وَتَقْطَعُ مَوَادَّ شِكَايَاتِ الْمُتَجَرِّمِينَ؛ وَذَلِكَ أَنَّ طِبَاعَ النَّاسِ مُتَفَاوِتَةٌ مُتَعَادِيَةٌ، وَهِمَمُهُمْ مُخْتَلِفَةٌ، وَوَسَاوِسُ

---

[١] شتموك وعابوك.

[٢] يقربونها إليهم.

صُدُورِهِمْ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّ سُوءَ ضَمَائِرِهِمْ يُصَوِّرُ لَهُمْ وَيُوحِي إِلَى قُلُوبِهِمْ أَنَّ اجْتِمَاعَ كُلِّ طَائِفَةٍ مِنَ النَّاسِ وَتَنَاجِي كُلِّ شِرْذِمَةٍ مِنْهُمْ إِنَّمَا هُوَ فِي التَّنْقِيرِ[1] عَنْهُمْ وَالْبَحْثِ عَنْ عُيُوبِهِمْ، أَوْ فِي تَبْيِيتِ رَأْيٍ وَدَسِيسِ غَائِلَةٍ عَلَيْهِمْ، وَيَغْلِبُ هَذَا الظَّنُّ خُصُوصًا عَلَى مَنْ يُحِسُّ مِنْ نَفْسِهِ بِتُهْمَةٍ وَيُعْرَفُ عِنْدَ النَّاسِ بِرِيبَةٍ، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْمُنَافِقِينَ بِذَلِكَ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ}. وَمَا أَحْسَنَ قَوْلَ الْمُتَنَبِّي فِي أَهْلِ هَذِهِ الصِّفَةِ حَيْثُ يَقُولُ:

إِذَا سَاءَ فِعْلُ الْمَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونُهُ وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادُهُ مِنْ تَوَهُّمِ

وَعَادَى مُحِبِّيهِ بِقَوْلِ عِدَاتِهِ وَأَصْبَحَ فِي لَيْلٍ مِنَ الشَّكِّ مُظْلِمِ

قَالَ بَعْضُهُمْ: مُعَاشَرَةُ الْأَشْرَارِ تُورِثُ سُوءَ الظَّنِّ بِالْأَبْرَارِ.

فَمَنِ اعْتَزَلَ النَّاسَ وَانْقَطَعَ عَنْ مُجَالَسَتِهِمْ فَقَدْ أَحْسَنَ فِي هَذَا الْبَابِ الدِّفَاعَ عَنْ نَفْسِهِ، وَاسْتَظْهَرَ[2] بِالِاحْتِيَاطِ فِي طَلَبِ السَّلَامَةِ لَهَا.

وَمِمَّا يَقْطَعُ بِهَا عَنْكَ مَوَادَّ الشِّكَايَاتِ أَنَّكَ إِذَا عُرِفْتَ فِيهَا لَمْ تُسْتَبْطَأْ فِي حَقٍّ إِذَا فَاتَكَ مِنْ عِيَادَةٍ أَوْ شُهُودِ جَنَازَةٍ أَوْ حُضُورِ إِمْلَاكٍ[3] أَوْ وَلِيمَةٍ أَوْ نَحْوِهَا؛

---

[1] في المطبوعة: التنفير، بالفاء، وهو خطأ واضح. ومعنى التنقير البحث والتفتيش.

[2] تقوَّى وانتصر.

[3] الإملاك: عقد الزواج.

فَإِنَّ النَّاسَ إِذَا فَقَدُوكَ عَذَرُوكَ، وَإِذَا وَجَدُوكَ عَذَلُوكَ وَاسْتَقْصَرُوكَ، وَقَدْ تَكُونُ لِلْإِنْسَانِ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ أَعْذَارٌ لَا تُفْصِحُ بِهَا الْأَخْبَارُ.

وَقَدْ رويناَ فِيمَا مَضَى مِنْ هَذَا الْكِتَابِ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَنَسٍ، أَنَّهُ كَانَ يَشْهَدُ الْجَنَائِزَ وَيَعُودُ الْمَرْضَى وَيُؤَدِّي الْحُقُوقَ، ثُمَّ تَرَكَ وَاحِدًا وَاحِدًا حَتَّى تَرَكَهَا كُلَّهَا وَكَانَ يَقُولُ: لَيْسَ كُلُّ عُذْرٍ يَتَهَيَّأُ لِلْمَرْءِ أَنْ يُخْبِرَ بِهِ وَيُطْلِعَ النَّاسَ عَلَيْهِ.

وَفِي الْعُزْلَةِ السَّلَامَةُ مِنْ قَرِينِ السُّوءِ وَصَاحِبِ السُّوءِ وَعَشِيرِ السُّوءِ. وَقَدْ شَبَّهَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِحَرْقِ النَّارِ فَقَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «مَثَلُ جَلِيسِ السُّوءِ كَمَثَلِ الْكِيرِ إِنْ لَمْ يَحْرِقْكَ بِشَرَرِهِ عَلَقَ بِكَ مِنْ رِيحِهِ»[1].

- وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: إِنَّكَ لَنْ تَصْلُحَ أَبَدًا حَتَّى تُصْلِحَ جَلِيسَكَ.

- وَأَنْشَدَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ:

إِذَا كُنْتَ مِنْ أَهْلِ الْعَفَافِ فَلَا يَكُنْ قَرِينُكَ إِلَّا كُلَّ مَنْ يَتَعَفَّفُ

وَقَدْ أَفْرَدْنَا لِهَذَا بَابًا فِي الْكِتَابِ[2].

---

[1] قال العراقي: متفق عليه من حديث أبي موسى. ومعناه: كما أن الريح تعلق بالثوب ولا يُشعر به كذلك يسهل الفساد على القلب وهو لا يشعر به.

[2] هو باب التحذير من قرين السوء.

وَفِي الْعُزْلَةِ السَّلَامَةُ مِنَ التَّبَذُّلِ لِعَوَامِّ النَّاسِ وَحَوَاشِيهِمْ، وَالتَّصَوُّنُ عَنْ ذِلَّةِ الِامْتِهَانِ مِنْهُمْ، وَأَمَانُ الْمَلَامِ عَنِدَ الصَّدِيقِ، وَاسْتِحْدَاثُ الطِّرَاءَةِ[١] عِنْدَ اللِّقَاءِ، فَإِنَّ كُلَّ مَوْجُودٍ مَمْلُولٌ وَكُلَّ مَمْنُوعٍ مَطْلُوبٌ.

وَفِي هَذَا قَوْلُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «زُرْ غِبًّا تَزْدَدْ حُبًّا»[٢].

- وَلَقَدْ أَحْسَنَ فِي هَذَا الطَّائِيُّ[٣] حِينَ يَقُولُ:

وَطُولُ مَقَامِ الْمَرْءِ فِي الْحَيِّ مُخْلِقٌ لِدِيبَاجَتَيْهِ فَاغْتَرِبْ تَتَجَدَّدِ

فَإِنِّي رَأَيْتُ الشَّمْسَ زِيدَتْ مَحَبَّةً إِلَى النَّاسِ أَنْ لَيْسَتْ عَلَيْهِمْ بِسَرْمَدِ[٤]

---

[١] الطراءة: تكلف الحفاوة.

[٢] المرفوع ضعيف، والموقوف على عائشة صحيح، ففي صحيح ابن حبان، يَقولُ التابِعيُّ عَطاءُ بنُ أبي رَباحٍ: "دَخَلتُ أنا وعُبَيدُ بنُ عُمَيرٍ على عائِشةَ فقالت لِعُبيدِ بنِ عُميرٍ: قد آن لك أنْ تزورَنا فقال: أقولُ يا أمَّهْ كما قال الأوَّلُ: زُرْ غِبًّا تزدَدْ حُبًّا، فقالت: دعُونا مِن رَطانتِكم هذه. قال شعيب الأرناؤوط: إسناده صحيح على شرط مسلم.

[٣] حبيب بن أوس بن الحارث الطائي، أبو تمام: الشاعر، الأديب. أحد أمراء البيان. ولد في جاسم (من قرى حوران بسورية) ورحل إلى مصر، واستقدمه المعتصم إلى بغداد، فأجازه وقدمه على شعراء وقته فأقام في العراق. ثم ولي بريد الموصل، فلم يتم سنتين حتى توفي بها.

[٤] من قصيدة مطلعها: سَرَت تَستَجيرُ الدَمعَ خَوفَ نَوى غَدِ وَعادَ قَتاداً عِندَها كُلُّ مَرقَدِ

وَفِي الْعُزْلَةِ أَنَّهَا تَسْتُرُ الْقِلَّةَ وَتَكْتُفُ جِلْبَابَ التَّجَمُّلِ، فَلَا يُظْهَرُ عَلَى عَوْرَةٍ إِنْ كَانَتْ وَرَاءَهُ تَسُوءُ صَدِيقًا أَوْ تُشْمِتُ عَدُوًّا؛ فَإِنَّ التَّجَمُّلَ مِنْ شِيَمِ الْأَحْرَارِ وَشَمَائِلِ ذَوِي الْهِمَمِ وَالْأَخْطَارِ.

- وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ الْأَبْرَارَ مِنْ عِبَادِهِ فَقَالَ تَعَالَى ذِكْرُهُ: {يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ}.

- أَنْشَدَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ شَبِيبٍ الْعَتَّابِيُّ[١]:

إِنَّ الْكَرِيمَ لَتَخْفى عَنْكَ خَلَّتُهُ حَتَّى تَرَاهُ غَنِيًّا وَهُوَ مَجْهُودُ

- وَفِي مَعْنَاهُ لِعَلِيِّ بْنِ الْجَهْمِ[٢]:

وَلَا عَارَ أَنْ زَالَتْ عَنِ الْحُرِّ نِعْمَةٌ وَلَكِنَّ عَارًا أَنْ يَزُولَ التَّجَمُّلُ[٣]

---

[١] البيت من قصيدة لبشار بن برد مطلعها: (ظِلُّ اليَسارِ عَلى العَبّاسِ مَمدودُ وَقَلبُهُ أَبَداً بِالبُخلِ مَعقودُ).

[٢] علي بن الجهم بن بدر، أبو الحسن، من بني سامة، من لؤي بن غالب. شاعر، رقيق الشعر، أديب، من أهل بغداد. كان معاصراً لأبي تمام، وخُص بالمتوكل العباسي. ثم غضب عليه المتوكل، فنفاه إلى خراسان، فأقام مدة. وانتقل إلى حلب، ثم خرج منها بجماعة يريد الغزو، فاعترضه فرسان من بني كلب، فقاتلهم، وخرج ومات من جراحه.

[٣] البيت من قصيدة مطلعها: (هِيَ النَفسُ ما حَمَّلتَها تَتَحَمَّلُ وَلِلدَّهرِ أَيّامٌ تَجورُ وَتَعدِلُ).

وَفِي الْعُزْلَةِ أَنَّهَا مُعِينَةٌ لِمَنْ أَرَادَ نَظَرًا فِي عِلْمٍ أَوْ إِثَارَةٍ لِدَفِينِ رَأْيٍ وَاسْتِنْبَاطًا لِحِكْمَةٍ؛ لِأَنَّ شَيْئًا مِنْهَا لَا يَجِيءُ إِلَّا مَعَ خَلَاءِ الذَّرْعِ وَفَرَاغِ الْقَلْبِ. وَمُخَالَطَةُ النَّاسِ مَلْهَاةٌ وَمَشْغَلَةٌ.

– عن مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ[١]، رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ لَمَّا أَخَذَ فِي تَصْنِيفِ الْجَامِعِ الْكَبِيرِ[٢] خَلَا فِي سِرْدَابٍ وَأَمَرَ أَهْلَهُ أَنْ يُرَاعُوا وَقْتَ غَدَائِهِ وَوُضُوئِهِ فَيُقَدِّمُوا إِلَيْهِ حَاجَتَهُ مِنْهُمَا، وَأَنْ يُؤْخَذَ مِنْ شَعْرِهِ إِذَا طَالَ، وَأَنْ يُنَظَّفَ ثَوْبُهُ إِذَا اتَّسَخَ، وَأَنْ لَا يُورِدُوا عَلَيْهِ شَيْئًا يَشْتَغِلُ بِهِ خَاطِرُهُ، وَأَقَامَ عَلَى مَالِهِ وَكِيلًا وَفَوَّضَ إِلَيْهِ أَمْرَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى تَصْنِيفِ الْكِتَابِ وَلَمْ يَشْعُرْ إِلَا بِرَجُلٍ يَنْزِلُ إِلَيْهِ حَتَّى وَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ فَأَنْكَرَهُ فَقَالَ لَهُ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا صَاحِبُ الدَّارِ. قَالَ: وَكَيْفَ ذَاكَ؟ قَالَ: لِأَنِّي قَدِ ابْتَعْتُ هَذِهِ الدَّارَ مِنْ فُلَانٍ، يَعْنِي وَكِيلَهُ، وَكَانَ وَكَّلَهُ إِيَّاهُ عَنْ تَفْوِيضٍ، فَاحْتَاجَ إِلَى الِانْتِقَالِ".

---

[١] محمد بن الحسن الشيباني الكوفي (١٣١. ١٨٩هـ) من أهل العراق، فقيه ومحدث ولغوي، صاحب الإمام أبي حنيفة النعمان، وناشر مذهبه، يلقب «صاحب أبي حنيفة، وفقيه العراق». ولد بواسط سنه ١٣١ هـ، ونشأ بالكوفة، وأخذ عن أبي حنيفة بعض الفقه، وتمم الفقه على القاضي أبي يوسف، وأخذ عن سفيان الثوري والأوزاعي، ورحل إلى مالك بن أنس في المدينة. تولى القضاء زمن هارون الرشيد، وانتهت إليه رياسة الفقهِ بالعراق بعد أبي يوسف.

[٢] الجامع الكبير في الفروع للشيباني، كتاب في فروع الفقه نقل فيه أقوال أبي حنيفة في ست كتب تسمى عند الحنفية ظاهر الرواية وهي: الجامع الكبير والجامع الصغير والسير الكبير والسير الصغير والمبسوط والزيادات.

وَلِمَجْنُونِ الْعَامِرِيِّ[١] فِي هَذَا:

وَإِنِّي لَأَسْتَغْشِي وَمَا بِيَ نَعْسَةٌ لَعَلَّ خَيَالًا مِنْكِ يَلْقَى خَيَالِيَا
وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الْجُلُوسِ لَعَلَّنِي أُحَدِّثُ عَنْكِ النَّفْسَ بِالسِّرِّ خَالِيَا[٢]

- عَنْ مَسْرُوقٍ[٣] قَالَ: «الْمَرْءُ حَقِيقٌ أَنْ تَكُونَ لَهُ مَجَالِسُ يَخْلُو فِيهَا فَيَذْكُرَ ذُنُوبَهُ وَيَسْتَغْفِرَ مِنْهَا»[٤].

وَفِي الْعُزْلَةِ السَّلَامَةُ مِنْ صُحْبَةِ الثَّقِيلِ وَمَؤُونَةِ النَّظَرِ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ ذَلِكَ هُوَ الْعَمَى الْأَصْغَرُ.

---

[١] قيس بن الملوح الملقب بمجنون ليلى (٢٤ - ٦٨ هـ): شاعر غزل عربي، من المتيَّمين، من أهل نجد. عاش في فترة خلافة مروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان في القرن الأول من الهجرة في بادية العرب. لم يكن مجنوناً وإنما لقب بذلك لهيامه في حب ليلى العامرية التي نشأ معها وعشقها فرفض أهلها أن يزوجوها به، فهام على وجهه ينشد الأشعار ويأنس بالوحوش ويتغنى بحبه العذري، فيُرى حيناً في الشام وحيناً في نجد وحيناً في الحجاز. وهو أحد القيسين الشاعرين المتيمين والآخر هو قيس بن ذريح مجنون لبنى. توفي سنة ٦٨ هـ ، وقد وجد ملقى بين أحجار وهو ميت، فحُمل إلى أهله.

[٢] البيتان من قصيدة مطلعها: (تَذَكَّرتُ لَيلى وَالسِنينَ الخَواليا وَأَيّامَ لا نَخشى عَلى اللَهوِ ناهِيا).

[٣] أبو عائشة مسروق بن الأجدع الوادعي (المتوفى سنة ٦٢ هـ): تابعي ومفتي كوفي، وأحد رواة الحديث النبوي.

[٤] انظر: مسند الدارمي، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني، والزهد لأحمد بن حنبل.

- قِيلَ لِلْأَعْمَشِ: "مِمَّ عَمَشَتْ عَيْنَاكَ؟ قَالَ: مِنَ النَّظَرِ إِلَى الثُّقَلَاءِ.

- وَقَالَ الْأَعْمَشُ: قَالَ جَالِينُوسُ: "لِكُلِّ شَيْءٍ حُمَّى، وَحُمَّى الرُّوحِ النَّظَرُ إِلَى الثَّقِيلِ".

- عَنِ ابْنِ سِيرِينَ قَالَ: سَمِعْتُ رَجُلًا، يَقُولُ: «نَظَرْتُ إِلَى ثَقِيلٍ مَرَّةً فَغُشِيَ عَلَيَّ».

وَفِي الْعُزْلَةِ الْأَمَانُ - بِبَلَدِ بِسْتَ[١] خَاصَّةً - مِنْ دَوَاهِي الْكُنُفِ الشَّارِعَةِ[٢] وَالْمَتَاعِبِ السَّائِلَةِ[٣] فَإِنَّ جِنَايَتَهَا عِنْدَ أَهْلِهَا جُبَارٌ لَا أَرْشَ لَهَا[٤] وَدِمَاءُ قَتْلَاهَا مَطْلُولَةٌ لَا عَقْلَ وَلَا قَوَدَ فِيهَا[٥]، فَكُلَّمَا قَلَّ بُرُوزُ الْإِنْسَانِ إِلَيْهَا وَعُبُورُهُ عَلَيْهَا كَانَ أَوْفَرَ لِمُرُوءَتِهِ وَأَبْقَى لِنَظَافَتِهِ وَأَبْعَدَ لَهُ مِنْ أَذَاهَا وَغَائِلَتِهَا، وَأَسْلَمَ لَهُ مِنْ دَائِهَا وَعَادِيَتِهَا».

---

[١] بلد المؤلف.

[٢] المراحيض المكشوفة.

[٣] مجاري المياه.

[٤] الجبار الذي لا دية له، وضده الأرش.

[٥] مطلولة لا دية لها وضدها العقل والقَوَد.

بَاب فِي خِفَّةِ الظَّهْرِ وَقِلَّةِ الْعِيَالِ وَالْأَهْلِ

– عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خِيَارُكُمْ فِي الْمِائَتَيْنِ كُلُّ خَفِيفِ الْحَاذِ[١]» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْخَفِيفُ الْحَاذِ؟ قَالَ: "الَّذِي لَا أَهْلَ لَهُ وَلَا وَلَدَ"[٢].

– عَنْ أَبِي أُمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «أَغْبَطُ أَوْلِيَائِي عِنْدِي مَنْزِلَةً رَجُلٌ مُؤْمِنٌ خَفِيفُ الْحَاذِ ذُو حَظٍّ مِنْ صَلَاةٍ وَكَانَ غَامِضًا[٣] فَعُجِّلَتْ لَهُ مَنِيَّتُهُ وَقَلَّ تُرَاثُهُ وَقَلَّتْ بَوَاكِيهِ»[٤].

فَقَدْ غَبَطَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ كَانَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ مِنْ غُمُوضِ الشَّخْصِ وَخُمُولِ الذِّكْرِ فِي النَّاسِ، وَاشْتَرَطَ لَهُ الرِّضَا بِقِلَّةِ الْمَالِ لِأَنَّ الْقَنَاعَةَ تَقْطَعُهُ عَنِ النَّاسِ، وَاشْتَرَطَ لَهُ أَيْضًا خِفَّةَ الْعِيَالِ لِئَلَّا يَشْغَلُهُ الْكَسْبُ لَهُمْ، ثُمَّ تَعْجِيلُ الْوَفَاةِ لِئَلَّا يَطُولُ مَقَامُهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ. وَهَذِهِ الْأَسْبَابُ كُلُّهَا تُشِيرَ إِلَى الْعُزْلَةِ وَتُبَيِّنُ عَنْ فَضِيلَتِهَا.

---

[١] الحاذ: الظهر، ومعنى خفيف الظهر، الذي ليس على ظهره حمل ثقيل.

[٢] ضعفه الألباني في السلسلة.

[٣] غامضاً: خفياً.

[٤] رواه الترمذي بإسناد حسن.

– عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رُحِمَ عَبْدٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ كَانَ غَزْوٌ غَزَا فِيهِ وَإِنْ كَانَتْ سَرِيَّةٌ خَرَجَ فِيهَا وَإِنْ غَابَ لَمْ يُفْتَقَدْ وَإِنْ شَهِدَ لَمْ يُعْرَفْ طُوبَى لَهُ ثُمَّ طُوبَى لَهُ»[١].

– عن عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ قالَ: "زَعَمَتِ الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ خَوْلَةُ بِنْتُ حَكِيمٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ وَهُوَ مُحْتَضِنٌ أَحَدَ ابْنَيْ بِنْتِهِ وَهُوَ يَقُولُ: «وَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَتُبَخِّلُونَ وَتُجَبِّنُونَ وَتُجَهِّلُونَ وَإِنَّكُمْ لَمِنْ رَيْحَانِ اللهِ سُبْحَانَهُ»[٢].

يُرِيدُ أَنَّهُمْ يَحْمِلُونَ الرَّجُلَ عَلَى الْبُخْلِ وَالْجُبْنِ وَيَدْعُونَهُ إِلَى الْجَهْلِ حُبًّا لَهُمْ وَشَفَقَةً عَلَيْهِمْ.

– أَنْشَدَ أَبُو الْعَبَّاسِ ثَعْلَبٌ[٣]:

لَوْلَا أُمَيْمَةُ لَمْ أَجْزَعْ مِنَ الْعَدَمِ وَلَمْ أُجِبْ فِي اللَّيَالِي حِنْدِسَ الظُّلَمِ
وَزَادَنِي حَذَرًا لِلْمَوْتِ مَعْرِفَتِي ذُلَّ الْيَتِيمَةِ يَجْفُوهَا ذَوُو الرَّحِمِ

---

[١] رواه الخطابي وإسناده منقطع.

[٢] أخرجه الترمذي وقال: لا نعرف لعمر بن عبد العزيز سماعاً عن خولة.

[٣] أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار، البغدادي النحوي، الشيباني الشهير بثعلب (٢٠٠ – ٢٩١ هـ): إمام الكوفيين في عهده، وثالث ثلاثة قامت على أعمالهم مدرسة الكوفة النحوية، العلامة المحدث، وإمام النحو، صاحب الفصيح والتصانيف، ولد ببغداد في السنة الثانية من خلافة المأمون وبها مات.

تَهْوَى حَيَاتِي وَأَهْوَى مَوْتَهَا شَفَقًا وَالْمَوْتُ أَكْرَمُ نَزَّالٍ عَلَى الْحُرَمِ[١]

- أَنْشَدَ الْأَصْمَعِيُّ لِأَعْرَابِيٍّ[٢]:

لَقَدْ زَادَ الْحَيَاةَ إِلَيَّ حُبًّا بَنَاتِي إِنَّهُنَّ مِنَ الضِّعَافِ
مَخَافَةَ أَنْ يَذُقْنَ الْفَقْرَ بَعْدِي وَأَنْ يَشْرَبْنَ رَنْقًا بَعْدَ صَافِي
وَأَنْ يَعْرَيْنَ إِنْ كُسِيَ الْجَوَارِي فَتَنْبُو الْعَيْنُ عَنْ كُرُمٍ عِجَافِ

- وَأَنْشَدَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْأَدَبِ لِأَعْرَابِيٍّ:

وَإِنِّي لَأَهْوَى وَهُوَ يَغْتَالُ مُدَّتِي مُرُورَ اللَّيَالِي كَيْ يَشِبَّ حَكِيمُ
مَخَافَةَ أَنْ يَغْتَالَنِي الْمَوْتُ دُونَهُ فَيَغْشَى بُيُوتَ الْحَيِّ وَهُوَ يَتِيمُ

---

[١] الأبيات منسوبة للأبيوردي، محمد بن أحمد بن محمد القرشي الأموي، ومنسوبة أيضاً لإِسْحَاق بن خلف الشَّاعِر الْمَعْرُوف بِابْن الطَّبِيب من شعراء المعتصم.

[٢] الأبيات منسوبة لعيسى بن جرير بن فاتك الحبطي. أحد شعراء الخوارج، كان من أصحاب نافع بن الأزرق وقتل بعد خروج الأزارقة وله شعر كثير.

- عَنْ أَبِي الْبَخْتَرِيِّ[١] قَالَ: كَانَ بَيْنَ عَمَّارِ بْنِ يَاسِرٍ[٢] وَبَيْنَ رَجُلٍ كَلَامٌ فِي الْمَسْجِدِ فَقَالَ عَمَّارٌ: «أَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا أَنْ لَا يُمِيتَكَ حَتَّى يُكْثِرَ مَالَكَ وَوَلَدَكَ وَيُوطِئَ عَقِبَكَ»[٣].

- عَنْ دَاوُدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّه كَانَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ جَارِ السُّوءِ وَمِنْ مَالٍ يَكُونُ عَلَيَّ عَذَابًا وَمِنْ وَلَدٍ يَكُونُ عَلَيَّ وَبَالًا وَمِنْ زَوْجَةٍ تُشِيبُنِي قَبْلَ الْمَشِيبِ وَمِنْ خَلِيلٍ مَاكِرٍ عَيْنُهُ تَرْعَانِي وَقَلْبُهُ يَشْنَأُنِي، إِنْ رَأَى خَيْرًا أَخْفَاهُ وَإِنْ رَأَى شَرًّا أَفْشَاهُ»[٤].

- كَانَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ وَكَانَتْ لَهُ تِجَارَةٌ وَكَانَ لَهُ عَقْلٌ، فَأَرَادَ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا فَتَرَكَ التِّجَارَةَ، وَأَقْبَلَ عَلَى الْعِبَادَةِ فَكَانَ يَسْمَعُ النَّاسَ يَقُولُونَ: مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ. فقَالَ: وَاللَّهِ لَأَذْهَبَنَّ إِلَى مَالِكٍ هَذَا الَّذِي شَغَفَ النَّاسَ بِهِ فَلَأَنْظُرَنَّ مَا عَمَلُهُ، قَالَ: فَأَتَيْتُهُ فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ وَحَوْلَهُ قَوْمٌ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ فَجَلَسْتُ فِي جَانِبِ

---

[١] أبو البختري الطائي: الكوفي الفقيه أحد العباد، اسمه سعيد بن فيروز، وثقه يحيى بن معين. وكان مقدم الصالحين القراء الذين قاموا على الحجاج في فتنة ابن الأشعث، فقتل أبو البختري في وقعة الجماجم سنة اثنين وثمانين.

[٢] كان عمار مستجاب الدعوة.

[٣] انظر: الزهد لهناد بن السري، والزهد لأبي داود، وتاريخ دمشق ربن عساكر.

[٤] في الدعاء عند الطبراني: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... الحديث.

الْمَسْجِدِ حَتَّى تَفَرَّقُوا وَجَاءَ قَوْمٌ آخَرُونَ فَسَمِعُوا الْحَدِيثَ، وَسَمِعُوا الزُّهْدَ، وَالْكَلَامَ، فَلَمَّا تَفَرَّقُوا قَامَ فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ أَوْ أَرْبَعًا ثُمَّ خَرَجَ وَتَبِعْتُهُ فَقَالَ لِي: أَلَكَ حَاجَةٌ؟ قُلْتُ: نَعَمْ أَرَدْتُ أَنْ أَجِيءَ مَعَكَ إِلَى بَيْتِكَ. قَالَ: سِرْ. فَذَهَبْتُ مَعَهُ فَأَدْخَلَنِي إِلَى حُجْرَةٍ نَظِيفَةٍ وَظِلٍّ بَارِدٍ رَطْبٍ وَبَيْتٍ نَظِيفٍ وَفِيهِ بَدْرَى وَدَوْرَقٌ وَمِطْهَرَةٌ وَحلَّةٌ[1] فِيهَا كِسَرٌ، فَقُلْتُ: يَا مَالِكُ أَلَكَ امْرَأَةٌ؟ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ. قُلْتُ: يَا مَالِكُ أَلَكَ وَلَدٌ؟ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ. قُلْتُ: يَا مَالِكُ أَلَكَ تِجَارَةٌ؟ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ. قُلْتُ: يَا مَالِكُ أَعَلَيْكَ دَيْنٌ؟ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ. قُلْتُ: يَا مَالِكُ يَزْعُمُ النَّاسُ أَنَّكَ أَزْهَدُ النَّاسِ وَأَنْتَ خُرَيْمٌ النَاعِمُ[2]، فَشَهِقَ شَهْقَةً[3].

---

[1] في المطبوعة: جلة.

[2] في المطبوعة: وأنت خديمٌ ناعمٌ، والتصويب من تاريخ دمشق لابن عساكر. و خُرَيْم الناعِم: خُريم بن خليفة بن الحارث بن خارجة الغطفانيّ المري: يضرب به المثل في التنعم، فيقال (أنعمُ من خُريم) كان معاصراً للحجاج الثقفي، وله معه خبر.

[3] انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر، ترجمة مالك بن دينار.

صَدَقَ الْقَائِلُ فِيمَا وَصَفَهُ مِنْ أَمْرِ مَالِكٍ، إِلَّا مَا قَصَّرَ فِيهِ مِنَ التَّشْبِيهِ[١]، وأَنَّى لِخُرِيمٍ ذَلِكَ[٢]؟ وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُ النَّاعِمُ[٣] لِلُبْسِهِ الْجَدِيدَ فِي الشِّتَاءِ وَالْخَلِقَ فِي الصَّيْفِ[٤]، وَمَا عَسَى أَنْ يَبْلُغَ ذَلِكَ أَوْ نَحْوَهُ مِنَ التَّنَعُّمِ، وَلَعَلَّهُ مِنْ وَرَاءِ ذَلِكَ قَدْ يَكُونُ عَلَيْهِ عِيَالٌ تَؤودُهُ وَمُؤْونَةٌ تَفْدَحُهُ وَتُثْقِلُهُ وَأُمُورٌ مِنْ أَسْبَابِ الْمَعِيشَةِ تَهُمُّهُ وَتُكَدِّرُهُ، لَكِنَّ النَّاعِمَ حَقًّا مَالِكٌ، وَمَا سَعِدَ بِهِ مِنْ خِفَّةِ الظَّهْرِ وَقِلَّةِ مَنْ يَشْغَلُهُ وَيَفْتِنُهُ مِنَ الْعِيَالِ وَالْأَهْلِ، هَذَا إِلَى مَا نَالَهُ مِنْ فَضْلِ الْعِلْمِ وَحَازَهُ مِنْ كَرَمِ التَّقْوَى.

وَقَدْ قِيلَ: فِي كَثْرَةِ الْعِيَالِ فَضِيحَةُ الرِّجَالِ.

وَيُقَالُ: مَا أَيْسَرَ ذُو عِيَالٍ وَإِنْ كَانَ بِحُسْنِ حَالٍ.

وَقِيلَ لِسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ فِي قَبُولِ عَطَاءِ السُّلْطَانِ فقَالَ: صَاحِبُ الْعِيَالِ لَا يُفْلِحُ.

---

[١] يعني تشبيهه مالكاً بخُريم الناعم.

[٢] في المطبوعة: وَإِنِّي لَخَرِيمُ ذَلِكَ، وهي خطأ من النساخ، وقد صوبتها: وأنَّى لخُرِيمٍ ذَلِكَ؟ ومعناها أن خريم لا يصل إلى تنعُّم مالك، وتعليل ذلك ذكره الخطابي في قوله: لَكِنَّ النَّاعِمَ حَقًّا مَالِكٌ، وَمَا سَعِدَ بِهِ مِنْ خِفَّةِ الظَّهْرِ وَقِلَّةِ مَنْ يَشْغَلُهُ وَيَفْتِنُهُ مِنَ الْعِيَالِ وَالْأَهْلِ، هَذَا إِلَى مَا نَالَهُ مِنْ فَضْلِ الْعِلْمِ وَحَازَهُ مِنْ كَرَمِ التَّقْوَى.

[٣] المقصود خُريم.

[٤] جاء في ترجمة خريم: وكان لا يلبس جديداً في صيف، ولا خَلَقاً في شتاء.

وَحُكِيَ لَنَا عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ[١]، أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ:

مَا الْعَيْشُ إِلَّا الْقَفْلُ وَالْمِفْتَاحُ وَغُرْفَةٌ تَصْفِقُهَا الرِّيَاحُ

لَا صَخَبٌ فِيهَا وَلَا صِيَاحُ

بَاب تَرْكِ الِاسْتِكْثَارِ مِنَ الْأَصْدِقَاءِ

- عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: "أَخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَنْكِبِي فَقَالَ: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ كَعَابِرِ سَبِيلٍ»[٢].

---

[١] سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري (٩٧ - ١٦١ هـ): فقيه كوفي، وأحد أعلام الزهد عند المسلمين، وإمام من أئمة الحديث النبوي، وواحد من تابعي التابعين، وإمام أهل العراق، وصاحب واحد من المذاهب الإسلامية المندثرة، ظل مذهبه متداولاً حتى القرن الثامن الهجري، قال عنه الذهبي: «هو شيخ الإسلام، إمام الحفاظ، سيد العلماء العاملين في زمانه أبو عبد الله الثوري الكوفي المجتهد مصنف كتاب الجامع»، كما قال عنه بشر الحافي: «سفيان في زمانه كأبي بكر وعمر في زمانهما».

[٢] تفرد به البخاري.

– عَنْ سَالِمٍ[١]، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «النَّاسُ كَإِبِلٍ مِائَةٍ لَيْسَ فِيهَا رَاحِلَةٌ»[٢].

الرَّاحِلَةُ الْبَعِيرُ الذَّلُولُ الَّذِي يُرَحَّلُ وَيُرْكَبُ، فَاعِلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، كَقَوْلِهِمْ سِرٌّ كَاتِمٌ أَيْ مَكْتُومٌ، وَمَاءٌ دَافِقٌ بِمَعْنَى مَدْفُوقٍ، يُرِيدُ وَاللَّهُ أَعْلَمُ: لِيُعْلَمْ أَنَّ الْوَاحِدَ مِنَ الْمِائَةِ مِنَ النَّاسِ لَا يَصْلُحُ أَنْ يُصْحَبَ كَمَا أَنَّ الْوَاحِدَ مِنْ هَذِهِ الْمِائَةِ مِنَ الْإِبِلِ لَا يَصْلُحُ أَنْ يُرْكَبَ، يُشِيرُ بِهِ إِلَى الْإِقْلَالِ مِنْ صُحْبَةِ النَّاسِ وَالتَّحْذِيرِ مِنْهُمْ.

– عَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا كَثُرَ الْأَخِلَّاءُ كَثُرَ الْغُرَمَاءُ»[٣].

---

[١] سالم بن عبد الله بن عمر الخطاب: تابعي مدني، وأحد رواة الحديث، ومفتي المدينة المنورة في زمانه، وجدّهُ الفاروق عمر بن الخطّاب. اعتبر أحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه أن أصح أسانيد أحاديث عبد الله بن عمر، هو ما رواه الزُهري عن سالم بن عبد الله عن أبيه.

[٢] متفق عليه. ومعناه: أن الناس كالإبلِ المائةِ التي لا تَكادُ تَجِدُ فيها راحلةً، وهي الجَمَلُ النجيبُ الذي يَصلُحُ لسَيرِ الأسفارِ ولحَملِ الأثقالِ، فأكثَرُ النَّاسِ أهلُ نقْصٍ، وأمَّا أهلُ الفضلِ فعَدَدُهم قَليلٌ جِدًّا؛ فهم بمَنزلةِ الرَّاحلةِ في الإبلِ الحَمُولةِ.

[٣] رواه البخاري في الأدب المفرد. وتمامه: قُلْتُ لِمُوسَى: وَمَا الْغُرَمَاءُ؟ قَالَ: أصحاب الْحُقُوق.

- عَنِ النَّاشِيِّ[١] قَالَ: «الِاسْتِكْثَارُ مِنَ الْإِخْوَانِ وَسِيلَةُ الْهِجْرَانِ».

يُرِيدُ أَنَّهُمْ إِذَا كَثُرُوا كَثُرَتْ حُقُوقُهُمْ فَلَمْ يَسَعْهُمْ بِرُّكَ، فَإِذَا تَأَخَّرَتْ عَنْهُمْ حُقُوقُهُمُ اسْتَبْطَأُوكَ فَهَجَرُوكَ وَعَادوكَ.

وَمَا أَحْسَنَ مَا عَبَّرَ بِهِ ابْنُ الرُّومِيِّ[٢] عَنْ هَذَا حَيْثُ يَقُولُ:

عَدُوُّكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٌ فَلَا تَسْتَكْثِرَنَّ مِنَ الصِّحَابِ

فَإِنَّ الدَّاءَ أَوَّلَ مَا تَرَاهُ يَكُونُ مِنَ الطَّعَامِ أَوِ الشَّرَابِ

فَأَمَّا قَوْلُ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ: "كَثْرَةُ أَصْدِقَاءِ الْمَرْءِ مِنْ سَخَافَةِ دِينِهِ" يُرِيدُ أَنَّهُ مَا لَمْ يُدَاهِنْهُمْ وَلَمْ يُحَابِهِمْ لَمْ يَكْثُرُوا؛ لِأَنَّ الْكَثْرَةَ إِنَّمَا هِيَ فِي أَهْلِ الرِّيبَةِ، وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ صُلْبَ الدِّينِ لَمْ يَصْحَبْ إِلَّا الْأَبْرَارَ الْأَتْقِيَاءَ، وَفِيهِمْ أَنْشَدَنِي بَعْضُ الْعُلَمَاءِ لِبَعْضِ الشُّعَرَاءِ:

---

[١] لعلَّه الناشي الكبير، العلامة أبو العباس، عبد الله بن محمد بن شرشير الأنباري، الملقب بالناشي: من كبار المتكلمين وأعيان الشعراء ورءوس المنطق. كان قوي العربية والعروض، سكن مصر، وبها مات في سنة ثلاث وتسعين ومائتين.

[٢] علي بن العباس بن جريج، أو جورجيس، الرومي، أبو الحسن: شاعر كبير، من طبقة بشار والمتنبي. روميّ الأصل، كان جده من موالي بني العباس. ولد ونشأ ببغداد، ومات فيها مسموماً، دس له السمَّ القاسم بن عبيد الله (وزير المعتضد) وكان ابن الرومي قد هجاه. قال المرزباني: لا أعلم أنه مدح أحداً من رئيس أو مرؤوس، إلا وعاد إليه فهجاه، ولذلك قلّت فائدته من قول الشعر وتحاماه الرؤساء وكان سبباً لوفاته.

لِكُلِّ امْرِئٍ شَكْلٌ مِنَ النَّاسِ مِثْلُهُ فَأَكْثَرُهُمْ شَكْلًا أَقَلُّهُمُ عَقْلَا
وَكُلُّ أُنَاسٍ آلِفُونَ لِشَكْلِهِمْ فَأَكْثَرُهُمْ عَقْلًا أَقَلُّهُمُ شَكْلَا

- قَالَ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ[١]: "كُنْتُ مَعَ سُفْيَانَ[٢] فِي الْمَسْجِدِ فَنَظَرَ إِلَى الْخَلْقِ فَقَالَ: «تَرَى هَذَا الْخَلْقَ مَا تَسُرُّنِي مُؤَاخَاتُهُمْ بِقِيرَاطٍ[٣] فُلُوسٍ»[٤].

- قَالَ ابْنُ عَوْنٍ[٥]: «أَسِئْ ظَنَّكَ بِالنَّاسِ تَقَعْ قَرِيبًا، وَأَقِلَّ مَعْرِفَةَ النَّاسِ تَسْلَمْ».

---

[١] يوسف بن أسباط بن واصل الشيباني (ت ١٩٥ هـ): محدث، اشتهر بالزهد. كان مقامه الصوفي هو العلم والخوف، والتصوف عنده هو "التَّخلي والتحلّي"، حيث تخلى عن الدنيا وتحلى بالزهد.

[٢] الثوري.

[٣] القيراط هو نصف الدانق، أي جزء من اثني عشر جزءاً من الدرهم.

[٤] انظر الحلية ترجمة سفيان الثوري.

[٥] أبو عون عبد الله بن عون بن أرطبان المزني: بصري، ثقة، رجل صالح، وقال ابن المبارك: ما وصف لي أحد إلا وجدته دون صفته، إلا ابن عون، وحيوة بن شريح. وقال العجلي: أهل البصرة يفخرون بأربعة: أيوب السختياني، وعبد الله بن عون، وسليمان التيمي، ويونس بن عبيد، فأما ابن عون فكان إذا غضب على أهله، قال: بارك الله فيك، فقال لابن له يومًا: بارك الله فيك! فقال: أنا بارك الله فيَّ؟! قال: نعم، فقال بعض من حضر: ما قال لك إلا خيرًا. قال: ما قال لي هذا حتى أجهد. مات سنة إحدى وخمسين ومائة وعاش خمساً وثمانين سنة.

– عن يُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ[١]، وقد أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَقِيلَ لَهُ: إِنَّ ابْنَ عَوْنٍ لَمْ يَأْتِكَ فَقَالَ: «إِنَّا إِذَا وَثِقْنَا بِمَوَدَّةِ أَخِينَا لَمْ يَضُرَّنَا أَلَا يَأْتِينَا»[٢].

– قَالَ شَبِيبُ بْنُ شَيْبَةَ[٣]: «إِنَّ مِنْ إِخْوَانِي مَنْ لَا يَأْتِينِي فِي السَّنَةِ إِلَّا الْيَوْمَ الْوَاحِدَ، هُمُ الَّذِينَ أَتَّخِذُهُمْ وَأَعُدُّهُمْ لِلْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْتِينِي كُلَّ يَوْمٍ فَيُقَبِّلُنِي وَأُقَبِّلُهُ وَلَوْ قَدَرْتُ أَنْ أَجْعَلَ مَكَانَ قُبْلَتِي إِيَّاهُ عَضَّةً لَعَضَضْتُهُ»[٤].

---

[١] يونس بن عبيد بن دينار العبدي: من حُفَّاظ الحديث الثِّقات، من صغار التابعين وفضلائهم، رأى أنس بن مالك وحدث عن الحسن وابن سيرين وعطاء. ولد يونس في نهاية القرن الأول الهجري، وتُوفي يونس سنة ١٤٠ هـ.

[٢] انظر: شعب الإيمان للبيهقي، فصل ترك الغضب وكظم الغيظ.

[٣] شبيب بن شيبة بن عبد الله المنقري البصري الخطيب: قدم دمشق مع المنصور، وكان من فصحاء أهل البصرة، وخطبائهم، وولّاه المهدي الري.

[٤] انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر، ترجمة شبيب بن شيبة.

- كَانَ بَيْنَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مَهْدِيٍّ[١] وَيَحْيَى بْنِ سَعِيدٍ الْقَطَّانِ[٢] مَوَدَّةٌ وَإِخَاءٌ؛ فَكَانَتِ السَّنَةُ تَمُرُّ عَلَيْهِمَا لَا يَلْتَقِيَانِ، فَقِيلَ لِأَحَدِهِمَا فِي ذَلِكَ؟ فَقَالَ: "إِذَا تَقَارَبَتِ الْقُلُوبُ لَمْ يَضُرَّ تَبَاعُدُ الْأَجْسَامِ. أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا"[٣].

وَلَقَدْ أَبْلَغَ الْقَائِلُ فِي هَذَا حِينَ يَقُولُ:

رَأَيْتُ تَهَاجُرَ الْإِلْفَيْنِ بِرًّا إِذَا اصْطَلَحَتْ عَلَى الْوُدِّ الْقُلُوبُ

وَلَيْسَ يُوَاظِبُ الْإِلْمَامَ إِلَّا ظَنِينٌ فِي مَوَدَّتِهِ مُرِيبُ

- كَتَبَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمَوْصِلِ إِلَى بِشْرِ بْنِ الْحَارِثِ[٤] يَسْتَأْذِنُهُ أَنْ يَلْقَاهُ فَقَالَ بِشْرٌ: «أَحَبُّ إِخْوَانِي إِلَيَّ مَنْ لَا يَرَانِي وَلَا أَرَاهُ»[٥].

---

[١] عبد الرحمن بن مهدي بن حسان بن عبد الرحمن العنبري البصري ، ولد سنة: ١٣٥هـ وكان رأساً في العبادة وإماما حجة قدوة في العلم والعمل.

[٢] يحي بن سعيد القطان التميمي البصري الحافظ: ولد سنة عشرين ومئة ١٢٠هـ ومات سنة ثمان وتسعين ومئة ١٩٨هـ ومنه تعلم أحمد ويحي وعلى وسائر أئمتنا، وكان إذا قيل له في علته: عافاك الله، قال: أحبه إلي أحبه إلى الله.

[٣] انظر: الآداب الشرعية لابن مفلح، فصل التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل.

[٤] بشر بن الحارث المعروف بالحافي، أصله من مرو وسكن بغداد، ومات بها، وهو خال علي بن خشرم. مات سنة سبع وعشرين ومائتين. وكان كبير الشأن. أحد أعلام المسلمين في القرن الثالث الهجري. ولد سنة ١٧٩ هـ في بغداد وعاش فيها، وصحب الفضيل بن عياض.

[٥] انظر: الآداب الشرعية لابن مفلح، فصل التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل.

- قَالَ ابْنَ حَرْبٍ: "زَارَ الزِّيَادِيُّ[١] الْعَتَّابِيَّ[٢] فَأَرَادَ الْعَتَّابِيُّ أَنْ يَتَزَحْزَحَ لَهُ عَنِ الْبِسَاطِ فَقَالَ الزِّيَادِيُّ: «مَكَانَكَ فَإِنَّ الْبِسَاطَ لَا يَضِيقُ عَلَى مُتَحَابَّيْنِ وَالدُّنْيَا لَا تَتَّسِعُ لِلْمُتَبَاغِضَيْنِ».

- قَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ[٣]: «إِذَا قَدُمَ الْإِخَاءُ قَبُحَ الثَّنَاءُ»[٤].

---

[١] أبو إسحاق إبراهيم بن سفيان بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن زياد بن أبيه (ت ٢٤٩هـ): لغويٌ ونحويٌ وشاعر من البصرة، عاش في القرن الثالث الهجري.

[٢] أبو عمرو كلثوم بن عمرو بن أيوب العتابي التغلبي (١٣٥ - ٢٢٠ هـ): كاتب وشاعر عربي من العصر العباسي.

[٣] عبد الله بن المبارك المروزي (١١٨ -١٨١ هـ): عالم وإمام مجاهد مجتهد في شتى العلوم الدينية والدنيوية.

[٤] انظر: معجم ابن المقرئ، ترجمة من اسمه أحمد.

- اجْتَمَعَ أَبُو الْعَبَّاسِ بْنُ سُرَيْجٍ[١] وَأَبُو الْعَبَّاسِ الْمُبَرِّدُ[٢] وَأَبُو بَكْرِ بْنُ دَاوُدَ[٣] فِي طَرِيقٍ؛ فَأَفْضَى بِهِمْ إِلَى مَضِيقٍ، فَتَقَدَّمَ ابْنُ سُرَيْجٍ وَتَلَاهُ أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدٌ الْمُبَرِّدُ وَتَأَخَّرَ ابْنُ دَاوُدَ، فَلَمَّا خَرَجُوا إِلَى الْفَضَاءِ الْتَفَتَ ابْنُ سُرَيْجٍ فَقَالَ: "الفِقْهُ قَدَّمَنِي، فَقَالَ ابْنُ دَاوُدَ: الْأَدَبُ[٤] أَخَّرَنِي، فَقَالَ لَهُمَا الْمُبَرِّدُ أَبُو الْعَبَّاسِ مُحَمَّدٌ: أَخْطَأْتُمَا جَمِيعًا؛ إِذَا صَحَّتِ الْمَوَدَّةُ سَقَطَ التَّكَلُّفُ وَالتَّعَمُّلُ"[٥].

- وَأَعْلَى مَا يُذْكَرُ فِي هَذَا الْبَابِ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ: «إِنَّ الرَّحِمَ تُقْطَعُ وَإِنَّ النِّعَمَ تُكْفَرُ، وَلَمْ يُرَ مِثْلُ تَقَارُبِ الْقُلُوبِ»[٦].

---

[١] أبو العباس أحمد بن عمر بن سُريج البغدادي، القاضي الشافعي، إمام الشافعية في عصره، ولد سنة ٢٤٩ هـ في بغداد، وتوفي فيها ٣٠٦ هـ، ولحق أصحاب سفيان بن عيينة، ووكيع، درس الفقه علي يد أبي القاسم الأنماطي الشافعي، صاحب المزني.

[٢] أبو بكر محمد بن داود بن علي الفقيه الظاهري (٢٥٥ - ٢٩٧ هـ): ابن الإمام داود بن علي الظاهري، كان عالمًا بارعًا، إماما في الحديث، أديباً، شاعراً فقيهاً، ماهراً له كتاب الزَّهرة اشتغل على أبيه وتبعه في مذهبه ومسلكه وما اختاره من الطرائق وارتضاه وكان أبوه يحبه ويقربه ويدنيه.

[٣] أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر المعروف بالمبَرِّد الأزدي (٢١٠ - ٢٨٥ هـ): أحد العلماء الجهابذة في علوم البلاغة والنحو والنقد، عاش في العصر العباسي في القرن الثالث الهجري.

[٤] يعني حرفة الأدب والأدباء.

[٥] انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر، ترجمة محمد بن يزيد بن عبد الأكبر.

[٦] انظر: جزء سعدان، وإتحاف المهرة بالفوائد المبتكرة من أطراف العشرة لابن حجر العسقلاني.

– قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْفُضَيْلِ[١]: "اتَّفَقَ أَبِي وَابْنُ الْمُبَارَكِ عَلَى بَابِ بَنِي شَيْبَةَ، فَقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ: يَا أَبَا عَلِيٍّ ادْخُلْ بِنَا الْمَسْجِدَ حَتَّى نَتَذَاكَرَ، فَقَالَ الْفُضَيْلُ لِابْنِ الْمُبَارَكِ: إِذَا دَخَلْنَا الْمَسْجِدَ أَلَيْسَ تُرِيدُ أَنْ تُحَدِّثَنِي بِغَرِيبِ مَا عِنْدَكَ وَأُحَدِّثُكَ بِغَرِيبِ مَا عِنْدِي مِنَ الْعِلْمِ؟ فَقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ: بَلَى، فَانْصَرَفَا وَلَمْ يَدْخُلَا الْمَسْجِدَ".

وَإِنَّمَا كَرِهَ مِنْ هَذَا التَّصَنُّعَ وَخَافَ الرِّيَاءَ.

وَنَحْوُ هَذَا قَوْلُ الْفُضَيْلِ: لَأَنْ يَلْقَى الْقَارِئُ الشَّيْطَانَ خَيْرٌ لِلْقَارِئِ مِنْ أَنْ يَرَى قَارِئًا مِثْلَهُ.

---

[١] علي بن الفضيل بن عياض: مِنْ كِبَارِ الأَوْلِيَاءِ، وَمَاتَ قَبْلَ وَالِدِهِ الفضيل بن عياض أحد أعلام أهل السنة في القرن الثاني الهجري، والملقب بـ «عابد الحرمين».

كِتَاب تَرْك مَا لَا يَعْنِي وَرَفْض الِاشْتِغَالِ بِمَا لَا يُجْدِي

– عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ[١] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ»[٢].

– قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مَنِ اشْتَغَلَ بِمَا لَا يَعْنِيهِ فَاتَهُ مَا يَعْنِيهِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَغْنِ بِمَا يَكْفِيهِ فَلَيْسَ فِي الدُّنْيَا شَيْءٌ يُغْنِيهِ.

– أَوْصَى ابْنُ عَبَّاسٍ رَجُلًا فَقَالَ: «لَا تَتَكَلَّمْ بِمَا لَا يَعْنِيكَ فَإِنَّ ذَلِكَ فَضْلٌ؛ فَلَسْتُ آمَنُ عَلَيْكَ الْوِزْرَ، وَدَعِ الْكَلَامَ فِي كَثِيرٍ مِمَّا يَعْنِيكَ حَتَّى تَجِدَ لَهُ مَوْضِعًا؛ فَرُبَّ مُتَكَلِّمٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ قَدْ عَنَتَ، وَلَا تُمَارِ حَلِيمًا وَلَا سَفِيهًا فَإِنَّ الْحَلِيمَ يَقْلِيكَ وَالسَّفِيهَ يُؤْذِيكَ، وَاذْكُرْ أَخَاكَ إِذَا تَوَارَى عَنْكَ بِمَا تُحِبُّ أَنْ يَذْكُرَكَ بِهِ

---

[١] عَلِي زين العابدين بْنُ الْحُسَيْنُ بْنُ عَلِي بْنُ أَبِي طَالِبٍ الْهَاشِمِيّ الْقُرَشِيّ، (٣٨ – ٩٥ هـ): رابع أئمة الشيعة بكل طوائفهم. شهدت الفترة التي عاشها علي بن الحسين كثيرًا من الأحداث التي وقعت في التاريخ الإسلامي، ومنها معركة كربلاء حيث كان حاضراً فيها والتي قتل خلالها أبوه الحسين بن علي ورجال أهل بيته، ولكن بسبب مرضه لم يتمكن من المشاركة في القتال، وكذلك واقعة الحرة وثورة التوابين وثورة المختار الثقفي.

[٢] أخرجه أخرجه الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة، وصححه الألباني.

إِذَا تَوَارَيْتَ عَنْهُ، وَدَعْهُ مِمَّا تُحِبُّ أَنْ يَدَعَكَ مِنْهُ فَإِنَّ ذَلِكَ الْعَدْلُ، وَاعْمَلْ عَمَلَ امْرِئٍ يَعْلَمُ أَنَّهُ مَجْزِيٌّ بِالْإِحْسَانِ مَأْخُوذٌ بِالْإِجْرَامِ»[١].

– قَالَ مُؤَرِّقٌ الْعِجْلِيُّ[٢]: "أَمْرٌ أَنَا أَطْلُبُهُ، مُنْذُ عِشْرِينَ سَنَةً لَمْ أَنَلْهُ وَلَسْتُ بِتَارِكِهِ فِيمَا أَسْتَقْبِلُ. قِيلَ: وَمَا هُوَ يَا أَبَا الْمُعْتَمِرِ؟ قَالَ: الصَّمْتُ عَمَّا لَا يَعْنِينِي"[٣]

– كَتَبَ أَخٌ لِيُونُسَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ[٤]: أَمَّا بَعْدُ يَا أَخِي فَاكْتُبْ إِلَيَّ كَيْفَ أَنْتَ. فَكَتَبَ إِلَيْهِ يُونُسُ: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّكَ كَتَبْتَ إِلَيَّ تَسْأَلُنِي كَيْفَ أَنَا وَكَيْفَ حَالِي فَأُخْبِرُكَ أَنَّ نَفْسِي قَدْ ذَلَّتْ لِي بِصِيَامِ الْيَوْمِ الْبَعِيدِ الطَّرَفَيْنِ[٥] الشَّدِيدِ الْحَرِّ، وَلَمْ تَذِلَّ لِي بِتَرْكِ الْكَلَامِ فِيمَا لَا يَعْنِينِي»[٦].

---

[١] انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر، والصمت لابن أبي الدنيا، والزهد لأبي داود، والتوبيخ والتنبيه لأبي الشيخ الأصبهاني.

[٢] مورق العجلي أبو المعتمر البصري: تابعي ، وأحد رواة الحديث النبوي. روى له الجماعة.

[٣] انظر: الصمت لابن أبي الدنيا، والزهد لأحمد بن حنبل.

[٤] يونس بن عبيد الله العميري الليثي البصري: كان صدوقاً.

[٥] يعني الطويل.

[٦] انظر: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نعيم الأصبهاني، وتاريخ دمشق لابن عساكر.

- جَاءَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ إِلَى عُبَيْدِ بْنِ عُمَيْرٍ[١] فَقَالَ: إِنِّي رَسُولُ إِخْوَانِكَ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ إِلَيْكَ فَإِنَّهُمْ يُقْرِءُونَكَ السَّلَامَ وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ أَمْرِ، هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ: عَلِيٍّ وَعُثْمَانَ وَمَا قَوْلُكَ فِيهِمَا؟ فَقَالَ: هَلْ غَيْرُ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: جَهِّزُوا الرَّجُلَ. فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ جِهَازِهِ قَالَ: "اقْرَأْ عَلَيْهِمُ السَّلَامَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ قَوْلِي فِيهِمْ {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ}"[٢].

- قِيلَ لِعُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ: مَا تَقُولُ فِي أَهْلِ صِفِّينَ؟ فَقَالَ: «تِلْكَ دِمَاءٌ طَهَّرَ اللَّهُ يَدَيَّ مِنْهَا فَلَا أُحِبُّ أَنْ أَخْضِبَ لِسَانِي بِهَا»[٣].

---

[١] في المطبوعة: عبيد الله بن عمر، والصواب عبيد بن عمير كما في معجم شيوخ ابن الأعرابي، وهو عبيد بن عمير الليثي (٥ - ٧٣ هـ): ذكر البخاري أنه رأى النبي ﷺ، وعداده في كبار تابعي مكي. أحد رواة الحديث النبوي، وهو أول من قصّ القصص لوعظ الناس في الإسلام في خلافة عمر بن الخطاب. وكان عبد الله بن عمر من بين من يحضرون مجلسه. كان عبيد بن عمير من أكثر الناس بلاغة، وكان ينخرط في الوعظ، ويبكي حتى يبلل الحصى بدموعه. توفي عبيد بن عمير سنة ٧٣ هـ، قبل ابن عمر بأيام يسيرة.

[٢] انظر: معجم شيوخ ابن الأعرابي، حرف الجيم.

[٣] انظر: مناقب الشافعي للبيهقي، باب: ما يؤثر عنه في قتال أمير المؤمنين: علي بن أبي طالب أهل القبلة.

- قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: سَمِعْتُ أَبَا عَمْرِو بْنَ الْعَلَاءِ يَقُولُ: «خُذِ الْخَيْرَ مَعَ أَهْلِهِ وَدَعِ الشَّرَّ لِأَهْلِهِ»[١].

وَقِيلَ لِبَعْضِهِمْ: "كَيْفَ حَالُكَ؟ قَالَ: «كَيْفَ حَالُ مَنْ لَا يَدْرِي كَيْفَ حَالُهُ؟»[٢].

- قَالَ أَعْرَابِيٌّ: «لَا تَكُنْ ضَحَّاكًا مِنْ غَيْرِ عَجَبٍ، وَلَا مَشَّاءً إِلَى غَيْرِ أَرَبٍ»[٣].

- قَالَ الشَّرْقِيُّ بْنُ الْقَطَّامِيِّ[٤]: " دَخَلْتُ عَلَى الْمَنْصُورِ فَقَالَ لِي يَا شَرْقِيُّ عَلَامَ يُؤْتَى الْمَرْءُ؟ فَقُلْتُ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْخَلِيفَةَ، عَلَى مَعْرُوفٍ سَلَفَ أَوْ مِثْلِهِ أَوْ قَدِيمِ شَرَفٍ أَوْ عِلْمٍ مُطَّرِفٍ"[٥].

فَمَا عَدَا هَذَا فَوُلُوعٌ وَكَلَفٌ أَوْ جَهْلٌ وَسَرَفٌ.

---

[١] انظر: معجم شيوخ ابن الأعرابي، حرف الدال.

[٢] في كتاب نثر الدر في المحاضرات للآبي نسب هذا القول لمحمد بن واسع.

[٣] في كتاب المصنف لابن أبي شيبة (٣٥٧١٩): عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ مُوسَى قَالَ: لَا تُعَلِّمْ لِلرِّيَاءِ، وَلَا تَفْقَهْ لِلرِّيَاءِ، وَلَا تَكُونَنَّ ضَحَّاكًا مِنْ غَيْرِ عَجَبٍ وَلَا مَشَّاءً فِي غَيْرِ أَرَبٍ.

[٤] الشرقي بن القطامي الكوفي: كان عالما بالنسب، وافر الأدب، فأقدمه أبو جعفر المنصور بغداد، وضم إليه المهدي ليأخذ من أدبه. والشرقي لقب غلب عليه، واسمه الوليد بن حصين.

[٥] انظر: تاريخ بغداد للخطيب ٩/٢٧٨.

- دَخَلَ مُحَمَّدُ بْنُ خشكٍ عَلَى بَعْضِ الْعُمَّالِ زَائِرًا لَهُ فَلَمْ يَهشَّ لَهُ فِي اللِّقَاءِ وَلَمْ يَرْفَعْ مِنْهُ، فَنَهَضَ وَهُوَ يَتَمَثَّلُ بِقَوْلِ فلانٍ حِينَ يَقُولُ:

إِنَّ دُخُولِي عَلَى أَبِي قَتَبِ مِنْ غَيْرِ مَا حَاجَةٍ وَلَا أَرَبِ

مِنْ حَمَاقَتِي فَإِنَّنِي رَجُلٌ مُضْطَرِبُ الْعَقْلِ سَيِّئُ الْأَدَبِ

- قَرَأْتُ لِعَلِيِّ بْنِ عُبَيْدَةَ[1] فِي فَصْلٍ لَهُ: أَمَّا بَعْدُ: وَلَا تُوجِبْ عَلَيْكَ رِقًّا لِمَنْ لَا يَعْرِفُ قَدْرَ مَا تَمَلَّكَهُ مِنْكَ؛ فَإِنَّهُ مَنْ لَمْ يَتَصَفَّحْ مَوَالِي قَلْبِهِ وَيَخْتَرْهُمْ بِقَدْرِهِ أَذَلَّتْهُ الْعُبُودِيَّةُ. وَلَا تَتَشَاغَلْ إِلَّا بِمَنْ يَتَفَرَّغُ لَكَ، فَإِنْ لَمْ تَثِقْ مِمَّنْ وَافَيْتَ بِالْوَفَاءِ فَاسْتَظْهِرْ عَلَيْهِ بِمَنْ يُسْلِيكَ عَنْهُ، وَمَتَى وَجَدْتَ مُؤْثِرًا لِمَا تَهْوَى وَصَفِيًّا صَادِقًا فَاشْغَلْ عُمُرَكَ بِهِ وَاغْمُرْ قَلْبَكَ بِطَاعَتِهِ، وَلْتَكُنْ نَفْسُكَ وَدِيعَةً له عِنْدَكَ فَتُنَفِّذْ أَحْكَامَهُ عَلَيْهَا. وَمَا أَقَلَّ مَنْ يَلْزَمُكَ هَذَا لَهُ إِنِ اسْتَوْفَيْتَ لِنَفْسِكَ حَقَّهَا. وَالسَّلَامُ".

- كَتَبَ الْعَتَّابِيُّ إِلَى رَجُلٍ: «أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ إِكْرَامَكَ غَيْرَ ذِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا حُمْقٌ. وَالسَّلَامُ».

- قَالَ أَحْمَدُ بْنُ الْيَمَانِ وَقد اسْتَشَارَهُ رَجُلٌ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ فَامْتَنَعَ مِنَ الْإِشَارَةِ وَقَالَ: هَذَا أَمْرٌ لَا يَلْزَمُنِي. فَقَالَ: "وَكَيْفَ وَقَدْ سَمِعْتُ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ:

---

[1] لعله علي بن عبيدة الريحاني أحد البلغاء الفصحاء، كان من المقربين من المأمون ويسلك في تأليفاته وتصنيفاته طريقة الحكمة. وكان يرمى بالزندقة وله مع المأمون أخبار متعلقة بالفطنة والذكاء.

{وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} فَقَالَ: لِلْإِشَارَةِ آفَاتٌ وَأَنَا أَحْذَرُهَا، وَذَلِكَ أَنِّي إِذَا أَشَرْتُ عَلَى رَجُلٍ بِرَأْيِي لَمْ يَخْلُ مِنْ قَبُولٍ لَهُ أَوْ رَدٍّ، فَإِنْ قَبِلَهُ لَمْ يَخْلُ مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَقَعَ صَوَابًا فَيَنْتَفِعَ بِهِ، أَوْ خَطَأً فَيَتَضَرَّرَ بِهِ، فَإِنْ وَقَعَ صَوَابًا وَانْتَفَعَ بِهِ لَمْ آمَنْ أَنْ يَتَدَاخَلَنِي لِذَلِكَ عُجْبٌ، وَأَنْ تَذْهَبَ بِي نَفْسِي أَنْ قَدْ سُقْتُ إِلَيْهِ خَيْرًا، وَإِنْ وَقَعَ خَطَأً وَتَضَرَّرَ بِهِ لَمْ أَعْدِمْ مِنْهُ لَائِمَةً وَذَمًّا. وَإِنْ لَمْ يَقْبَلْهُ لَمْ يَخْلُ أَيْضًا مِنْ أَحَدِ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَنْجَحَ أَوْ يُخْفِقَ، فَإِنْ أَنْجَحَ أَزْرَى بِي وَبِرَأْيِي أَوِ اتَّهَمَنِي فِي مَشُورَتِي، أَوْ أَخْفَقَ أَوْ نَالَهُ ضَرَرٌ لَمْ آمَنْ مِنْ نَفْسِي الشَّمَاتَةَ وَأَنْ آثَمَ فِي أَمْرِهِ. وَمَا اعْتَوَرَهُ هَذِهِ الْآفَاتُ فَتَرْكُهُ أَسْلَمُ"[١].

- وعَنْ سَمُرَةَ بْنِ جُنْدُبٍ[٢] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ، فَإِنْ شَاءَ أَشَارَ وَإِنْ شَاءَ سَكَتَ، فَإِنْ أَشَارَ فَلْيُشِرْ بِمَا لَوْ نَزَلَ بِهِ فَعَلَهُ»[٣].

---

[١] انظر: بدائع السلك في طبائع الملك لابن الأزرق، باب المشاورة.

[٢] سمرة بن جندب (ت ٥٨ هـ): صحابي من صغار الصحابة، وأحد رواة الحديث النبوي.

[٣] انظر: مسند الشهاب القضاعي ٣٨/١، ومكارم الأخلاق للخرائطي رقم الحديث : ٧٥٠، ومعجم ابن الأعرابي رقم الحديث : ١٠١٨.

ولَيْسَتِ الْإِشَارَةُ مِنَ الْحُقُوقِ الْوَاجِبَةِ عَلَى الْأَعْيَانِ حَتَّى لَا يَسَعَ الْمُسْتَشَارَ أَنْ يَمْتَنِعَ مِنْهَا عَلَى الْمُسْتَشِيرِ، إِنَّمَا هِيَ مِنْ حُقُوقِ الْكِفَايَةِ إِذَا قَامَ بِهَا بَعْضُ النَّاسِ سَقَطَ عَنِ الْبَاقِينَ.

- قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ[١]: لَا تُشِرْ عَلَى مُعْجَبٍ بِرَأْيِهِ؛ فَإِنَّهُ لَا يَقْبَلُ.

وَقَدْ تَرَخَّصَ الْعُلَمَاءُ فِي تَرْكِ الْإِشَارَةِ لِآفَةٍ تَعْرِضُ فِيهَا أَوْ عَائِقٍ يَمْنَعُ مِنْهَا. وَلَعَلَّ ابْنَ الْيَمَانِ[٢] كَانَ يَعْرِفُ مِنْ صَاحِبِهِ الْمُسْتَشِيرِ إِعْجَابًا بِرَأْيِهِ وَتَرْكًا لِقَبُولِ نُصْحِهِ فَحَذَرَ الْفِتْنَةَ وَاغْتَنَمَ الرَّاحَةَ.

بَاب التَّحْذِيرِ مِنْ قُرَنَاءِ السُّوءِ

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرِ الْمَرْءُ مَنْ يُخَالِلُ»[٣].

---

[١] محمد بن واسع الأزدي (٤٠ - ١٢٣ هـ): تابعي، فقيه، من الزهاد. من أهل البصرة، عرض عليه ابن الجارود مالك بن المنذر قضاؤها، فأبى. ولكنه بعد ذلك قبل شرطة البصرة أيام هشام بن عبد الملك، وهو من أمراء العرب بالبصرة، وله بها دار مشهورة. وشهد حرب الخوارج مع المهلب بن أبي صفرة، وذلك أيام دولة ابن الزبير سنة ٦٥ هـ.وكان قد خرج مع قتيبة بن مسلم إلى خراسان غازياً، كما كَانَ فِي فتح مَا وَرَاء النَّهر.

[٢] أحمد بن اليمان المشار إليه في في الخبر قبل السابق.

[٣] صححه الألباني.

قَوْلُهُ: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ» مَعْنَاهُ لَا تُخَالِلْ إِلَّا مَنْ رَضِيتَ دِينَهُ وَأَمَانَتَهُ؛ فَإِنَّكَ إِذَا خَالَلْتَهُ قَادَكَ إِلَى دِينِهِ وَمَذْهَبِهِ، وَلَا تُغَرِّرْ بِدِينِكَ، وَلَا تُخَاطِرْ بِنَفْسِكَ، فَتُخَالِلْ مَنْ لَيْسَ مَرْضِيًّا فِي دِينِهِ وَمَذْهَبِهِ.

– قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: وَقَدْ رُوِيَ فِي هَذَا الْحَدِيثِ[١]: انْظُرُوا إِلَى فِرْعَوْنَ مَعَهُ هَامَانُ، انْظُرُوا إِلَى الْحَجَّاجِ مَعَهُ يَزِيدُ بْنُ أَبِي مُسْلِمٍ شَرٌّ مِنْهُ، انْظُرُوا إِلَى سُلَيْمَانَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ صَحِبَهُ رَجَاءُ بْنُ حَيْوَةَ فَقَوَّمَهُ وَسَدَّدَهُ[٢].

وَيُقَالُ: إِنَّ الْخَلَّةَ مَأْخُوذَةٌ مِنْ تَخَلُّلِ الْمَوَدَّةِ الْقَلْبَ وَتَمَكُّنِهَا مِنْهُ: وَهِيَ أَعْلَى دَرَجِ الْإِخَاءِ، وَذَلِكَ أَنَّ النَّاسَ فِي الْأَصْلِ أَجَانِبُ، فَإِذَا تَعَارَفُوا ائْتَلَفُوا فَهُمْ أَوِدَّاءُ، وَإِذَا تَشَاكَلُوا فَهُمْ أَحِبَّاءُ، فَإِذَا تَأَكَّدَتِ الْمَحَبَّةُ صَارَتْ خَلَّةً.

– عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا وَلَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ»[٣].

---

[١] يعني في تفسير هذا الحديث.

[٢] رواه ابن عساكر في ذم قرناء السوء، وفي تاريخ دمشق، عن الأصمعي قال: لُقي أعرابي بين مكة والمدينة فسئل عَنْ شَيْءٍ. فَقَالَ: مَا أَرَى النَّاسَ إلا بِقُرَنَائِهِمْ. انْظُرُوا إِلَى الْحَجَّاجِ مَنْ قُيِّضَ لَهُ ابْنُ أَبِي مُسْلِمٍ؟ يَعْنِي يَزِيدَ. وَإِلَى فِرْعَوْنَ مَنْ قُيِّضَ لَهُ هَامَانُ؟ وَانْظُرُوا إِلَى عُمَرَ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ مَنْ قُيِّضَ لَهُ رَجَاءُ بْنُ حَيْوَةَ؟ فَمَا أَرَى النَّاسَ إلا بِقُرَنَائِهِمْ.

[٣] صححه الألباني.

قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ» إِنَّمَا أَرَادَ بِهِ طَعَامَ الدَّعْوَةِ دُونَ طَعَامِ الْحَاجَةِ؛ أَلَا تَرَاهُ يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: {وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا} وَمَعْلُومٌ أَنَّ أُسَرَاءَهُمُ الْكُفَّارُ دُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَدُونَ الْأَتْقِيَاءِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَإِنَّمَا وَجْهُ الْحَدِيثِ وَمَعْنَاهُ: لَا تَدْعُ إِلَى مُؤَاكَلَتِكَ إِلَّا الْأَتْقِيَاءَ؛ لِأَنَّ الْمُؤَاكَلَةَ تُوجِبُ الْأُلْفَةَ وَتَجْمَعُ بَيْنَ الْقُلُوبِ. يَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَتَوَخَّ أَنْ يَكُونَ خُلَطَاؤُكَ وَذَوُو الِاخْتِصَاصِ بِكَ أَهْلَ التَّقْوَى.

– عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ[١] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «جَالِسُوا الْكُبَرَاءَ[٢] وَتَعَلَّمُوا مِنَ الْعُلَمَاءِ»[٣].

---

[١] أبو جحيفة السوائي الكوفي واسمه وهب بن عبد الله بن مسلم: من صغار الصحابة، لم يكن قد بلغ الحلم حين توفي النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، روى عدة أحاديث، كان على شرطة علي بن أبي طالب وبيت المال. وكان يقوم تحت منبره، وكان يسميه وهب الخير. واستعمله على خمس المتاع الذي كان في حربه. وتوفي أبو جحيفة سنة ٧٤ هـ عن ثمانين عاماً في خلافة عبد الملك بن مروان وولاية بشر بن مروان بالكوفة. وكان قد نزلها وابتنى بها دارًا في بني سواءة بن عامر.

[٢] (الكبراء) الشيوخ الذين لهم التجارب وقد سكنت حدتهم وذهبت خفتهم لتتأدبوا بآدابهم وتتخلقوا بأخلاقهم.

[٣] قال الألباني في ضعيف الجامع: (ضعيف جداً).

– عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَلْزَمُوا مَجَالِسَ الْعَشَائِرِ؛ فَإِنَّهَا تُمِيتُ الْقَلْبَ، وَلَا يُبَالِي الرَّجُلُ بِمَا تَكَلَّمَ فِي نَادِيهِمْ، وَتَفَرَّقُوا فِي الْعَشَائِرِ فَإِنَّهُ أَحْرَى أَنْ تُحْفَظُوا فِي الْمَقَالَةِ»[1].

لَقَدْ حَذَّرَ النَّبِيُّ صَلَّى لِلَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُجَالَسَةَ مَنْ لَا يَسْتَفِيدُ الْمَرْءُ بِهِ فَضِيلَةً وَلَا يَكْتَسِبُ بِصُحْبَتِهِ عِلْمًا وَأَدَبًا، وَفِيهِ الْحَضُّ عَلَى الْغُرْبَةِ فِي طَلَبِ الْعِلْمِ وَالرِّحْلَةِ إِلَى بِلَادِ أَهْلِ الْفَضْلِ.

وَبَلَغَنِي عَنْ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ، أَنَّهُ سُئِلَ عَنْ قُرَيْشٍ، كَيْفَ صَارَتْ أَفْضَلَ الْعَرَبِ قَاطِبَةً وَإِنَّمَا هِيَ قَبِيلَةٌ مِنْ مُضَرَ؟ فَقَالَ: لِأَنَّ دَارَ قُرَيْشٍ لَمْ تَزَلْ مَوْسِمَ النَّاسِ وَمَنْسَكَ الْحَاجِّ، وَكَانَتِ الْعَرَبُ تَقْصِدُهَا فِي كُلِّ عَامٍ لِحَجِّهِمْ وَتَرِدُهَا لِقَضَاءِ نُسُكِهِمْ، فَهُمْ لَا يَزَالُونَ يَتَأَمَّلُونَ أَحْوَالَهُمْ وَيُرَاعُونَهَا فَيَخْتَارُونَ مِنْهَا أَحْسَنَ مَا يُشَاهِدُونَهَ وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَفْصَحَ مَا يَسْمَعُونَ مِنْ كَلَامِهِمْ وَيَتَخَلَّقُونَ بِأَحْسَنِ مَا يَرَوْنَهُ مِنْ شَمَائِلِهِمْ، فَصَارُوا أَفْضَلَ الْعَرَبِ مِنْ قِبَلِ حُسْنِ الِاخْتِيَارِ الَّذِي هُوَ ثَمَرَةُ الْعَقْلِ، فَلَمَّا ابْتَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ تَمَّتْ لَهُمُ الْفَضِيلَةُ وَكَمُلَتْ لَهُمْ بِهِ السِّيَادَةُ.

– عَنْ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَهُوَ يَعِظُ رَجُلًا: «لَا تَتَكَلَّمْ فِيمَا لَا يَعْنِيكَ، وَاعْتَزِلْ عَدُوَّكَ وَاحْذَرْ صَدِيقَكَ إِلَّا الْأَمِينَ، وَلَا أَمِينَ إِلَّا مَنْ يَخْشَى

[1] انظر: معجم شيوخ ابن الأعرابي، حديث الترقُّفي.

اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ وَيُطِيعُهُ، وَلَا تَمْشِ مَعَ الْفَاجِرِ فَيُعَلِّمَكَ مِنْ فُجُورِهِ، وَلَا تُطْلِعْهُ عَلَى سِرِّكَ، وَلَا تُشَاوِرْ فِي أَمْرِكَ إِلَّا الَّذِينَ يَخْشَوْنَ اللهَ سُبْحَانَهُ»[١].

- قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ لِرَجُلٍ، وَكَرِهَ لَهُ صُحْبَةَ أَحْمَقَ فَقَالَ لَهُ:

فَلَا تَصْحَبْ أَخَا الْجَهْلِ ... وَإِيَّاكَ وَإِيَّاهُ
فَكَمْ مِنْ جَاهِلٍ أَرْدَى ... حَلِيمًا حِينَ آخاهُ
يُقَاسُ الْمَرْءُ بِالْمَرْءِ ... إِذَا مَا هُوَ مَاشَاهُ
وَلِلشَّيْءِ مِنَ الشَّيْءِ ... مَقَايِيسُ وَأَشْبَاهُ
وَلِلْقَلْبِ عَلَى الْقَلْبِ ... دَلِيلٌ حِينَ يَلْقَاهُ

- عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ قَالَ: "مَنْ فِقْهِ الرَّجُلِ مَدْخَلُهُ وَمَمْشَاهُ وَإِلْفُهُ"[٢].

- قَالَ أَبُو قِلَابَةَ[٣]: أَلَا تَرَى إِلَى الشَّاعِرِ:

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَأَبْصِرْ قَرِينَهُ ... فَإِنَّ الْقَرِينَ بِالْمُقَارَنِ يَقْتَدِي

---

[١] انظر: محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لابن المبرد.

[٢] وينسب إلى أبي هريرة موقوفاً كما في الفردوس بمأثور الخطاب للديلمي باب الألف، وقد رواه ابن حجر مرفوعاً، في زهر الفردوس، عن أبي هريرة، وهو وهم.

[٣] أبو قِلَابَة عبد الله بن زيد الجرمي البصري: تابعي، وراوي حديث، ثقة، وفقيه، توفي سنة ١٠٤ هـ.

- عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ: «الصَّاحِبُ الْخَيِّرُ خَيْرٌ مِنَ الْوَحْدَةِ، وَالْوَحْدَةُ خَيْرٌ مِنْ جَلِيسِ السُّوءِ، وَمُمْلِي الْخَيْرِ خَيْرٌ مِنَ السَّاكِتِ، وَالسَّاكِتُ خَيْرٌ مِنْ مُمْلِي الشَّرِّ، وَالْأَمَانَةُ خَيْرٌ مِنَ الْخَاتَمِ، وَالْخَاتَمُ خَيْرٌ مِنَ الظَّنِّ»[١].

- عَنْ جَعْفَرِ بْنِ سُلَيْمَانَ قَالَ: رَأَيْتُ مَعَ مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ كَلْبًا فَقُلْتُ: مَا هَذَا يَا أَبَا يَحْيَى؟ قَالَ: «هَذَا خَيْرٌ مِنْ جَلِيسِ السُّوءِ»[٢].

- قَالَ أَعْرَابِيٌّ: "عَدَاوَةُ الْحَلِيمِ أَقَلُّ ضَرَرًا عَلَيْكَ مِنْ مَوَدَّةِ الْجَاهِلِ"[٣].

وَفِي هَذَا لِبَعْضِ الشُّعَرَاءِ[٤]:

وَلَأَنْ يُعَادِيَ عَاقِلًا خَيْرٌ لَهُ ... مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ صَدِيقٌ أَحْمَقُ

---

[١] رواه ابن أبي شيبة في المصنف عن أبي ذر.

[٢] انظر: الحلية، ترجمة مالك بن دينار، والمعجم الأوسط للطبراني، وسبعة مجالس من أمالي أبي طاهر المخلص، والزهد الكبير للبيهقي، وتاريخ دمشق لابن عساكر، وفضل الكلاب على كثير ممن لبس الثياب لابن المرزبان المحولي.

[٣] في أدب الدنيا والدين للماوردي: وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: عَدَاوَةُ الْعَاقِلِ أَقَلُّ ضَرَرًا مِنْ مَوَدَّةِ الْأَحْمَقِ؛ لِأَنَّ الْأَحْمَقَ رُبَّمَا ضَرَّ وَهُوَ يَقْدِرُ أَنْ يَنْفَعَ، وَالْعَاقِلُ لَا يَتَجَاوَزُ الْحَدَّ فِي مَضَرَّتِهِ، فَمَضَرَّتُهُ لَهَا حَدٌّ يَقِفُ عَلَيْهِ الْعَقْلُ، وَمَضَرَّةُ الْجَاهِلِ لَيْسَتْ بِذَاتِ حَدٍّ. وَالْمَحْدُودُ أَقَلُّ ضَرَرًا مِمَّا هُوَ غَيْرُ مَحْدُودٍ.

[٤] البيتان لصالح بن عبد القدوس بن عبد الله الأزدي الجذامي: شاعر حكيم، كان متكلماً يعظ الناس في البصرة. له مع أبي الهذيل العلاف مناظرات، وشعره كله أمثال وحكم وآداب. اتهم عند المهدي العباسي بالزندقة، فقتله ببغداد. ومطلع القصيدة: المرءُ يَجمَعُ وَالزَمانُ يُفرِّقُ ... وَيَظل يَرقع وَالخطوب تمزّقُ

فَارْغَبْ بِنَفْسِكَ أَنْ تُصَادِقَ جَاهِلًا إِنَّ الصَّدِيقَ عَلَى الصَّدِيقِ مُصَدِّقُ

- عَنِ الْخَطَّابِ بْنِ الْمُعَلَّى الْمَخْزُومِيِّ الْقُرَشِيِّ، أَنَّهُ وَعَظَ ابْنَهُ فَقَالَ: "إِيَّاكَ وَإِخْوَانَ السُّوءِ فَإِنَّهُمْ يَخُونُونَ مَنْ رَافَقَهُمْ وَيَخْرُفُونَ مَنْ صَادَقَهُمْ وَقُرْبُهُمْ أَعْدَى مِنَ الْجَرَبِ وَرَفْضُهُمْ مِنِ اسْتِكْمَالِ الْأَدَبِ وَالْمَرْءُ يُعْرَفُ بِقَرِينِهِ. وَالْإِخْوَانُ اثْنَانِ: فَمُحَافِظٌ عَلَيْكَ عِنْدَ الْبَلَاءِ وَصِدِيقٌ لَكَ فِي الرَّخَاءِ، فَاحْفَظْ صَدِيقَ الْبَلِيَّةِ وَتَجَنَّبْ صَدِيقَ الْعَافِيَةِ فَإِنَّهُمْ أَعْدَى الْأَعْدَاءِ"[١].

- وَفِي هَذَا قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَكُلُّ خَلِيلٍ بِالْهُوَيْنَا مُلَاطِفٌ وَلَكِنَّمَا الْإِخْوَانُ عِنْدَ النَّوَائِبِ

وَلِآخَرَ:

أَرَى النَّاسَ إِخْوَانَ الرَّخَاءِ وَإِنَّمَا أَخُوكَ الَّذِي آخَاكَ عِنْدَ الشَّدَائِدِ

- قَالَ زَيْدُ بْنُ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ[٢]:

---

[١] رواه ابن حبان في روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، في وصية الخطاب بن المعلى المخزومي القرشي ابنه، وهي وصية طويلة.

[٢] زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب: الإمام، أبو الحسين العلوي الهاشمي القرشي. ويقال له ''زيد الشهيد'' عده الجاحظ من خطباء بني هاشم. وقال أبو حنيفة: ما رأيت في زمانه أفقه منه ولا أسرع جواباً ولا أبين قولاً. كانت إقامته بالكوفة، وقرأ على واصل بن عطاء (رأس المعتزلة) واقتبس منه علم الاعتزال. وأشخص إلى الشام، فضيق عليه هشام بن عبد الملك، وحبسه خمسة أشهر. وعاد إلى العراق ثم إلى المدينة، فلحق به بعض أهل الكوفة يحرضونه على قتال

أَبُنَيَّ إِمَّا أُفْقَدَنَّ فَلَا تَكُنْ دَنِسَ الْفِعَالِ مُبَيَّضَ الْأَثْوَابِ

وَاحْذَرْ مُصَاحَبَةَ اللِّئَامِ فَرُبَّمَا أَزْرَى الكريمَ فُسُولَةُ[١] الْأَصْحَابِ[٢]

- قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا، يَقُولُ: «مُخَالَطَةُ الْأَنْذَالِ وَالسِّفْلَةِ تَحُطُّ الْهَيْبَةَ وَتَضَعُ الْمَنْزِلَةَ، وَتَكِلُّ اللِّسَانَ وَتُزْرِي الْإِنْسَانَ».

- عَنْ شَرِيكِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ[٣] قَالَ: كَانَ يُقَالُ: «لَا تُسَافِرْ مَعَ جَبَانٍ فَإِنَّهُ يَفِرُّ مِنْ أَبِيهِ وَأُمِّهِ، وَلَا تُسَافِرْ مَعَ أَحْمَقَ فَإِنَّهُ يَخْذُلُكَ أَحْوَجَ مَا تَكُونُ إِلَيْهِ، وَلَا تُسَافِرْ مَعَ فَاسِقٍ فَإِنَّهُ يَبِيعُكَ بِأَكْلَةٍ وَشَرْبَةٍ».

الأمويين، ورجعوا به إلى الكوفة سنة ١٢٠ هـ ، فبايعه أربعون ألفاً على الدعوة إلى الكتاب والسنة، وجهاد الظالمين، والدفع عن المستضعفين، وإعطاء المحرومين، والعدل في قسمة الفيء، ورد المظالم، ونصر أهل البيت. وكان العامل على العراق يومئذ يوسف بن عمر الثقفي، فكتب إلى الحكم بن الصلت وهو في الكوفة أن يقاتل زيداً، ففعل. ونشبت معارك انتهت بمقتل زيد، في الكوفة، وحمل رأسه إلى الشام فنصب على باب دمشق. ثم أرسل إلى المدينة فنصب عند قبر النبي (ص) يوما وليلة، وحمل إلى مصر فنصب بالجامع، فسرقه أهل مصر ودفنوه.

[١] الفَسل: الرذيل النذل الذي لا مروءة له ولا جَلَد.

[٢] انظر تاريخ الطبري. ترجمة زيد بن علي.

[٣] شَرِيك بن عبد الله بن الحارث النَّخَعي (٩٥ - ١٧٧ هـ): قاضٍ وفقيه ومحدِّث. ولد في بخارى. أدرك شريك عمر بن عبد العزيز، وسمع سلمة بن كهيل، ومنصور بن المعتمر، وأبا إسحاق. واستقضاه المنصور العباسي على الكوفة سنة ١٥٣ هـ، ثم عزله. وأعاده المهدي، فعزله موسى الهادي. توفي بالكوفة.

- قَالَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ[١]: «لَا تُصَادِقْ ذِمِّيًّا وَلَا خَصِيًّا وَلَا مُؤَنَّثًا»[٢].

- قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ النَّصْرِ الْحَارِثِيُّ[٣]:

وَإِذَا صَاحَبْتَ فَاصْحَبْ صَاحِبًا ذَا حَيَاءٍ وَعَفَافٍ وَكَرَمْ

قَوْلُهُ لِلشَّيْءِ لَا إِنْ قُلْتُ لَا وَإِذا قُلْتَ نَعَمْ قَالَ: نَعَمْ[٤]

- قَالَ الْمُبَارَكُ بْنُ سَعِيدٍ: "أَتَيْتُ الْأَعْمَشَ أَنَا وَأَبِي، فَقَالَ لَهُ أَبِي: إِنَّ هَذَا يُرِيدُ مَكَّةَ يَلْحَقُ بِأَخَوَيْهِ سُفْيَانَ وَعُمَرَ، فَتَرَى أَنْ أَشْتَرِيَ لَهُ بَعِيرًا أَوْ أَكْتَرِي؟

---

[١] خالد بن صفوان بن عبد الله بن عمرو بن الأهتم المنقري التميمي البصري (٥٥ - ١٤٥ هـ): خطيب، وشاعر من فصحاء وخطباء العرب المشهورين في العهدين الأموي والعباسي الأول.

[٢] قيل: فَإِنَّهُ لَا ثبات لموداتهم.

[٣] مُحَمَّدُ بنُ النَّضر الحَارِثِيُّ، الكُوْفِيُّ: عَابِدُ أَهْل زَمَانِهِ بِالكُوْفَةِ. رَوَى عَنِ: الأَوْزَاعِيِّ، وَغَيْرِهِ.

[٤] قال ابن أبي الدنيا في كتاب الإخوان: عن عَبَاءَةَ بْنُ كُلَيْبٍ، قَالَ: "اجْتَمَعْتُ أَنَا وَمُحَمَّدُ بْنُ النَّضْرِ الْحَارِثِيُّ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ، وَفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ، وَصَنَعْتُ لَهُمْ طَعَامًا، فَلَمْ يُخَالِفْ عَلَيْنَا مُحَمَّدُ بْنُ النَّضْرِ الْحَارِثِيُّ فِي شَيْءٍ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ: مَا أَقَلَّ خِلَافَكَ، فَقَالَ مُحَمَّدٌ:

فَإِذَا صَاحَبْتَ فَاصْحَبْ صَاحِبًا ... ذَا حَيَاءٍ وَعَفَافٍ وَكَرَمْ

قَوْلُهُ لِلشَّيْءِ لَا إِنْ قُلْتَ لَا ... وَإِذَا قُلْتَ: نَعَمْ قَالَ: نَعَمْ

قَالَ: «بَلِ اشْتَرِ لَهُ، وَأَرَى لَهُ أَنْ يَخْرُجَ مَعَ ضَرْبِهِ مِنَ النَّاسِ، وَإِيَّاكَ وَأَصْحَابَ الْأَخْبِصَةِ؛ فَإِنَّكَ إِنْ أَخَذْتَ بِأَخْذِهِمْ مَحَقُوكَ وَإِنْ قَصَّرْتَ عَنْهُمُ ازْدَرُوكَ»[١].

- قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ: «لَا يَقُولُ رَجُلٌ فِي رَجُلٍ خَيْرًا لَا يَعْلَمُهُ مِنْهُ إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يَقُولَ شَيْئًا يَعْلَمُهُ مِنْهُ، وَلَا يَصْطَحِبُ اثْنَانِ عَلَى غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلَّا يُوشِكُ أَنْ يَفْتَرِقَا عَلَى غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ»[٢].

- وَأَنْشَدَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْأَدَبِ:

وَقَائِلٍ كَيْفَ تَهَاجَرْتُمَا؟ فَقُلْتُ قَوْلًا فِيهِ إِنْصَافُ:

لَمْ يَكُنْ شَكْلِي فَفَارَقْتُهُ وَالنَّاسُ أَشْكَالٌ وَأَصْنَافُ

- عَنِ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ قَالَ: الْعَرَبُ تَقُولُ: «أَنْتَ تَئِقٌ وَأَنَا مَئِقٌ، فَمَتَى نَتَّفِقُ»[٣].

- ولِعُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُتْبَةَ[٤]:

أَبِنْ لِي وَكُنْ مِثْلِي أَوِ ابْتَغِ صَاحِبًا كَمِثْلِكَ إِنِّي مُبْتَغٍ صَاحِبًا مِثْلِي

---

[١] انظر: أمالي ابن سمعون الواعظ، أول المجلس الخامس عشر.

[٢] انظر: عيون الأخبار لابن قتيبة.

[٣] في مجمع الأمثال للميداني: أَنْتَ تَئِقٌ، وَأَنا مَئِقٌ، فَمَتَى نَتَّفِقُ؟ يضرب للمختلفَين أخلاقاً. قال أبو عبيد: التَّئِقُ السريعُ إلى الشر، والمئِق: السريعُ إلى البكاء.

[٤] عبيد الله بن عبد الله بن عتبة الهذلي (ت ٩٨ هـ): تابعي مدني، وأحد رواة الحديث ، وهو أحد فقهاء المدينة السبعة من سادات التابعين وأعلامهم وفضلائهم كان أعلم أهل المدينة المنورة ، وهو شيخ الخليفة عمر بن عبد العزيز، وله مواقف كثيرة معه وكان شاعراً يجيد في الشعر وله أبيات.

وَلَنْ يَلْبَثَ الْأَقْرَانُ أَنْ يَتَفَرَّقُوا إِذَا لَمْ يُؤَلَّفْ رُوحُ شَكْلٍ إِلى شَكْلِ[١]

- قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: عِمَادُ الْمَوَدَّةِ الْمُشَاكَلَةِ، وَكُلُّ وُدٍّ عَنْ غَيْرِ تَشَاكُلٍ فَهُوَ سَرِيعُ التَّصَرُّمِ.

- وَأَحْسَنَ الطَّائِيُّ[٢] حِينَ يَقُولُ:

وَلَنْ تَنْظِمَ الْعِقْدَ الْكِعَابُ لِزِينَةٍ كَمَا انْتَظَمَ الشَّمْلَ الشَّتِيتَ الشَّمَائِلُ

- وَكَانَ نَقْشُ خَاتَمِ بَعْضِ الْحُكَمَاءِ: "مَنْ وَدَّكَ لِأَمْرٍ وَلَّى مَعَ انْقِضَائِهِ".

بَاب فِي اخْتِلَافِ طَبَقَاتِ النَّاسِ

- عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ[٣] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ قَبْضَةٍ قَبَضَهَا مِنْ جَمِيعِ الْأَرْضِ فَجَاءَ

---

[١] انظر: الحيوان للجاحظ، باب من أشعار الأعراب.

[٢] هو أبو تمام. انظر: الزهرة لأبي بكر محمد بن داود الظاهري. وهذا البيت بين بيتين هما:

هوًى كانَ خَلساً إنَّ مِنْ أبردِ الهوَى هوًى جلتُ في أفنائهِ وهو خاملُ

ولنْ تنظمَ العقدَ الكعابُ لزينةٍ كما انتظمَ الشَّملَ الشَّتيتَ الشمائلُ

وقدْ تألفُ العينُ الدُّجى وهو قيدُها ويُرجَى شفاءُ السُّمِّ والسُّمُّ قاتلُ

[٣] أبو موسى عبد الله بن قيس الأشعري: صحابي، وَلَّاهُ النبي صلى الله عليه و سلم على زبيد وعدن، وولاه عمر بن الخطاب على البصرة، وولاه عثمان بن عفان على الكوفة، وكان المحكَّم الذي اختاره علي بن أبي طالب من بين حزبه يوم صفين.

بَنُو آدَمَ عَلَى قَدْرِ الْأَرْضِ: مِنْهُمُ الْأَحْمَرُ وَالْأَسْوَدُ وَالْأَبْيَضُ وَالسَّهْلُ وَالْحَزَنُ وَبَيْنَ ذَلِكَ الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ"[١].

فقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي هَذَا الْقَوْلِ أَنَّ النَّاسَ أَصْنَافٌ وَطَبَقَاتٌ، وَأَنَّهُمْ إِلَى تَفَاوُتٍ فِي الطِّبَاعِ وَالْأَخْلَاقِ: فَمِنْهُمُ الْخَيِّرُ الْفَاضِلُ الَّذِي يُنْتَفَعُ بِصُحْبَتِهِ، وَمِنْهُمُ الرَّدِيءُ النَّاقِصُ الَّذِي يُتَضَرَّرُ بِقُرْبِهِ وَعِشْرَتِهِ؛ كَمَا أَنَّ الْأَرْضَ مُخْتَلِفَةُ الْأَجْزَاءِ وَالتُّرَابِ: فَمِنْهَا الْعَذَاةُ[٢] الطَّيِّبَةُ الَّتِي يَطِيبُ نَبَاتُهَا وَيَزْكُو، وَمِنْهَا السِّبَاخُ الْخَبِيثَةُ الَّتِي يَضِيعُ بِذْرُهَا وَيَبِيدُ زَرْعُهَا، وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ عَلَى حَسْبِ مَا يُوجَدُ مِنْهَا حِسًّا وَيُشَاهَدُ عِيَانًا.

– عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «النَّاسُ مَعَادِنُ»[٣].

وَفِي هَذَا الْقَوْلِ أَيْضًا بَيَانٌ أَنَّ اخْتِلَافَ النَّاسِ غَرَائِزُ فِيهِمْ كَمَا أَنَّ الْمَعَادِنَ وَدَائِعُ مَرْكُوزَةٌ فِي الْأَرْضِ: فَمِنْهَا الْجَوْهَرُ النَّفِيسُ وَمِنْهَا الْفِلِزُّ الْخَسِيسُ، وَكَذَلِكَ جَوَاهِرُ النَّاسِ وَطَبَائِعُهُمْ: مِنْهَا الزَّكِيُّ الرَّضِيُّ، وَمِنْهَا النَّاقِصُ الدَّنِيءُ. وَإِذَا كَانُوا كَذَلِكَ وَكَانَ الْأَمْرُ عَلَى الْعِيَانِ مِنْهُمْ مُشْكِلًا وَاسْتِبْرَاءُ الْعَيْبِ فِيهِمْ مُتَعَذِّرًا فَالْحَزْمُ إِذَنِ الْإِمْسَاكُ عَنْهُمْ وَالتَّوَقُّفُ عَنْ مُدَاخَلَتِهِمْ إِلَى أَنْ تَكْشَفَ

---

[١] صححه الألباني.

[٢] العذاة: الطيبة.

[٣] متفق عليه. يعني مثل المعادن من حيثُ النَّفاسةُ أو الوَضاعةُ والخِسَّةُ.

الْمِحْنَةُ عَنْ أَسْرَارِهِمْ، وَبَوَاطِنِ أَمْرِهِمْ، فَيَكُونَ عِنْدَ ذَلِكَ إِقْدَامٌ عَلَى خِبْرَةٍ أَوْ إِحْجَامٌ عَنْ بَصِيرَةٍ. وَلَعَلَّكَ – أَسْعَدَكَ اللَّهُ – إِذَا خَبَرْتَهُمْ قَلَيْتَهُمْ وَإِذَا عَرَفْتَهُمْ أَنْكَرْتَهُمْ إِلَّا مَنْ يَخُصُّهُمُ الثُّنْيَا[١] وَقَلِيلٌ مَا هُمْ.

– عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، رَفَعَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «اُخْبُرْ تَقْلُهْ، وَثِقَ بِالنَّاسِ رُوَيْدًا»[٢]. سَمِعْتُ شَيْخَنَا أَبَا بَكْرٍ الْقَفَّالَ[٣]، رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ يَقُولُ: بَلَغَنِي عَنِ الْمَأْمُونِ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «لَوْلَا أَنَّهُ قَدْ قِيلَ: "اخْبُرْ تَقْلُهْ" لَقُلْتُ أَنَا: "اقْلُهْ تَخْبُرْ".

---

[١] الثنيا: الاستثناء.

[٢] سبق ذكره وشرحه.

[٣] أبو بكر محمد بن علي بن إسماعيل الشاشي المعروف بـ «القفال الكبير» (٢٩١ – ٣٦٥ هـ): أحد أعلام مذهب الإمام الشافعي، فقيه ومفسر وراوٍ، ومن أشهر أئمة المسلمين عبر التاريخ. ويلقب بـ«القفال الكبير» تمييزاً له عن الإمام «القفال الصغير».

- عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ[١] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «النَّاسُ كَأَسْنَانِ الْمُشْطِ»[٢].

وهَذَا يُتَأَوَّلُ عَلَى وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُونَ أَرَادَ أَنَّهُمْ مُتَسَاوُونَ فِي الْأَحْكَامِ لَا يُفَضَّلُ شَرِيفٌ لِشَرَفِهِ عَلَى وَضِيعٍ، كَأَسْنَانِ الْمُشْطِ مُتَسَاوِيَةٍ لَا فَضْلَ لِسِنٍّ مِنْهَا عَلَى أُخْرَى، وَالْوَجْهُ الْآخَرُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ لِمَعْنَى الْمَذَمَّةِ لَهُمْ وَأَنَّ الْغَالِبَ عَلَيْهِمُ النَّقْصُ، كَقَوْلِهِمْ إِذَا ذَمُّوا قَبِيلَةً: هُمْ كَأَسْنَانِ الْحِمَارِ قَالَ الشَّاعِرُ:

سَوَاسِيَةٌ كَأَسْنَانِ الْحِمَارِ

وَشَبِيهٌ بِهَذَا قَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «النَّاسُ كَإِبِلٍ مِائَةٍ لَا تَكَادُ تَجِدُ فِيهَا رَاحِلَةً» وَقَدْ تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ فِيمَا مَضَى مِنْ هَذَا الْكِتَابِ.

- تَلَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ هَذِهِ الْآيَةَ {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ} وَقَالَ: مَا فِي الْأَرْضِ آدَمِيٌّ إِلَّا وَفِيهِ شَبَهٌ مِنْ شَبَهِ الْبَهَائِمِ؛ فَمِنْهُمْ مَنْ يَهْتَصِرُ اهْتِصَارَ الْأَسَدِ[٣]، وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْدُو عَدْوَ الذِّئْبِ،

---

[١] سهل بن سعد بن مالك الساعدي الأنصاري (٨ ق هـ - ٩١ هـ): صحابي معمَّر، توفي أبوه وهو غلام سنة ٢ هـ، وفي ذلك قال الواقدي: «تجهز سعد بن مالك ليخرج إلى بدر فمرض، فمات فموضع قبره عند دار بني قارظ، فضرب له رسول الله ﷺ بسهمه وأجره». وقتل أخوه ثعلبة بن سعد في يوم أحد سنة ٣ هـ.

[٢] قال الألباني: وخلاصة القول فيه أنه ضعيف جداً.

[٣] يفترس افتراسه.

وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْبَحُ نُبَاحَ الْكَلْبِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَطَوَّسُ كَفِعْلِ الطَّاوُسِ[١] وَمِنْهُمْ مَنْ يُشْبِهُ الْخَنَازِيرَ الَّتِي لَوْ أُلْقِيَ لَهَا الطَّعَامُ الطَّيِّبُ عَافَتْهُ، فَإِذَا قَامَ الرَّجُلُ عَنْ رَجِيعِهِ وَلَغَتْ فِيهِ، فَكَذَلِكَ تَجِدُ مِنَ الْآدَمِيِّينَ مَنْ لَوْ سَمِعَ خَمْسِينَ حِكْمَةً لَمْ يَحْفَظْ وَاحِدَةً مِنْهَا، وَإِنْ أَخْطَأَ رَجُلٌ عَنْ نَفْسِهِ أَوْ حَكَى خَطَأَ غَيْرِهِ تَرَوَّاهُ[٢] وَحَفِظَهُ".

فَمَا أَحْسَنَ مَا تَأَوَّلَ أَبُو مُحَمَّدٍ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ هَذِهِ الْآيَةَ وَاسْتَنْبَطَ مِنْهَا هَذِهِ الْحِكْمَةَ؛ وَذَلِكَ أَنَّ الْكَلَامَ إِذَا لَمْ يَكُنْ حُكْمُهُ مُطَاوِعًا لِظَاهِرِهِ وَجَبَ الْمَصِيرُ إِلَى بَاطِنِهِ، وَقَدْ أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ وُجُودِ الْمُمَاثَلَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ كُلِّ دَابَّةٍ وَطَائِرٍ، وَكَانَ ذَلِكَ مُمْتَنِعًا مِنْ جِهَةِ الْخِلْقَةِ وَالصُّورَةِ وَعَدَمًا مِنْ جِهَةِ النُّطْقِ وَالْمَعْرِفَةِ، فَوَجَبَ أَنْ يَكُونَ مَصْرُوفًا إِلَى الْمُمَاثَلَةِ فِي الطِّبَاعِ وَالْأَخْلَاقِ.

وَإِذَا كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ فَاعْلَمْ يَا أَخِي أَنَّكَ إِنَّمَا تُعَاشِرُ الْبَهَائِمَ وَالسِّبَاعَ؛ فَلْيَكُنْ حَذَرُكَ مِنْهُمْ وَمُبَاعَدَتُكَ إِيَّاهُمْ عَلَى حَسْبِ ذَلِكَ.

وَمِصْدَاقُ قَوْلِ سُفْيَانَ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ حِينَ يَقُولُ فِي تَمْثِيلِ مَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ بِالْكَلْبِ فَقَالَ عَزَّ وَعَلَا: {فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ} وَقَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا} وَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: {أُولَئِكَ

---

[١] يُعْجَبُ بِنَفْسِهِ.

[٢] حفظه ورواه ونقله.

كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ} فَجَعَلَهُمْ أَسْوَأَ حَالًا مِنْهَا وَأَبْعَدَ مَذْهَبًا فِي الضَّلَالِ حَتَّى قَامَتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ فَلَمْ يُذْعِنُوا لَهَا.

وَلِأَجْلِ ذَلِكَ رَأَى الْحُكَمَاءُ أَنَّ السَّلَامَةَ مِنْ آفَاتِ السِّبَاعِ الضَّارِيَةِ أَمْكَنُ وَالْخَلَاصَ مِنْهَا أَسْهَلُ مِنَ السَّلَامَةِ مِنْ شَرِّ النَّاسِ.

- عَنِ الشَّافِعِيِّ يُنْشِدُ:

لَيْتَ الْكِلَابَ لَنَا كَانَتْ مُجَاوِرَةً ... وَأَنَّنَا لَا نَرَى مِمَّنْ نَرَى أَحَدَا

إِنَّ الْكِلَابَ لَتَهْدَا فِي مَوَاطِنِهَا ... وَالنَّاسُ لَيْسَ بِهَادٍ شَرُّهُمْ أَبَدَا

فَاحْفَلْ لِنَفْسِكَ فِي تَفْرِيدِهَا أَبَدَا ... تَعِشْ حَمِيدًا إِذَا مَا كُنْتَ مُنْفَرِدَا

وَفِي نَحْوِ هَذَا قَوْلُنا[1]:

شَرُّ السِّبَاعِ الضَّوَارِي دُونَهُ وَزَرُ[2] ... وَالنَّاسُ شَرُّهُمْ مَا دُونَهُ وَزَرُ

كَمْ مَعْشَرٍ سَلِمُوا لَمْ يُؤْذِهِمْ سَبُعٌ ... وَمَا نَرَى بَشَرًا لَمْ يُؤْذِهِ بَشَرُ

- قَالَ الْفُضَيْلُ: إِذَا رَأَيْتَ السَّبُعَ فَلَا يَهُولَنَّكَ، وَإِذَا رَأَيْتَ ابْنَ آدَمَ فَخُذْ ثَوْبَكَ ثُمَّ فِرَّ[3].

---

[1] البيتان للمؤلف الخطابي رحمه الله.

[2] الوزر الملجأ.

[3] انظر: الزهد الكبير للبيهقي فصل العزلة والخمول.

- عَنِ الشَّافِعِيِّ أَنَّهُ قَالَ: مَا أَشْبَهَ هَذَا الزَّمَانَ إِلَّا بِمَا قَالَ تَأَبَّطَ شَرًّا[١]:

عَوَى الذِّئْبُ فَاسْتَأْنَسْتُ بِالذِّئْبِ إِذْ عَوَى وَصَوَّتَ إِنْسَانٌ فَكِدْتُ أَطِيرُ

- وَفِي نَحْوٍ مِنْهُ قَوْلُ عُبَيْدِ بْنِ أَيُّوبَ الْعَنْبَرِيِّ[٢] وَقَدْ كَانَ جَنَى جِنَايَةً عَظِيمَةً فَطَلَبَهُ السُّلْطَانُ فَأَمْعَنَ فِي الْهَرَبِ حَتَّى وَقَعَ فِي مَجَاهِلِ الْأَرْضِ:

لَقَدْ خِفْتُ حَتَّى لَوْ تَمُرُّ حَمَامَةٌ لَقُلْتُ عَدُوٌّ أَوْ طَلِيعَةُ مَعْشَرِ

فَإِنْ قِيلَ خَيْرٌ قُلْتُ هَذَا خَدِيعَةٌ وَإِنْ قِيلَ شَرٌّ قُلْتُ حَقٌّ فَشَمِّرِ

- ولِمَنْصُورِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ[٣]:

النَّاسُ بَحْرٌ عَمِيقٌ وَالْبُعْدُ عَنْهُمْ سَفِينَهْ

وَقَدْ نَصَحْتُكَ فَانْظُرْ لِنَفْسِكَ الْمِسْكِينَهْ

- وَأَنْشَدُونَا لَهُ[٤]:

---

[١] منسوب إلى الأحيمر السعدي.

[٢] عُبَيد بن أَيوب العَنبَرِي: من بني العنبر من شعراء العصر الأموي، كان لصاً حاذقاً، أباح السلطان دمه، وبرئ منه قومه، فهرب في مجاهل الأرض، واستصحب الوحوش وأنس بها وذكرها في أشعاره. وكان يزعم أنه يرافق الغول والسعلاة ويبايت الذئاب والأفاعي.

[٣] والبيتان منسوبان لابن طاهر عبد الله بن حسين بن طاهر العلوي.

[٤] لمنصور الفقيه: منصور بن اسماعيل الفقيه: شاعر وفقيه شافعي، ضرير، أصله من رأس العين (بالجزيرة) سافر إلى بغداد في شبابه، ومدح بها الخليفة والمعتز ثم سكن مصر وتوفي بها. وكان خبيث

كُلِّ مَنْ أَصْبَحَ فِي دَهْـ ـرِكْ مِمَّنْ قَدْ تَرَاهْ
هُوَ مِنْ خَلْفِكَ مِقْرَا ضٌ وَفِي الْوَجْهِ مِرَاهْ

وَسَأُفِيدُكَ فَائِدَةً يَا أَخِي يَجِلُّ نَفْعُهَا وَتَعْظُمُ عَائِدَتُهَا، وَمَا أَقُولُهَا إِلَّا عَنْ وُدٍّ لَكَ وَشَفَقَةٍ عَلَيْكَ؛ فَإِنَّ الْبَلْوَى فِي مُعَاشَرَةِ أَهْلِ زَمَانِكَ عَظِيمَةٌ فَاسْتَعِنْ بِهَا عَلَى مَا يَلْقَاكَ مِنْ أَذَاهُمْ، فَإِنَّكَ لَا تَخْلُو مِنْ قَلِيلِه وَإِنْ سَلِمْتَ مِنْ كَثِيرِه، وَذَلِكَ أَنَّكَ قَدْ تَرَى الْوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ يَتَكَالَبُ عَلَى النَّاسِ وَيَتَسَفَّهُ عَلَى أَعْرَاضِهِمْ وَيَنْبَحُ فِيهَا نُبَاحَ الْكَلْبِ؛ فَيَهُمُّكَ مِنْ شَأْنِهِ مَا يَهُمُّكَ وَيَسُوءُكَ مِنْهُ مَا يَسُوءُكَ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ رَجُلًا فَاضِلًا يُرْجَى خَيْرُهُ وَيُؤْمَنُ شَرُّهُ، فَيَطُولُ فِي أَمْرِهِ فِكْرُكَ وَيَدُومُ بِهِ شُغْلُ قَلْبِكَ.

فَأَزِحْ هَذَا الْعَارِضَ عَنْ نَفْسِكَ بِأَنْ تَعُدَّهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ كَلْبًا خِلْقَةً، وَزِدْ بِهِ فِي عَدَدِ الْكِلَابِ وَاحِدًا، وَلَعَلَّكَ قَدْ مَرَرْتَ مَرَّةً مِنَ الْمِرَارِ بِكَلْبٍ مِنَ الْكِلَابِ يَنْبَحُ وَيَعْوِي، وَرُبَّمَا كَانَ أَيْضًا قَدْ يُسَاوِرُ[1] وَيَعَضُّ، فَلَمْ تُحَدِّثْ نَفْسَكَ فِي أَمْرِهِ بِأَنْ يَعُودَ إِنْسَانًا يَنْطِقُ وَيسيحُ، فَلَا تَتَأَسَّفْ لَهُ أَلَّا يَكُونَ دَابَّةً تُرْكَبُ أَوْ شَاةً تُحْلَبُ، فَاجْعَلْ أَيْضًا هَذَا الْمُتَكَلِّبَ كَلْبًا مِثْلَهُ وَاسْتَرِحْ مِنْ شُغْلِهِ وَارْبَحْ مَؤُونَةَ الْفِكْرِ فِيهِ، وَكَذَلِكَ فَلْيَكُنْ عِنْدَكَ مَنْزِلَةَ مَنْ جَهِلَ حَقَّكَ وَكَفَرَ مَعْرُوفَكَ

اللسان في الهجو، ونقل عنه كلام في الدين، وشهد عليه بذلك شاهد، فقال القاضي (أبو عبيد): إن شهد عليه ثان ضربت عنقه، فاستولى عليه الخوف ومات.

[1] يساور: يثب.

فَاحْسِبْهُ حِمَارًا أَوْ زِدْ بِهِ فِي عَدَدِ الْعَانَةِ[١] وَاحِدًا، فَبِمِثْلِ هَذَا تَخْلُصُ مِنْ آفَةِ هَذَا الْبَابِ وَغَائِلَتِهِ. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

بَاب فِي ذِكْرِ أَخْلَاقِ الْعَامَّةِ

- عَنْ أَبِي جُحَيْفَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ جَالِسًا ذَاتَ يَوْمٍ وَقُدَّامَهُ قَوْمٌ يَصْنَعُونَ شَيْئًا كَرِهَهُ مِنْ كَلَامٍ وَلَغَطٍ فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَنْهَاهُمْ؟ فَقَالَ: «لَوْ نَهَيْتُهُمْ عَنِ الْحَجُونِ[٢] لَأَوْشَكَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَأْتِيَهُ وَلَيْسَتْ لَهُ حَاجَةٌ»[٣].

فَقَدْ أَنْبَأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَذَا الْقَوْلِ أَنَّ الشَّرَّ طَبَاعٌ فِي النَّاسِ، وَأَنَّ الْخِلَافَ عَادَةٌ لَهُمْ، وَحَضَّ بِذَلِكَ عَلَى شِدَّةِ الْحَذَرِ مِنْهُمْ وَقِلَّةِ الثِّقَةِ بِهِمْ.

- وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الشَّرُّ فِي النَّاسِ طَبَاعٌ، وَحُبُّ الْخِلَافِ لَهُمْ عَادَةٌ، وَالْجَوْرُ فِيهِمْ سُنَّةٌ؛ وَلِذَلِكَ تَرَاهُمْ يُؤْذُونَ مَنْ لَا يُؤْذِيهِمْ وَيَظْلِمُونَ مَنْ لَا يَظْلِمُهُمْ وَيُخَالِفُونَ مَنْ يَنْصَحُهُمْ.

- قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: قِيلَ لِرَجُلٍ أَتُؤْذِي جِيرَانَكَ؟ قَالَ: فَمَنْ أُوذِي؟ أَأُوذِي مَنْ لَا أَعْرِفُ؟

---

[١] العانة: قطيع البهائم.

[٢] موضع معروف في مكة.

[٣] أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد ١/١٨١ ورجاله رجال الصحيح.

- قَالَ حَسَّانُ: "احْفَظُوا عَنِّي هَذَا الْبَيْتَ:

وَإِنَّ امْرَأً أَمْسَى وَأَصْبَحَ سَالِمًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا مَا جَنَى لَسَعِيدُ

- وَقَالَ نُصَيبٌ[١]:

وَما زالَ بي الكِتمانُ حَتّى كَأَنَّني برجْعِ جَوابِ السائِلي عَنكِ أَعجَمُ

لِأَسْلَمَ مِنْ قَوْلِ الْوُشَاةِ وَتَسْلَمِي سَلِمْتِ وَهَلْ حَيٌّ عَلَى النَّاسِ يَسْلَمُ

- وَلِآخَرَ[٢]:

وَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْجُو مِنَ النَّاسِ سَالِمًا وَلِلنَّاسِ قالٌ بِالظُّنُونِ وَقِيلُ

- وَسُئِلَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: مَتَى يَسْلَمُ الْإِنْسَانُ مِنَ النَّاسِ؟ فَقَالَ: إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي خَيْرٍ وَلَا شَرٍّ. قِيلَ: وَمَتَى يَكُونُ كَذَلِكَ؟ قَالَ: إِذَا مَاتَ. قَالَ: وَذَلِكَ لِأَنَّهُ وَهُوَ حَيٌّ إِمَّا أَنْ يَكُونَ خَيِّرًا فَالْأَشْرَارُ يُعَادُونَهُ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ شِرِّيرًا يَمْقُتُونَهُ. وَالْمَثَلُ سَائِرٌ فِي قَدِيمِ الدَّهْرِ: مَا لَقِيَ النَّاسُ مِنَ النَّاسِ؟!

---

[١] نصيب بن رباح: مولى عبد العزيز بن مروان. شاعر فحل، مقدم في النسيب والمدائح. كان عبداً أسود لراشد ابن عبد العزّى من كنانة، من سكان البادية. وأنشد أبياتاً بين يدي عبد العزيز بن مروان، فاشتراه وأعتقه

[٢] هو أبو العتاهية من قصيدته التي مطلعها: (أَلا هَل إِلى طولِ الحَياةِ سَبيلُ وَأَنّي وَهَذا المَوتُ لَيسَ يُقيلُ)

- أَنْشَدَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْأَدَبِ لِإِبْرَاهِيمَ بْنِ شكْلَةَ[١]:

وَمَا أَنْتَ إِلَّا ظَالِمٌ وَابْنُ ظَالِمٍ لِأَنَّكَ مِنْ أَوْلَادِ حَوَّا وَآدَمِ

وَلَوْ كُنْتَ مِثْلَ الْقِدْحِ أَلْفَيْتَ قَائِلًا أَلَا مَا لِهَذَا الْقِدْحِ لَيْسَ بِقَائِمِ

وَلَوْ كُنْتَ مِثْلَ النَّصْلِ أَلْفَيْتَ قَائِلًا أَلَا مَا لِهَذَا النَّصْلِ لَيْسَ بِصَارِمِ

- وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُولَعُ بِالْخِلَافِ أَبَدًا، حَتَّى إِنَّهُ يَرَى أَنَّ أَفْضَلَ الْأُمُورِ أَنْ لَا يُوَافِقَ أَحَدًا وَلَا يُجَامِعَهُ عَلَى رَأْيٍ وَلَا يُوَاتِيهِ عَلَى مَحَبَّةٍ، وَمَنْ كَانَ هَذَا عَادَتَهُ فَإِنَّهُ لَا يُبْصِرُ الْحَقَّ وَلَا يَنْصُرُهُ وَلَا يَعْتَقِدُهُ دِينًا وَمَذْهَبًا، إِنَّمَا يَتَعَصَّبُ لِرَأْيِهِ وَيَنْتَقِمُ لِنَفْسِهِ وَيَسْعَى فِي مَرْضَاتِهَا، حَتَّى إِنَّكَ لَوْ رُمْتَ أَنْ تَتَرَضَّاهُ وَتَوَخَّيْتَ أَنْ تُوَافِقَهُ عَلَى الرَّأْيِ الَّذِي يَدْعُوكَ إِلَيْهِ تَعَمَّدَ خِلَافَكَ فِيهِ وَلَمْ يَرْضَ بِهِ حَتَّى يَنْتَقِلَ إِلَى نَقِيضِ قَوْلِهِ الْأَوَّلِ، فَإِنْ عُدْتَ فِي ذَلِكَ إِلَى وِفَاقِهِ عَادَ إِلَى خِلَافِكَ.

فَمَنْ كَانَ بِهَذِهِ الْحَالِ فَعَلَيْكَ بِمُبَاعَدَتِهِ وَالنِّفَارِ عَنْ قُرْبِهِ؛ فَإِنَّ رِضَاهُ غَايَةٌ لَا تُدْرَكُ وَمَدَى شَأْوِهِ لَا يُلْحَقُ.

---

[١] إبراهيم بن المهدي بن أبي جعفر الهاشمي القرشي (١٦٢ - ٢٢٤ هـ): أمير عباسي بويع بالخلافة في زمن المأمون، وهو ابن الخليفة المهدي وأخو الخليفة هارون الرشيد، أشهر أولاد الخلفاء ذكراً في الغناء وأتقنهم صنعةً، ومن أعلم الناس في ذاك الوقت بالنغم والإيقاع. وسمي ابنَ شكلة نسبة إلى أمه شكلة الديلمية.

– قَالَ الزُّجَاجُ[١]: "كُنَّا عِنْدَ الْمُبَرِّدِ أَبِي الْعَبَّاسِ مُحَمَّدٍ فَوَقَفَ عَلَيْهِ رَجُلٌ فَقَالَ: أَسْأَلُكَ عَنْ مَسْأَلَةٍ مِنَ النَّحْوِ؟ قَالَ: لَا. فَقَالَ: أَخْطَأْتَ. فَقَالَ: "يَا هَذَا كَيْفَ أَكُونُ مُخْطِئًا أَوْ مُصِيبًا وَلَمْ أُجِبْكَ عَنِ الْمَسْأَلَةِ بَعْدُ؟" فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ يُعَنِّفُونَهُ فَقَالَ لَهُمْ: "خَلُّوا عَنْهُ وَلَا تَعَرَّضُوا لَهُ أَنَا أُخْبِرُكُمْ بِقِصَّتِهِ، هَذَا رَجُلٌ يُحِبُّ الْخِلَافَ وَقَدْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ وَقَصَدَنِي عَلَى أَنْ يُخَالِفَنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ أَقُولُهُ وَيُخَطِّئَنِي فِيهِ، فَسَبَقَ لِسَانُهُ بِمَا كَانَ فِي ضَمِيرِهِ".

بَاب فِي التَّحْذِيرِ مِنْ عَوَامِ النَّاسِ وَالتَّحَرُّزِ مِنْهُمْ بِسُوءِ الظَّنِّ[٢]

– عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «احْتَرِسُوا مِنَ النَّاسِ بِسُوءِ الظَّنِّ»[٣].

---

[١] أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن السرى بن سهل الزجاج البغدادي (٢٤١ – ٣١١ هـ): نحوي من العصر العباسي، «من أهل العلم بالأدب والدين المتين» كما وصفه ابن خلكان. صنف العديد من الكتب، أشهرها كتاب معاني القرآن في التفسير، وكتاب ما ينصرف وما لا ينصرف وكتاب تفسير أسماء الله الحسنى. صحب وزير الخليفة العباسي المعتضد بالله عبيد الله بن سليمان، وعلم ابنه القاسم بن عبيد الله الأدب.

[٢] المقصود بسوء الظن هنا: الحذر والاحتراس.

[٣] روي هذا مرفوعاً من حديث أنس وقال عنه الألباني: ضعيف جداً. وروي موقوفاً على مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، انظر: السنن الكبرى للبيهقي، باب الاحتياط في قراءة الكتاب والإشهاد عليه وختمه لئلا يزور عليه.

- ووَجَدَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ حَجَرًا فِيهِ مَكْتُوبٌ بِالْعِبْرَانِيَّةِ، فَبَعَثَ بِهِ إِلَى وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ فَإِذَا فِيهِ مَكْتُوبٌ: «إِذَا كَانَ الْغَدْرُ فِي النَّاسِ طباعًا فَالثِّقَةُ بِكُلِّ إِنْسَانٍ عَجْزٌ»[١].

- وسُئِلَ الْحُضَيْنُ الرَّقَاشِيُّ[٢]: مَا بَقِيَ مِنْ رَأْيِكَ؟ قَالَ: «سُوءُ الظَّنِّ».

- قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ لِمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ[٣]: "أَيُّ خِصَالِ الرَّجُلِ أَوْضَعُ لَهُ؟ قَالَ: كَثْرَةُ كَلَامِهِ، وَإِفْشَاؤُهُ سِرَّهُ، وَالثِّقَةُ بِكُلِّ أَحَدٍ".

- قَالَ سفيانُ: «لَا تَخْرُجْ مَعَ الْمَهْدِيِّ حَتَّى تَبْلُوَهُ»[٤].

- قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ رَحِمَهُ اللَّهُ: «إِنَّكَ لَنْ تَتَفَقَّهَ كُلَّ الْفِقْهِ حَتَّى تَمْقُتَ النَّاسَ فِي جَنْبِ اللَّهِ، ثُمَّ تَرْجِعَ إِلَى نَفْسِكَ فَتَجِدَهَا أَمْقَتَ إليكَ مِنْ سَائِرِ النَّاسِ»[٥].

---

[١] انظر: ذم الدنيا لابن أبي الدنيا، والزهد له، والمجالسة وجواهر العلم للدينوري.

[٢] الحضين بن الْمُنْذر السدُوسِي، وأمهم رقاش بنت ضبيعة وإِلَيْهَا ينتسبون. شهد صفين مع علي رضي الله عنه. وبقي إلى أيام معاوية، ووفد عليه. مَاتَ سنة تسع وَتِسْعين.

[٣] محمد بن كعب القرظي: مُحدث من التابعين، له روايات كثيرة عن جماعة من الصحابة، وكان عالِمًا بتفسير القرآن. قال ابن سعد: «كان ثقة، عالما، كثير الحديث، ورعًا، وهو من رجال الكتب الستة». وكانت وفاته سنة ثمان ومائة.

[٤] انظر: معجم شيوخ ابن الأعرابي.

[٥] انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر، والزهد لأحمد بن حنبل، وإبطال الحيل لابن بطة، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نُعيم.

– قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: "مُنْذُ عَرَفْتُ النَّاسَ لَمْ أَفْرَحْ بِمَدْحِهِمْ وَلَمْ أَحْزَنْ لِذَمِّهِمْ. قَالُوا: كَيْفَ ذَلِكَ يَا أَبَا يَحْيَى؟ قَالَ: إِنِّي لَا أَرَى إِلَّا مَادِحًا مُفْرِطًا أَوْ ذَامًّا مُفَرِّطًا"[١].

– قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ شَمَّاسٍ[٢]: قَالَ لِي حَفْصُ بْنُ حُمَيْدٍ الْأَكَّافُ[٣]: «يَا إِبْرَاهِيمُ صَحِبْتُ النَّاسَ خَمْسِينَ سَنَةً فَلَمْ أَجِدْ أَحَدًا مِنْهُمْ سَتَرَ لِي عَوْرَةً وَلَا وَصَلَنِي إِذَا قَطَعْتُهُ وَلَا أَمِنْتُهُ إِذَا غَضِبَ، فَالِاشْتِغَالُ بِهَؤُلَاءِ حُمْقٌ كَبِيرٌ»[٤].

– أَنْشَدَ ابْنُ الْأَنْبَارِيِّ[٥]:

لَيْسَ لِلنَّاسِ وَفَاءٌ ... لَا وَلَا بِالنَّاسِ خَيْرُ
قَدْ بَلَوْنَا النَّاسَ فَالنَّا ... سُ كَسِيرٌ وَعُوَيِرُ[٦]

---

[١] انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر، وتاريخ الإسلام للذهبي، والزهد الكبير للبيهقي، وحلية الأولياء وطبقات الأصفياء لأبي نُعيم.

[٢] إبراهيم بن شماس الغازي أبو إسحاق السمرقندي نزيل بغداد ثقة مات سنة إحدى وعشرين ومائتين.

[٣] حَفْص بن حُميد الأكّافُ العابد : من أهل مرو ، يروي عن ابن المبارك ، روى عنه أهل بلده .

[٤] نسب هذا الخبر أبو نعيم في الحلية إلى وهيب بن الورد.

[٥] ابن الأنباري أبو بكر محمد بن القاسم (٢٧١ – ٣٢٨هـ) المقرئ النحوي.

[٦] في مجمع الأمثال للميداني: " كُسَيْرٌ وَعُوَيْرٌ وكلٌّ غَيْرٍ خَيْرٌ" قَال المفضل: أولُ من قَال ذلك أَمَامة بنت نُشْبَة وكان تَزَوَّجَهَا رجل من غطفان أعور يُقَال له خلف بن رواحة، فمكثت عنده زماناً

وَأَنْشَدَ بَعْضُهُمْ لِأَبِي الْعَبَّاسِ النَّاشِي[١]:

خَبَرْتُ الْأَنَامَ فَمَا إِنْ وَجَدْتُ عَلَى مِحْنَةٍ مَنْ يُسَاوِي نَقِيرَا
فَلَمَّا تَبَيَّنْتُ أَنِّيَ الْتَمَسْتُ مِنَ النَّاسِ شَيْئًا بَعِيدًا عَسِيرَا
فَزِعْتُ إِلَى الْإِنْسِ بِالِانْفِرَادِ فَكَانَ التَّقَلُّلُ مِنْهُمْ كَثِيرَا

- ولِمَنْصُورِ بْنُ إِسْمَاعِيلَ الْفَقِيهِ:

إِنَّمَا النَّاسُ فَزْعَةٌ لَيْسَ فِي النَّاسِ مَفْزَعُ
ذُمَّ مَنْ شِئْتَ مِنْهُمُ فَهُوَ لِلذَّمِّ مَوْضِعُ

حتى ولدت له خمسة، ثم نَشَزَت عليه ولم تصبر معه، فطلقها، ثم إن أباها وأخاها خَرَجَا في سفر لهما، فلقيهما رجل من بني سُلَيم يُقَال له حارثة بن مرة، فخطب أمامة، وأحسن العطية، فزوَّجَاها منه، وكان أعرجَ مكسورَ الفخذ، فلما دخلت عليه رأته مَحْطُوم الفخذ فَقَالت: كُسَيرٌ وعُوَيرٌ وكل غيرٍ خيرٌ، فأرسلتها مَثَلاً. يضرب في الشَيء يُكْرَه ويُذَم من وجهين لا خير فيه البتة.

[١] عبد الله بن محمد، الناشئ الأنباري، أبو العباس: شاعر مجيد، يعد في طبقة ابن الرومي والبحتري. أصله من الأنبار. أقام ببغداد مدة طويلة. وخرج إلى مصر، فسكنها وتوفي بها. وكان يقال له: ابن شرشير. وهو من العلماء بالأدب والدين والمنطق.

- قَالَ عَبْثَر أَبُو زَبِيْدٍ[١]: قُلْتُ لِسُفْيَانَ[٢]: "يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، دُلَّنِي عَلَى رَجُلٍ أَجْلِسُ إِلَيْهِ. قَالَ: «تِلْكَ ضَالَّةٌ لَا تُوجَدُ»[٣].

- عَنْ يُونُسَ بْنِ عُبَيْدٍ قَالَ: "شَيْئَانِ لَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَعَزَّ مِنْهُمَا لَا يَزْدَادَانِ إِلَّا قِلَّةً: أَخٌ فِي اللَّهِ يُسْكَنُ إِلَيْهِ، وَدِرْهَمٌ حَلَالٌ يُوضَعُ فِي حَقٍّ"[٤].

---

[١] أبو زبيد عبثر بن القاسم الزبيدي الكوفي: من الأئمة الثقات، أخذ عنه كثير من علماء الحديث، توفي سنة ثمان وسبعين ومائة.

[٢] سفيان الثوري.

[٣] انظر: مسند ابن الجعد، وطبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها لأبي الشيخ الأصبهاني، وحلية الأولياء لأبي نعيم.

[٤] انظر: الآداب الشرعية والمنح المرعية لابن مفلح، وتلخيص المتشابه في الرسم للخطيب البغدادي، وحلية الأولياء لأبي نعيم.

- قَالَ أَبُوعُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ[١]: «كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ أَمْرَ، هَذِهِ الْأُمَّةِ سَيَرْجِعُ إِلَى أَنْ يكُونَ إِخْوَانُ الْعَلَانِيَةِ أَعْدَاءَ السِّرِّ»[٢].

---

[١] أبو عبيدة عامر بن عبد الله بن الجراح الفهري القرشي (٤٠ ق هـ- ١٨هـ): صحابي وقائد مسلم، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، ومن السابقين الأولين إلى الإسلام، لقَّبَهُ النّبيُّ محمدٌ بأمين الأمة حيث قال: «إن لكل أمّة أميناً، وإن أميننا أيتها الأمة: أبو عبيدة بن الجراح». وقال له أبو بكر الصديق يوم سقيفة بني ساعدة: «قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين: عمر بن الخطاب، وأبا عبيدة بن الجراح». مات في طاعون عمواس.

[٢] جزء من حديث طويل أخرجه الطبراني في الكبير، في ترجمة معاذ، قال: عن محَمَّد بْن سُوقَةَ قَالَ: أَتَيْتُ نُعَيْمَ بْنَ أَبِي هِنْدٍ، فَأَخْرَجَ إِلَيَّ صَحِيفَةً، فَإِذَا فِيهَا: مِنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ إِلَى عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: سَلَامٌ عَلَيْكَ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّا عَهِدْنَاكَ وَأَمْرُ نَفْسِكَ لَكَ مُهِمٌّ، فَأَصْبَحَتْ قَدْ وَلِّيتَ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَحْمَرِهَا وَأَسْوَدِهَا، يَجْلِسُ بَيْنَ يَدَيْكَ الْوَضِيعُ وَالشَّرِيفُ، وَالْعَدُوُّ وَالصَّدِيقُ، وَلِكُلٍّ حِصَّتُهُ مِنَ الْعَدْلِ، فَانْظُرْ كَيْفَ أَنْتَ عِنْدَ ذَلِكَ يَا عُمَرُ، فَإِنَّا نُحَذِّرُكَ يَوْمًا تَعْنِي فِيهِ الْوُجُوهُ، وَتَجِفُّ فِيهِ الْقُلُوبُ، وَتَنْقَطِعُ فِيهِ الْحُجَجُ لِحَجَّةِ مَلِكٍ قَدْ قَهَرَهُمْ بِجَبَرُوتِهِ، وَالْخَلْقُ دَاخِرُونَ لَهُ يَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ، وَإِنَّا كُنَّا نَتَحَدَّثُ أَنَّ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي آخِرِ زَمَانِهَا سَيَرْجِعُ إِلَى أَنْ يَكُونُوا إِخْوَانَ الْعَلَانِيَةِ أَعْدَاءَ السَّرِيرَةِ، وَإِنَّا نَعُوذُ بِاللهِ أَنْ يَنْزِلَ كِتَابُنَا سِوَى الْمَنْزِلِ الَّذِي نَزَلَ مِنْ قُلُوبِنَا، فَإِنَّا إِنَّمَا كَتَبْنَا بِهِ نَصِيحَةً لَكَ، وَالسَّلَامُ عَلَيْكَ، فَكَتَبَ إِلَيْهِمَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: " مِنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ إِلَى أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهما، سَلَامٌ عَلَيْكُمَا، أَمَّا بَعْدُ، أَتَانِي كِتَابُكُمَا تَذْكُرَانِ أَنَّكُمَا عَهِدْتُمَانِي وَأَمْرُ نَفْسِي لِي مُهِمٌّ، فَأَصْبَحْتُ قَدْ وُلِّيتُ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَحْمَرِهَا وَأَسْوَدِهَا، يَجْلِسُ بَيْنَ يَدَيَّ الشَّرِيفُ وَالْوَضِيعُ وَالْعَدُوُّ وَالصَّدِيقُ، وَلِكُلٍّ حِصَّةٌ مِنَ الْعَدْلِ، كَتَبْتُمَا: فَانْظُرْ كَيْفَ أَنْتَ عِنْدَ ذَلِكَ يَا عُمَرُ، وَإِنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ لَهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ إِلَّا بِاللهِ، وَكَتَبْتُمَا تُحَذِّرَانِي مَا حُذِّرَتْ مِنْهُ الْأُمَمُ قَبْلَنَا وَقَدِيمًا، وَإِنَّ اخْتِلَافَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِآجَالِ النَّاسِ يُقَرِّبَانِ كُلَّ بَعِيدٍ، وَيَأْتِيَانِ بِكُلِّ جَدِيدٍ، وَيَأْتِيَانِ بِكُلِّ مَوْعُودٍ حَتَّى يَصِيرَ النَّاسُ إِلَى مَنَازِلِهِمْ مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ،

- ولِمُحَمَّدِ بْنِ حَازِمٍ[١]:

إِخْوَانُ هَذَا الزَّمَانِ كُلُّهُمُ ... إِخْوَانُ غَدْرٍ عَلَيْهِ قَدْ جُبِلُوا
أَخُوهُمُ الْمُسْتَحِقُّ وَصْلَهُمُ ... مَنْ شَرِبُوا عِنْدَهُ وَمَنْ أَكَلُوا
طَوَوْا ثِيَابَ الْوِصَالِ بَيْنَهُمُ ... وَصَارَ ثَوْبُ الرِّيَاءِ يُبْتَذَلُ
وَلَيْسَ فِيمَا رَأَيْتُ بَيْنَهُمُ ... وَبَيْنَ مَنْ كَانَ مُعْدِمًا عَمَلُ
فَاحْفَظْ مِنَ النَّاسِ إِنْ ظَفَرْتَ بِهِ ... مَنْ لَمْ يَكُنْ فِي إِخَائِهِ دَغَلُ

- كَانَ أَعْرَابِيٌّ بِالْكُوفَةِ وَكَانَ لَهُ صَدِيقٌ فَكَانَ يُظْهِرُ لَهُ مَوَدَّةً وَنَصِيحَةً فَاتَّخَذَهُ الْأَعْرَابِيُّ مِنْ عُدَدِهِ لِلنَّوَائِبِ فَأَتَاهُ فَوَجَدَهُ بَعِيدًا مِمَّا كَانَ يُظْهِرُ لَهُ؛ فَأَنْشَأَ يَقُولُ:

إِذَا كَانَ وُدُّ الْمَرْءِ لَيْسَ بِزَائِدٍ ... عَلَى مَرْحَبًا أَوْ كَيْفَ أَنْتَ وَحَالُكَا
وَلَمْ يَكُ إِلَّا كَاشِرًا أَوْ مُحَدِّثًا ... فَأُفٍّ لِوُدٍّ لَيْسَ إِلَّا كَذَلِكَا
لِسَانُكَ مَعْسُولٌ وَنَفْسُكَ بَشَّةٌ ... وَعِنْدَ الثُّرَيَّا مِنْ صَدِيقِكَ مَالُكَا

كَتَبْتُمَا تُحَذِّرَانِي أَنَّ أَمْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَيَرْجِعُ فِي آخِرِ زَمَانِهَا إِلَى أَنْ يَكُونُوا إِخْوَانَ الْعَلَانِيَةِ أَعْدَاءَ السَّرِيرَةِ، وَلَسْتُمْ بِأُولَئِكَ وَلَيْسَ هَذَا بِزَمَانِ ذَلِكَ، وَذَلِكَ زَمَانٌ تَظْهَرُ فِيهِ الرَّغْبَةُ وَالرَّهْبَةُ، يَكُونُ رَغْبَةُ بَعْضِ النَّاسِ إِلَى بَعْضٍ لِصَلَاحِ دُنْيَاهُمْ، كَتَبْتُمَا تَعُوذَانِ بِاللهِ أَنْ أُنْزِلَ كِتَابَكُمَا سِوَى الْمَنْزِلِ الَّذِي نَزَلَ مِنْ قُلُوبِكُمَا، وَأَنَّكُمَا كَتَبْتُمَا بِهِ نَصِيحَةً لِي، وَقَدْ صَدَقْتُمَا، فَلَا تَدَعَا الْكِتَابَ إِلَيَّ فَإِنَّهُ لَا غِنَى بِي عَنْكُمَا وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمَا".

[١] محمد بن حازم بن عمرو: شاعر مطبوع، كثير الهجاء، لم يمدح من الخلفاء غير المأمون العباسي. ولد عام ١١٣هـ ونشأ في البصرة وسكن بغداد ومات فيها عام ١٩٥هـ.

فَأَنْتَ إِذَا هَمَّتْ يَمِينُكَ مَرَّةً لِتَفْعَلَ خَيْرًا قَاتَلَتْهَا شِمَالُكَا

- ولِمُحَمَّدِ بْنِ حَازِمٍ:

وَإِنَّ مِنَ الْإِخْوَانِ إِخْوَانَ كِشْرَةٍ[١] وَإِخْوَانَ حَيَّاكَ الْإِلَهُ وَمَرْحَبَا
وَإِخْوَانَ كَيْفَ الْحَالُ والبالُ كُلُّهُ وَذَلِكَ لَا يَسْوِي نَقِيرًا مُتَرَّبَا
جَوَادٌ إِذَا اسْتَغْنَيْتَ عَنْهُ بِمَالِهِ يَقُولُ إِلَيَّ الْقَرْضَ وَالْقَرْضَ فَاطْلُبَا
فَإِنْ أَنْتَ حَاوَلْتَ الَّذِي خَلْفَ ظَهْرِهِ وَجَدْتَ الثُّرَيَّا مِنْهُ فِي الْبُعْدِ أَقْرَبَا

- وَأَنْشَدَنِي الْحَسَنُ بْنُ عَبْدِ الرَّحِيمِ[٢]:

أَنْتَ ما اسْتَغْنَيْتَ عَنْ صَا حِبِكَ الدَّهْرَ أَخُوهُ
فَإِذَا احْتَجْتَ إِلَيْهِ سَاعَةً مَجَّكَ فُوهُ
لَوْ رَأَى النَّاسُ نَبِيًّا سَائِلًا مَا وَصَلُوهُ

- وَأَنْشَدَنِي ابْنُ أَبِي الدِّقِّ:

جَدُّكَ يَسْقِيكَ بِصَافٍ أَوْ كَدِرْ النَّاسُ إِخْوَانُكَ مَا لَمْ تَفْتَقِرْ

---

[١] في المطبوعة: كثرة، بالثاء، والتصويب بالشين من الإبانة في اللغة العربية للصحاري، وروى البيت وقال قبله: الكشر: بُدُو الأسنان عند التبسم، يقال: كشر عن أسنانه إذا أبداها في غير ضحك، والفاعل لذلك كأنه ينافق صاحبه؛ قال المثقب العبدي: إن شر الناس من يكشر لي ... حين يلقاني وإن غبت شتم.

[٢] الأبيات في ديوان أبي العتاهية من قصيدة مطلعها: (يُسلِمُ المرءَ أَخوهُ لِلمَنايا وَأَبوهُ).

- ولِأَبِي هَمْهَمَةَ مَوْلَى الْمُزَنِيِّينَ[١]:

إِخْوَةٌ مَا حَضَرْتُ سُرُّوا بِزَوْرِي ... فَإِذَا غِبْتُ فَالسِّبَاعُ الْجِيَاعُ
بَايَنُونِي حَتَّى إِذَا عَايَنُونِي ... حَانَ مِنْهُمْ تَضَاؤُلٌ وَاخْتِشَاعُ
لَا لِسُوءٍ مِنَ الْبَلَاءِ وَلَكِنْ ... ظَهَرَتْ نِعْمَةٌ عَلَيَّ فَهَاعُوا[٢]
فَهُمْ يَهْمِزُونَ مِنِّي قَنَاةً ... لَيْسَ يَأْلُونَ صَدْعَهَا مَا اسْتَطَاعُوا
مَا كَذَا يَفْعَلُ الْكِرَامُ وَلَكِنْ ... هَكَذَا يَفْعَلُ اللِّئَامُ الْوِضَاعُ

- ولِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْمُعْتَزِّ[٣]:

وَأَبْعَدَنِي عَنِ الْإِخْوَانِ عِلْمِي ... بِهِمْ فَبَقِيتُ مَهْجُورَ النَّوَاحِي
فَكَمْ ذَمٍّ لَهُمْ فِي جَنْبِ مَدْحٍ ... وَجِدٍّ تَحْتَ أَثْنَاءِ الْمُزَاحِ

---

[١] انظر: الأخبار الموفقيات للزبير بن بكار.

[٢] هَاعَ: قَاء من غَيْر تكلُّف.

[٣] عبد الله بن المعتز بالله: أحد خلفاء الدولة العباسية، وكنيته أبو العباس، ولد عام (٢٤٧ هـ)، في بغداد، وكان أديباً وشاعراً ويسمى خليفة يوم وليلة، حيث آلت الخلافة العباسية إليه، ولقب بالمرتضى بالله، ولم يلبث إلا يوماً واحداً حتى هجم عليه غلمان المقتدر بالله وقتلوه في عام (٢٩٦ هـ)، وأخذ الخلافة من بعده المقتدر بالله. وهو مؤسس علم البديع.

- أَنْشَدُونَا لِابْنِ لَنْكَكٍ[١]:

مَضَى الْأَحْرَارُ وَانْقَرَضُوا جَمِيعًا وَخَلَّفَنِي الزَّمَانُ عَلَى عُلُوجِ[٢]
وَقَالُوا قَدْ لَزِمْتَ الْبَيْتَ جِدًّا فَقُلْتُ لِفَقْدِ فَائِدَةِ الْخُرُوجِ

- أنشدَ سُلَيْمَانُ بْنُ مُوسَى[٣]:

حَالَ عَمَّا عَهِدْتُ رَيْبُ الزَّمَانِ وَاسْتَحَالَتْ مَوَدَّةُ الْخِلَّانِ
وَاسْتَوَى النَّاسُ فِي الْخَدِيعَةِ وَالْمَكْـ ـرِ فَكُلٌّ لِشانِهِ اثْنَانِ
قُلْ لِمَنْ يَبْتَغِي السَّلَامَةَ وَالصِّحَّـ ـةَ: عِشْ وَاحِدًا بِلَا إِخْوَانِ
فَلَعَمْرِي لَئِنْ بَلَوْتَ أَصَحَّ النَّا سِ وُدًّا وَجَدْتَ ذَا أَلْوَانِ

- أَنْشَدَ أَعْرَابِيٌّ مِنْ بَنِي أَسَدٍ[٤]:

أَلَا ذَهَبَ التَّذَمُّمُ وَالْوَفَاءُ وَبَادَ رِجَالُهُ وَبَقَى الْغُثَاءُ

---

[١] محمد بن محمد بن جعفر البصري، أبو الحسن، الصاحب ابن لنكك: شاعر، وصفه الثعالبي بفرد البصرة وصدر أدبائها. وقال: أكثر شعره ملح وطرف، جلها في شكوى الزمان وأهله وهجاء شعراء عصره. وهو صاحب البيت المعروف: (نعيب زماننا والعيب فينا ولو نطق الزمان إذاً هجانا).

[٢] جمع علج: وهو الغليظ الجافي.

[٣] قال ابن عساكر في تاريخ دمشق: قال سليمان بن موسى: لقيت بشر الحافي ومعه شباب فقلت من هؤلاء الشباب؟ فأشار إلي بيده يريد أنهم أصحاب دعة، فقلت له: سمعتَ قول الشاعر في مثلهم؟ فقال وما قال الشاعر؟ قلت: قال الشاعر... الأبيات.

[٤] انظر: العزلة والانفراد لابن أبي الدنيا، فصل من كلام وهب بن منبه في العزلة.

وَأَسْلَمَنِي الزَّمَانُ إِلَى أُنَاسٍ كَأَنَّهُمُ الذِّئَابُ لَهُمْ عُوَاءُ
إِذَا مَا جِئْتُهُمْ يَتَدَافَعُونِي كَأَنِّيَ أَجْرَبٌ أَعْدَاهُ دَاءُ
صَدِيقٌ لِي إِذَا اسْتَغْنَيْتُ عَنْهُمْ وَأَعْدَاءٌ إِذَا نَزَلَ الْبَلَاءُ
أَقُولُ وَلَا أُلَامُ عَلَى مَقَالِي عَلَى الْإِخْوَانِ كُلُّهُمُ الْعَفَاءُ

وهَذَا قَوْلُ بَشِعٌ وَكَلَامٌ جَافٍ، وَالْأُخُوَّةُ مَصُونَةٌ عَنْ مِثْلِ هَذِهِ الصِّفَاتِ. وَحَاشَا لِلْإِخَاءِ أَنْ يَكُونَ عَلَيْهِ الْعَفَاءُ، وَإِنَّمَا غَلَطَ الْقَوْمُ بِالِاسْمِ فَنَحَلُوهُ غَيْرَ أَهْلِهِ وَبَذَلُوهُ غَيْرَ مُسْتَحِقِّهِ، فَسَمَّوا الْمَعَارِفَ إِخْوَانًا ثُمَّ أَنْشَأُوا يَذُمُّونَ الْأُخُوَّةَ وَيَعِيبُونَ الصَّدَاقَةَ مِنْ أَجْلِهِمْ، وَهَذَا جَوْرٌ وَعُدْوَانٌ.

- وَشَبِيهٌ بِهِ مَا أَنْشَدَ الزُّبَيْرُ بْنُ بَكَّارٍ:

لَا يُضِيعُ الْأَمِينُ سِرًّا وَلَكِنْ رُبَّمَا يُحْسَبُ الْمُضِيعُ أَمِينَا

- وَأَنْشَدَنِي آخَرُ فِي مَعْنَاهُ:

إِذَا مَا كُنْتَ مُتَّخِذًا خَلِيلًا فَلَا تَأْمَنْ خَلِيلَكَ أَنْ يَخُونَا
فَإِنَّكَ لَمْ يَخُنْكَ أَخٌ أَمِينٌ وَلَكِنْ قَلَّ مَنْ تَلْقَى أَمِينَا

وَكَيْفَ يَكُونُ لَكَ صَدِيقًا مَنْ لَا يَصْدُقُكَ لِسَانُهُ عَنْ قَلْبِهِ، وَلَا عِيَانُهُ عَنْ غَيْبِهِ، إِذَا رَآكَ قَالَ: أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَكَ وَهُوَ يَتَمَنَّى فَنَاءَ عُمُرِكَ وَقِصَرَ أَيَّامِ حَيَاتِكَ. وَأَكْرَمَكَ اللَّهُ وَهُوَ يُرِيدُ هَوَانَكَ وَهَلَاكَكَ، وَسَلَامُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَهُوَ يَتَمَنَّى أَنْ

يُسلِمَكَ اللَّهُ وَلَا يَصُونَكَ. وَهَلْ يَكُونُ مَنْ هَذِا صِفَتُهُ أَخًا أَوْ صَدِيقًا؟ لَا وَحَقِّكَ، إِنَّهُ أَعْدَى الْأَعْدَاءِ وَأَوْلَى النَّاسِ بِالْإِبْعَادِ وَالْإِقْصَاءِ.

- ولِعَلِيِّ بْنِ الْجَهْمِ[١]:

تَوَقَّ النَّاسَ يَا ابْنَ أَبِي وَأُمِّي ... فَهُمْ تَبَعُ الْمَخَافَةِ وَالرَّجَاءِ

أَلَمْ تَرَ مُظْهِرِينَ عَلَيَّ غِشًّا ... وَهُم بِالأَمسِ إِخْوَانُ الصَّفَاءِ

بُلِيتُ بِنَكْبَةٍ فَغَدَوْا وَرَاحُوا ... عَلَيَّ أَشَدَّ أَسْبَابِ الْبَلاءِ

أَبَتْ أَحْطَارُهُمْ أَنْ يَنْصُرُونِي ... بِمَالٍ أَوْ بِجَاهٍ أَوْ بِرَائِي

وَخَافُوا أَنْ يُقَالَ لَهُمْ عَذَلْتُمْ ... صَدِيقًا فَادَّعُوا قِدَمَ الْجَفَاءِ[٢]

---

[١] علي بن الجهم بن بدر: شاعر، رقيق الشعر، أديب، من أهل بغداد. كان معاصراً لأبي تمام، وخُص بالمتوكل العباسي. ثم غضب عليه المتوكل، فنفاه إلى خراسان، فأقام مدة. وانتقل إلى حلب، ثم خرج منها بجماعة يريد الغزو، فاعترضه فرسان من بني كلب، فقاتلهم، وخرج ومات من جراحه.

[٢] من قصيدة مِنْ قَصِيْدَةٍ كَتَبَ بِهَا إِلَى أَخِيْهِ مِنَ الحَبْسِ وَكَانَ المُتَوَكِّلُ حَبَسَهُ أَوَّلُهَا: (تَوَكَّلنا عَلى رَبِّ السَماءِ وَسَلَّمنا لِأَسبابِ القَضاءِ).

- ولِابْنِ الرُّومِيِّ[١]:

رَأَيْتُ الْأَخِلَّاءَ فِي دَهْرِنَا ... بِظَهْرِ الْمَوَدَّةِ إِلَّا قَلِيلَا
بُطَاءً عَنِ الْمُبْتَغِي نَصْرَهَمْ ... إِلَى أَنْ يُغَادَرَ شِلْوًا أَكِيلَا
وَإِنْ حَشَدُوا لِامْرِئٍ مَرَّةً ... أَدَلُّوا عَلَيْهِ دَلَالًا ثَقِيلَا
فَلَا تَفْزَعَنَّ إِلَى نَصْرِهِمْ ... وَعِشْ عَيْشَ حُرٍّ عَزِيزًا ذَلِيلَا

- وَلَهُ فِي هَذَا الْمَعْنَى أَيْضًا[٢]:

أرى الضيمَ ذُلّاً على أنني ... أرى النصرَ مِنْ صاحبِ الْمَنِّ رِقًّا
فلا تسألِ النصرَ إلا امرأً ... تراهُ بنصرِكَ يَقضيكَ حَقًّا
لَسَاءَ اتقاؤكَ إمّا اتقَيْـ ... ـتَ أنْ تُستضامَ بأنْ تُسْتَرَقًّا
فكن للمظالمِ حمّالةً ... وعِشْ عيشَ حرٍّ مُلقًّى مُوقًّى

---

[١] ابن الرومي علي بن العباس بن جريج: شاعر كبير، من طبقة بشار والمتنبي. روميّ الأصل، كان جده من موالي بني العباس. ولد ونشأ ببغداد، ومات فيها مسموماً، قيل: دس له السمَّ القاسم بن عبيد الله (وزير المعتضد) وكان ابن الرومي قد هجاه. قال المرزباني: لا أعلم أنه مدح أحداً من رئيس أو مرؤوس، إلا وعاد إليه فهجاه.

[٢] في ديوانه.

- قِيلَ لِأَبِي الْعَتَاهِيَةِ[١] وَهُوَ يَمُوتُ: مَا تَشْتَهِي؟ قَالَ: أَشْتَهِي أَنْ يَكُونَ زَلْزَلُ عَنْ يَمِينِي وَمُخَارِقٌ[٢] عَنْ يَسَارِي، فِي حِجْرِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عُودٌ يَدْخُلَان فِي وَتَرٍ وَاحِدٍ وَيُغَنِّيَانِي بِهَذَا الْبَيْتِ[٣]:

سَيُعْرَضُ عَنْ ذِكْرِي وَتُنْسَى مَوَدَّتِي وَيَحْدُثُ بَعْدِي لِلْخَلِيلِ خَلِيلُ

- أَنْشَدَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحسينِ اللَّخْمِيُّ[٤]:

دَهْرُنَا دَهْرُ افْتِرَاقِ لَيْسَ ذَا دَهْرَ تَلَاقِ
قَلَّ مَنْ يَلْقَاكَ إِلَّا بِسَلَامٍ وَاعْتِنَاقِ

---

[١] إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني الشهير بأبي العتاهية (١٣٠ - ٢١١هـ): شاعر مكثر، سريع الخاطر، في شعره إبداع. كان ينظم المئة والمئة والخمسين بيتاً في اليوم، حتى لم يكن للإحاطة بجميع شعره من سبيل. وهو يعد من مقدمي المولدين، من طبقة بشار وأبي نواس وأمثالهما.

[٢] زلزل ومخارق من المغنّين وفيهما وفي ابن شكلة يقول الشاعر دعبل الخزاعي:

نصر ابن شكلةَ بالعراق وأهله * فهفا إليه كلُّ أطلس مائقِ
إن كان إبراهيمُ مضطلعاً بها * فلتصلحنْ من بعدِه لمخارقِ
ولتصلحنْ من بعد ذاك لزلزلٍ * ولتصلحنْ من بعدِه للمارقِ

[٣] البيت من قصيدته التي أولها: (أَلا هَل إِلى طولِ الحَياةِ سَبيلُ وَأَنّي وَهَذا الموتُ لَيسَ يُقيلُ).

[٤] مُحَمَّد بْن الحسين بْن حميد بْن الربيع بن مالك، أبو الطيب اللخمي الكوفي: سكن بغداد وحدَّث بِهَا عَن أَبِي سَعِيد الأشج وهو صدوق ثقة. وُلِد سَنَةَ أَرْبَعِينَ وَمِائَتَيْنِ ومات سنة ثماني عشرة وثلاثمائة. وحمل إلى الكوفة.

فَإِذَا وَلَّيْتَ عَنْهُ بِنْتَ مِنْهُ بِطَلَاقِ

- أَنْشَدَ مُحَمَّدُ بْنُ خَلَفٍ التَّيْمِيُّ[١]:

وَلَيْسَ أَخِي مَنْ وَدَّنِي بِلِسَانِهِ وَلَكِنَّ أَخِي مَنْ وَدَّنِي فِي النَّوَائِبِ
وَمَنْ مَالُهُ مَالِي إِذَا كُنْتُ مُعْدِمًا وَمَالِي لَهُ إِنْ عَضَّ دَهْرٌ بِغَارِبِ
فَلَا تَحْمَدَنْ عِنْدَ الرَّخَاءِ مُؤَاخِيًا فَقَدْ يُنْكِرُ الْإِخْوَانُ عِنْدَ الْمَصَائِبِ

- قَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ النِّبَاجِيُّ[٢]:

ارْفُضِ النَّاسَ فَكُلٌّ مَشْغَلَهْ قَدْ بَخِلَ النَّاسُ بِمِثْلِ الْخَرْدَلَهْ
لَا تَسْأَلِ النَّاسَ وَسَلْ مَنْ أَنْتَ لَهْ

- أَنْشَدَ الْخُزَيْمِيُّ:

اللَّهُ يَغْضَبُ إِنْ تَرَكْتَ سُؤَالَهُ وَبُنَيُّ آدَمَ حِينَ يُسْأَلُ يَغْضَبُ

- قَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ: «يَلُومُنَا النَّاسُ أَنْ لَا نَقْبَلَ مِنْهُمْ، وَيُوشِكُ أَنْ نَقْبَلَ مِنْهُمْ فَنَهُونَ عَلَيْهِمْ، وَيُوشِكُ أَنْ نَسْأَلَهُمْ فَلَا يُعْطُونَنَا».

---

[١] لرجل من خزاعة.

[٢] النِّبَاجِيُّ أَبُو عَبْدِ اللهِ سَعِيْدُ بنُ بُرَيْدٍ الصُّوفِيُّ القُدْوَةُ، العَابِدُ، الرَّبَّانِيُّ، لَهُ كَلاَمٌ شَرِيْفٌ، وَمَوَاعِظُ، كَانَ مُجَابَ الدَّعْوَةِ، وَلَهُ آيَاتٌ وَكَرَامَاتٌ، كَانَ فِي سَفَرٍ، فَأَصَابَ رَجُلٌ عَائِنٌ نَاقَتَه بِالعَيْنِ، فَجَاءهُ النِّبَاجِيُّ، وَدَعَا عَلَيْهِ بِأَلْفَاظٍ، فَخَرَجَتْ حَدَقَتَا العَائِنِ، وَنَشَطَتِ النَّاقَةُ.

– عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ الْأَغْنِيَاءَ لَا يُعْطُونَكَ بِقَدْرِ مَا يُغْنُونَكَ، إِنَّمَا يُعْطُونَكَ بِقَدْرِ مَا يَفْضَحُونَكَ، هَا هُوَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُوصِي ابْنَ عَبَّاسٍ فَيَقُولُ لَهُ: «إِذَا سَأَلتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ» لِأَنَّ عِزَّةَ الْإِسْلَامِ تَأْبَى الذِّلَّةَ وَالْخُضُوعَ لِغَيْرِ الْخَالِقِ الَّذِي لَهُ الْمِنَّةُ؛ فَإِنَّ سُؤَالَ شَخْصٍ مِثْلِكَ يَسُوقُكَ إِلَى الْخُمُولِ وَاعْتِبَارِ الْمَسْئُولِ إِمَّا أَعْلَى مِنَ الْبَشَرِيَّةِ وَهَذَا يُخَالِفُ التَّوْحِيدَ الصِّرْفَ، وَإِمَّا أَنَّهُ فِي مَرْتَبَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ فَيَكُونُ السَّائِلُ أَحَطَّ قَدْرًا مِنَ الْإِنْسَانِ، مَعَ أَنَّهُ تَعَالَى خَلَقَهُ بَشَرًا سَوِيًّا.

بَاب فِي فَسَادِ الزَّمَانِ وَأَهْلِهِ

– عَنْ مُسْتَوْرِدٍ الْفِهْرِيِّ[١] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «يَذْهَبُ الصَّالِحُونَ الْأَوَّلَ فَالْأَوَّلَ وَتَبْقَى حُثَالَةٌ كَحُثَالَةِ الشَّعِيرِ لَا يُبَالِي اللَّهُ تَعَالَى بِهِمْ»[٢].

وحُثَالَةُ الشَّعِيرِ رَذَالَتُهُ وَمَا لَا خَيْرَ فِيهِ مِنْهُ، يَقُولُ: كَمَا لَا يُؤْكَلُ مَا يَبْقَى مِنْ حُثَالَةِ الشَّعِيرِ، كَذَلِكَ لَا يُصْحَبُ مَنْ يَبْقَى مِنَ النَّاسِ فِي آخِرِ الزَّمَانِ.

---

[١] المستورد بن شداد الفهري: صحابي قبض النبي صلى الله عليه وسلم وهو غلام ولكنه سمع ووعى منه. توفي رضي الله عنه سنة ٤٥ للهجره قيل في الإسكندرية وقيل بمصر.

[٢] رواه البخاري عن قيس بن أبي حازم عن مرداس الأسلمي.

- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: "ذَهَبَ النَّاسُ وَبَقِيَ النَّسْنَاسُ. فَقِيلَ لَهُ: مَا النَّسْنَاسُ؟ قَالَ: يُشْبِهُونَ النَّاسَ وَلَيْسُوا بِنَاسٍ[١]"[٢].

- عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «النَّاسُ بِزَمَانِهِمْ أَشْبَهُ مِنْهُمْ بِآبَائِهِمْ».

- عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: "قَرَأْتُ كِتَابَ دَانْيَالَ فَإِذَا فِيهِ: يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ لَا يَرَى حَكِيمٌ فِيهِ قُرَّةَ عَيْنٍ".

- عَنِ الشَّعْبِيِّ قَالَ: «مَا بَكَيْتُ مِنْ زَمَانٍ إِلَّا بَكَيْتُ عَلَيْهِ».

- عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ الْوَلَدُ فِيهِ غَيْظًا، وَيَكُونُ الْمَطَرُ قَيْظًا، وَيَفِيضُ فِيهِ اللِّئَامُ فَيْضًا، وَيَغِيضُ الْكِرَامُ فِيهِ غَيْضًا».

- قَالَ حُذَيْفَةُ[٣]: «مَا أُبَالِي بَعْدَ سَبْعِينَ سَنَةً لَوْ دَهْدَهْتُ حَجَرًا مِنْ فَوْقِ مَسْجِدِكُمْ فَقَتَلْتُ مِنْكُمْ عَشَرَةً»[٤].

---

[١] يعني ليسوا بناس كاملين.

[٢] انظر: معجم شيوخ ابن الأعرابي، والزهد لأبي داود، وسير أعلام النبلاء للذهبي.

[٣] حذيفة بن اليمان كاتم سر رسول الله صلى الله عليه وسلم.

[٤] انظر مصنف ابن أبي شيبة باب من كره الخروج في الفتنة. والحديث ضعيف.

- قَالَ جَعْفَرُ بْنُ مُحَمَّدٍ: «إِذَا كَانَتِ السَّنَةُ ثَلَاثِينَ وَمِائَةً فَخَيْرُ أَوْلَادِكُمُ الْبَنَاتُ وَخَيْرُ نِسَائِكُمُ الْعُقَّرُ»[١].

- عَنِ ابْنِ أَبِي لَيْلَى: قَالَ: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يُقَالُ لَهُ زَمَانُ الذِّئَابِ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ الزَّمَانِ كَلْبًا أَكَلُوهُ». قَالَ قُتَيْبَةُ: هُوَ هَذَا الزَّمَانُ.

- عَنْ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا كَانَتْ تَتَمَثَّلُ بِهَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ[٢]:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْنَافِهِمْ وَبَقِيتُ فِي خَلَفٍ كَجِلْدِ الْأَجْرَبِ

يَتَحَدَّثُونَ مَخَانَةً[٣] وَمَلَاذَةً وَيُعَابُ قَائِلُهُمْ وَإِنْ لَمْ يَشْغَبِ

- قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَيْحَ لَبِيدٍ لَوْ أَدْرَكَ هَذَا الزَّمَانَ». وقَالَ عُرْوَةُ: وَكَيْفَ لَوْ عَاشَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا إِلَى هَذَا الزَّمَانِ؟ وقَالَ هِشَامٌ: فَكَيْفَ لَوْ بَقِيَ عُرْوَةُ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ؟ وَقَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ: فَكَيْفَ لَوْ بَقِيَ هِشَامٌ إِلَى هَذَا الزَّمَانِ؟ وَقَالَ الْعَبَّاسُ بْنُ الْحُسَيْنِ نَحْوَ ذَلِكَ. وَقَالَ ابْنُ فِرَاسٍ مِثْلَهُ. وقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ خَشَكٍ: قُلْنَا لِسَلَمَةَ لَمَّا انْتَهَى الْكَلَامُ إِلَيْهِ: "مَا تَقُولُ أَنْتَ يَا أَبَا الْفَضْلِ؟ فَقَالَ: «مَا عَسَى أَنْ يَقُولَ مِثْلِي؟ أَنَا أَقُولُ التُّرَابُ عَلَى رَأْسِي».

---

[١] رواه مرفوعاً أبو عمرو الداني في السنن الواردة في الفتن، مرسلاً عن الأوزاعي. وحكم عليه بالوضع الملا على القاري في الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة.

[٢] البيتان للبيد وهما في ديوانه.

[٣] خيانة.

- عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: " أَتَيْتُ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيَّ[١] فِي شَيْءٍ فَقَالَ: يَا أَبَا سَعِيدٍ، مَا كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَحَدٌ يَشْفِيكَ مِنْ هَذَا؟! احْتِيجَ إِلَيَّ، احْتِيجَ إِلَيَّ، إِنَّ دَهْرًا صِرْتُ فِيهِ فَقِيهَ أَهْلِ الْكُوفَةِ لَدَهْرُ سُوءٍ".

وهَذَا وَإِنْ كَانَ مِنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَى مَعْنَى التَّوَاضُعِ وَسَبِيلِ الِاهْتِضَامِ لِنَفْسِهِ فَإِنَّهُ لَمْ يَخْلُ مِنْ عَيْبٍ لِلزَّمَانِ وَإِزْرَاءٍ بِهِ وَتَفْضِيلٍ لِمَا سَلَفَ مِنْهُ عَلَى مَا غَبَرَ وَتَأَخَّرَ مِنْ أَيَّامِهِ.

- خَرَجَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ وقومٌ جُلُوسٌ عَلَى بَابِ دَارِهِ فَقَالَ[٢]:

خَلَتِ الدِّيَارُ فَسُدْتُ غَيْرَ مُسَوَّدِ وَمِنَ الشَّقَاءِ تَفَرُّدِي بِالسُّؤْدَدِ

- وَأَنْشَدَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ فِرَاسٍ[٣] فِي نَحْوٍ مِنْ هَذَا:

وَإِنَّ بِقَومٍ سَوَّدوكَ لَحاجَةً إِلَى سَيِّدٍ لَوْ يَظْفَرُونَ بِسَيِّدِ

---

[١] إبراهيم بن يزيد النخعي الكوفي (٤٧ - ٩٦ هـ): تابعي وفقيه وقارئ كوفي، وأحد رواة الحديث النبوي.

[٢] البيت لحارثة بن بدر بن حصين التميمي الغداني: تابعي، من أهل البصرة، قيل أدرك النبي (صلى الله عليه وسلم)، له أخبار في الفتوح، وقصة مع عمر، ومع عليّ.

[٣] البيت للأحوص الأنصاري عبدالله بن محمد بن عبد الله بن عاصم ، من بني ضبيعة: شاعر هجاء، صافي الديباجة، من طبقة جميل بن معمر ونصيب. كان معاصراً لجرير والفرزدق.

- وَقَالَ آخَرُ فِي نَحْوِهِ:

وَمَا سُدْتَ فِيهِمْ أَنَّ فَضْلَكَ عَمَّهُمْ وَلَكِنَّ هَذَا الحظَّ فِي النَّاسِ يُقْسَمُ

- عَنِ ابْنِ رَاحَةَ قَالَ: "خَرَجَ إِلَيْنَا يَعْقُوبُ بْنُ دَاوُدَ وَزِيرُ الْمَهْدِيِّ وَنَحْنُ عَلَى بَابِهِ فَقَالَ: مَا صَدْرُ هَذَا الْبَيْتِ:

وَمُحْتَرَسٌ مِنْ مِثْلِهِ وَهُوَ حَارِسُ

فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ سَأَلَ عَنْهُ فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَّا جَوَابٌ. قُلْتُ: أَنَا أُخْبِرُكَ بِهِ؛ قَالَ الْبَرْدَخْتُ[١]:

أَقِلِّي عَلَيَّ اللَّوْمَ يَا أُمَّ مَالِكٍ وَذُمِّي زَمَانًا سَادَ فِيهِ الْفُلَافِسُ[٢]

وَسَاعٍ مَعَ السُّلْطَانِ لَيْسَ بِنَاصِحٍ وَمُحْتَرَسٌ مِنْ مِثْلِهِ وَهُوَ حَارِسُ

---

[١] البردخت الضبي علي بن خالد، أحد بني السيد بن مالك بن بكر بن سعد بن ضبة: شاعر أموي، نسبته إلى كلمة فارسية بمعنى الفارغ، تعرض بالهجاء لشاعرين من فحول شعراء عصره هما جرير والكميت بن زيد علهما يهجيانه فيشتهر، ولكنهما لم يلتفتا إلى هجائه.

[٢] وَكَانَ الفلافس هَذَا على شرطة الْكُوفَة من قبل الْحَارِث بن عبد الله بن أبي ربيعَة المِخْزُومِي أخي عمر بن أبي ربيعَة. وَخرج الفلافس مَعَ ابْن الْأَشْعَث فَقتله الْحجَّاج.

وَالْفَلَافِسُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ مِنْ بَنِي نَهْشَلِ بْنِ دَارِمٍ، وَكَانَ عَلَى شُرَطِ الْقُبَاعِ[١] بِالْبَصْرَةِ فَقَالَ فِيهِ الْأَشْهَبُ بْنُ رُمَيْلَةَ النَّهْشَلِيُّ[٢]:

يَا جَارُ يَا ابْنَ أَبِي رَبِيعَةَ إِنَّهُ يَخْلُو إِذَا اخْتَلَطَ الظَّلَامُ وَيَشْرَبُ

جَعَلَ الْفُلَافِسُ حَاجِبِينَ لِبَابِهِ سُبْحَانَ مِنْ جَعَلَ الْفُلَافِسَ يُحْجَبُ

- أنشدَ محمدُ بنُ دَاوُدَ الْأَصْبَهَانِيُّ[٣]:

عَمَّا قَلِيلٍ تَرَى مَا كُنْتَ تَحْسِبُهُ أَلَّا يَكُونَ وَلَا تَأْتِي بِهِ الْحِقَبُ[٤]

---

[١] القباع: مكيال ذو قعر، وجاء اسمه من قبعت الجواليق إذا أثنيت أطرافه إلى الداخل أو الخارج. وهو مكيال إسلامي استعمل في الكيل أثناء العصور الإسلامية.

[٢] الأشهب بن ثور بن أبي حارثة النهشلي الدارمي التميمي (١٠ ق هـ - ٩٠ هـ): شاعر مخضرم من سادات العرب أدرك الجاهلية والإسلام، وهو معدود في التابعين، وكان من فرسان العرب المشهورين في زمانه، وكان له إخوة: رباب وحجناء وسويط، وكانوا جميعاً من فرسان العرب قال ابن حجر العسقلاني: «ولدت رميلة لثور بن أبي حارثة في الجاهلية الأشهب ورباب وحجناء وسويد، وكانوا أشد إخوة في العرب لساناً ويداً ومنعة، ثم أدركوا الإسلام فأسلموا، وكثرت أموالهم وعزوا، حتى كانوا إذا وردوا ماء من مياه الصمان منعوا الناس أن يردوه».

[٣] محمد بن داود بن علي (٢٥٥ – ٢٩٧ هـ)؛ ابن الإمام داود بن علي الظاهري، كان عالما بارعًا، إماما في الحديث، أديبا، شاعرا فقيها، ماهرا له كتاب الزهرة اشتغل على أبيه وتبعه في مذهبه ومسلكه وما اختاره من الطرائق وارتضاه وكان أبوه يحبه ويقربه ويدنيه.

[٤] الحقب: السنون.

قَدْ تَعْلُكُ اللُّجْمَ وُرْقُ الْإِبْلِ[١] مُسْرَجَةً وَيَرْجِعُ الطِّرْفُ[٢] مَشْدُودًا بِهِ الْقَتَبُ[٣]

وَأَنْشَدْتُ[٤] هَذَا الْبَيْتَ:

هَذَا الزَّمَانُ الَّذِي كُنَّا نُحَذَّرُهُ فِي قَوْلِ كَعْبٍ وَفِي قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودِ

إِنْ دَامَ هَذَا وَلَمْ يَحْدُثْ لَهُ غِيَرٌ لَمْ يُبْكَ مَيْتٌ وَلَمْ يُفْرَحْ بِمَوْلُودِ

- أَنْشَدَ الْمُتَنَبِّي[٥]:

إِنَّا لَفِي زَمَنٍ تَرْكُ الْقَبِيحِ بِهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانٌ وَإِجْمَالُ

وقَرَأْتُ لِمَنْصُورِ بْنِ عَمَّارٍ[٦] فِي صِفَةِ الزَّمَانِ: تَغَيَّرَ الزَّمَانُ حَتَّى كَلَّ عَنْ وَصْفِهِ اللِّسَانُ، فَأَمْسَى خَرِفًا بَعْدَ حَدَاثَتِهِ، شَرِسًا بَعْدَ لِينِهِ، يَابِسَ الضَّرْعِ بَعْدَ غَزَارَتِهِ،

---

[١] الأَوْرَقُ من الإبل: ما في لونه بياضٌ إلى سواد.

[٢] الطِّرْفُ: الكريمُ من الناس والخيْلِ ونحوِها.

[٣] القَتَبُ: الرَّحْلُ الصغير على قدر سَنام البعير.

[٤] هو المؤلف نفسه أبو سليمان الخطابي، وكانت له أشعار.

[٥] من قصيدته التي مطلعها: (لا خَيلَ عِندَكَ تُهديها وَلا مالُ فَلِيُسعِدِ النُطقُ إِن لَم تُسعِدِ الحالُ).

[٦] منصور بن عمار ابن كثير السلمي الخراساني: أحد علماء أهل السنة والجماعة ومن أعلام التصوف السني في القرن الثالث الهجري، من أهل مرو من قرية يقال لها «دندانقان»، قال الذهبي في وصفه: «الواعظ البليغ الصالح الرباني، عديم النظير في الموعظة والتذكير، كان ينطوي على زهد وتألّه وخشية، ولوعظه وقع في النفوس» وعظ في العراق والشام ومصر وانتشر صيته وتزاحم عليه الخلق. توفي في بغداد سنة ٢٢٥هـ.

ذَابِلَ الْفَرْعِ بَعْدَ نَضَارَتِهِ، قَاحِلَ الْعُودِ بَعْدَ رُطُوبَتِهِ، بَشِعَ الْمَذَاقِ بَعْدَ عُذُوبَتِهِ، فَلَا تَكَادُ تَرَى لَبِيبًا إِلَّا ذَا كَمَدٍ، وَلَا ظَرِيفًا وَاثِقًا بِأَحَدٍ، وَمَا أَصْبَحَ لَهُ حَلِيفًا إِلَّا جَاهِلٌ، وَلَا أَمْسَى بِهِ قَرِيرَ عَيْنٍ إِلَّا غَافِلٌ، فَمَا بَقِيَ مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا الِاسْمُ، وَلَا مِنَ الدِّينِ إِلَّا الرَّسْمُ، وَلَا مِنَ التَّوَاضُعِ إِلَّا الْمُخَادَعَةُ، وَلَا مِنَ الزَّهَادَةِ إِلَّا الِانْتِحَالُ، وَلَا مِنَ الْمُرُوءَةِ إِلَّا غُرُورُ اللِّسَانِ، وَلَا مِنَ الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ إِلَّا حَمِيَّةُ النَّفْسِ وَالْغَضَبُ لَهَا وَتَطَلُّعُ الْكِبْرِ مِنْهَا، وَلَا مِنَ الِاسْتِعَادَةِ إِلَّا التَّعْزِيزُ وَالتَّبْجِيلُ، فَالْمَغْرُورُ الْمَائِقِ، الْمَذْمُومُ عِنْدَ الْخَلَائِقِ، النَّادِمُ فِي الْعَوَاقِبِ، الْمَحْطُوطُ عَنِ الْمَرَاتِبِ، مَنِ اغْتَرَّ بِالنَّاسِ، وَلَمْ يَحْسِمْ رَجَاءَهُ بِالْيَاسِ، وَلَمْ يَظْلِفْ قَلْبَهُ[1] بِشِدَّةِ الِاحْتِرَاسِ، فَالْحَذَرَ الْحَذَرَ مِنَ النَّاسِ؛ فَقَدْ قَلَّ النَّاسِ، وَبَقِيَ النَّسْنَاسِ، ذِئَابٌ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ، إِنِ اسْتَفْرَدْتَهُمْ حَرَمُوكَ، وَإِنِ اسْتَنْصَرْتَهُمْ خَذَلُوكَ، وَإِنِ اسْتَنْصَحْتَهُمْ غَشُّوكَ، وَإِنْ كُنْتَ شَرِيفًا حَسَدُوكَ، وَإِنْ كُنْتَ وَضِيعًا حَقَرُوكَ، وَإِنْ كُنْتَ عَالِمًا ضَلَّلُوكَ وَبَدَّعُوكَ، وَإِنْ كُنْتَ جَاهِلًا عَيَّرُوكَ وَلَمْ يُرْشِدُوكَ، إِنْ نَطَقْتَ قَالُوا مِكْثَارٌ مِهْذَارٌ صَفِيقٌ، وَإِنْ سَكَتَّ قَالُوا غَبِيٌّ بَلِيدٌ بَطِيءٌ، وَإِنْ تَعَمَّقْتَ قَالُوا مُتَكَلِّفٌ مُتَعَمِّقٌ، وَإِنْ تَغَافَلْتَ قَالُوا جَاهِلٌ أَحْمَقُ، فَمُعَاشَرَتُهُمْ دَاءٌ وَشَقَاءٌ، وَمُزَايَلَتُهُمْ دَوَاءٌ وَشِفَاءٌ، وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَكُونَ

[1] يمنعه.

فِي الدَّوَاءِ مَرَارَةٌ وَكَرَاهَةٌ، فَاخْتَرِ الدَّوَاءَ بِمَرَارَتِهِ وَكَرَاهَتِهِ عَلَى الدَّاءِ بِغَائِلَتِهِ وَآفَتِهِ. وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

- عَنْ أَبِي مُسْلِمٍ الْخَوْلَانِيِّ[١] قَالَ: «كَانَ النَّاسُ وَرَقًا لَا شَوْكَ فِيهِ، وَإِنَّهُمُ الْيَوْمَ شَوْكٌ لَا وَرَقَ فِيهِ»[٢].

- قَالَ الْحَسَنُ[٣]: "اعْلَمُوا أَنَّ النَّاسَ شَجَرَةُ بَغْيٍ، وَفَرَاشُ نَارٍ، وَذُبَابُ طَمَعٍ. إِنَّ الدُّنْيَا لَمَّا فُتِحَتْ عَلَى أَهْلِهَا كَلِبُوا وَاللَّهِ أَسْوَأَ الْكَلَبِ، حَتَّى غَدَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ بِالسُّيُوفِ، وَاسْتَحَلَّ بَعْضُهُمْ حُرْمَةَ بَعْضٍ؛ فَخَانَقُوا عَلَى سنخة كَسَبُوهَا مِنْ كُلِّ حَرَامٍ وَأَنْفَقُوهَا فِي كُلِّ شَرٍّ، وَطَبَّقُوا الْأَرْضَ ظُلْمًا. قَاتَلَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ قَاتِلُهُمْ، اتَّخَذُوا عِبَادَ اللَّهِ خَوَلًا[٤]، وَاتَّخَذُوا هَذَا الْمَالَ دُوَلًا. سُبْحَانَ اللَّهِ! مَا لَقِيَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ مِنْ مُنَافِقٍ قَهَرَهُمْ وَاسْتَأْثَرَ عَلَيْهِمْ، وَمِنْ صَاحِبِ بِدْعَةٍ خَرَجَ عَلَيْهِمْ بِسَيْفِهِ. صِنْفَانِ خَبِيثَانِ قَدْ عَمَّا كُلَّ مُؤْمِنٍ: أَعْلَاجٌ عَجَمٌ

---

[١] أبو مسلم الخولانى الزاهد عبد الله بن ثوب (ت ٦٢ هـ): أدرك الجاهلية وسكن المدينة ثم هاجر إلى الشام فنزل بداريا وأصله من اليمن، وقد أسلم في أيام رسول الله ﷺ ولكنه لم يلتق به فهو مخضرم ودخل المدينة في خلافة الصديق.

[٢] انظر مصنف ابن أبي شيبة، وتمامه: إِنْ سَابَبْتَهُمْ سَابُّوكَ، وَإِنْ نَاقَدْتَهُمْ نَاقَدُوكَ، وَإِنْ تَرَكْتَهُمْ لَمْ يَتْرُكُوكَ.

[٣] في المطبوعة: الحسين، وهو خطأ، والحسن هو الحسن البصري.

[٤] خدماً وعبيداً.

وَأَعْرَابِيٌّ لَا فِقْهَ لَهُ وَلَا دِينَ، وَمُنَافِقٌ مُكَذِّبٌ، وَأَمِيرٌ مُتْرَفٌ، نَعَرَ بِهِمْ نَاعِرٌ فَخَرَجُوا يَسْعَوْنَ مَعَهُ فَرَاشَ نَارٍ وَذُبَابَ طَمَعٍ. يَبِيعُ أَقْوَامٌ دِينَهُمْ بِثَمَنٍ حَقِيرٍ. مَنْ مَاتَ مَاتَ إِلَى النَّارِ، وَمَنْ عَاشَ عَاشَ عِيشَةَ سُوءٍ. ظَهَرَ الْجَفَاءُ وَقَلَّ الْعُلَمَاءُ وَذَهَبَ الْحَيَاءُ، وَفَشَتِ النَّكْرَاءُ. "ذَهَبَ الصَّالِحُونَ أَسْلَافًا، وَبَقِيَ خُشَارَةٌ كَخُشَارَةِ الشَّعِيرِ لَا يُبَالِي اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِمْ بَالَةً".

- أَنْشَدَ الْعُتْبِيُّ[1] فِي قَصِيدَةٍ لَهُ يَصِفُ فِيهَا قَوْسَ الْبُنْدُقِ:

إِنِّي تَبَدَّلْتُ بِإِخْوَانِ الصَّفَا ... قَوْمًا يَرَوْنَ النُّبْلَ تَطْوِيلَ اللِّحَى

لَا عِلْمَ دُنْيَا عِنْدَهُمْ وَلَا تُقَى ... غُذُّوا صِغَارًا ثُمَّ خَلَّوهُمْ سُدَى

يَغْمُرُهُ الْجَهْلُ وَآدَابُ النِّسَا ... فَلَوْ تَرَى شَيْخَهُمْ إِذَا احْتَبَى

ثُمَّ ابْتَدَا فِي وَصْفِ شَيْءٍ أَوْ بَدَا ... مِنْ رُخْصِ سِعْرٍ وَمِنْ إِفْرَاطِ غَلَا

وَرَفَعُوا أَصْوَاتَهُمْ بِلَا وَلَا ... حَسِبْتَهُمْ ضَأْنًا تَدَاعَتْ بِثُغَا

أَوْ سِرْبَ بَطٍّ جَاوَبَتْ سِرْبَ قَطَا ... فَذَلِكَ الدَّأْبُ إِلَى وَقْتِ الْعِشَا

فَالْقَلْبُ يَزْدَادُ صَدًى إِلَى صَدَى ... لِقُرْبِهِمْ وَالْعِلْمُ يَزْدَادُ فَنَا

وَكُلُّهُمْ فِي الْعَقْلِ يَمْشِي الْقَهْقَرَى ... يُرِيدُ قُدَّامًا فَيَجْرِي مِنْ وَرَا

---

[1] محمد بن عُبيد الله بن عمر بن معاوية بن عمر بن عتبة بن أبي سفيان القُرَشِي الأموي (ت ٢٣٠هـ): شاعر وأديب ولغوي وراوية عربي عاش في العصر العباسي الأوَّل، وكان يُلقَّب بالعُتبي.

- قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: إِنِّي لَا أُشَبِّهُ أَهْلَ هَذَا الزَّمَانِ، إِذَا رَأَيْتُهُمْ قَدْ تَلَاقَوْا فِي الْمَحَافِلِ، وَتَدَانَوا فِي الْمَجَالِسِ، وَتَحَالَّتْ بِهِمُ الرُّكَبُ، إِلَّا بِقَوْمٍ تَصَافُّوا مُسْتَعِدِّينَ لِمُحَارَبَةِ أَعْدَائِهِمْ، وَتَضَافَرُوا مُتَأَهِّبِينَ لِمُنَاصَبَةِ أَقْرَانِهِمْ، فَشَهِدُوا مَرْكَزَ اللِّقَاءِ بِسُيُوفٍ مَشْهُورَةٍ، وَأَسِنَّةٍ مَطْرُوزَةٍ، وَقِسِيٍّ مُوتَّرَةٍ، وَسِهَامٍ مُفَوَّقَةٍ، فَتَطَاعَنُوا ضَرْبًا بِسُيُوفِهِمْ، وَدَعْسًا بِرِمَاحِهِمْ، وَتَرَاشَقُوا خَصْلًا سِهَامَهُمْ، حَتَّى انْفَلَّتْ سُيُوفُهُمْ، وَكَلَّتْ أَيْدِيهِمْ، وَنُثِلَتْ كَنَائِنُهُمْ عَنْ آخِرِ أَهْزَعَ[1]، فَانْجَلَتِ الْمَعْرَكَةُ بَيْنَهُمْ عَنْ قَتِيلٍ تَشْخُبُ أَوْدَاجُهُ، وَجَرِيحٍ يَفِيحُ عَانِدُهُ، وَمُرْتَثٍّ لَا نُهُوضَ بِهِ، وَمُثْخَنٍ يَنُوءُ عَلَى ضِلْعِهِ، فَذَلِكَ الْوَجْهُ وَالْمِثَالُ فِيمَا شَبَّهْتُهُ لَكَ مَعَ صَنِيعِ أَهْلِ هَذَا الزَّمَانِ إِذَا ضَمَّتْهُمُ الْمَجَالِسُ، وَلَفَّتْهُمُ الْمَلَاقِي وَالْمَجَامِعُ، فَتَصَوَّرِ الْآنَ قُلُوبَهُمْ وَمَا تُجِنُّهُ ضَمَائِرُهُمْ مِنَ الْغِلِّ وَالْحَسَدِ، وَمَا تَحْنِي عَلَيْهِ ضُلُوعُهُمْ مِنَ الْإِحَنِ وَالضَّغَائِنِ، قِسِيًّا مُوتَّرَةً، وَأَلْسِنَتُهُمْ وَمَا يَرْمُونَ بِهِ مِنَ الْقَوْلِ سِهَامًا مُفَوَّقَةً، نَصَبُوا لَهَا أَعْرَاضَ النَّاسِ أَغْرَاضًا، وَافْتَرَضُوا بِهَا افْتِرَاضًا، فَهُمْ إِذَا تَأَمَّلْتَهُمْ وَجَدْتَهُمْ عَلَى طَبَقَاتٍ شَتَّى: مِنْهُمْ ذُو الْقُحَّةِ الَّذِي يُكَاشِفُ بِالشَّتْمِ الصَّرِيحِ مُكَاشَفَةً، وَيُجَاهِرُ بِاللَّفْظِ الْقَبِيحِ مُجَاهَرَةً وَمُعَالَنَةً، وَمِنْهُمْ مَنْ يُعَرِّضُ بِالْأَذَى وَيُكَنِّي وَيُمَرِّضُ الْقَوْلَ بِهِ وَيُوَرِّي، وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْذِي صَاحِبَهُ بِالْمُسَارَّةِ وَالنَّجْوَى، وَالْمُبَاثَّةِ وَالشَّكْوَى، وَمِنْهُمْ مَنْ يَشْجُو أَخَاهُ بِغَمْزِ الْعَيْنِ

---

[1] الأَهْزَعُ من القذائف والسِّهام: ما بقي في الجَعْبة وحدَه.

وَزَمّ الْجَبِينِ وَرَمْزِ الشَّفَتَيْنِ وَكَرْفِ الْعِرْنِينِ، وأَسْلَمُهمْ جَانِباً مَنْ لَا يُعَاجِلُ بِالسُّوءِ مُعَاجَلَةً، وَلَا يُؤَاخِذُ بِالذَّنْبِ بَغْتَةً، لَكِنْ يُحْصِي الْأَنْفَاسَ، وَيَعُدُّ الْحُرُوفَ وَالْأَلْفَاظَ، وَيَحْفَظُهَا لِيَوْمِ حَاجَتِهِ، وَأَوَانِ فُرْصَتِهِ، فَيُبَكِّتُ بِهَا وَيُعَيِّرُ، وَيُطْنِبُ فِيهَا ولا يُقَصِّرُ، عَلَى شَاكِلَةِ قَوْلِ الشَّاعِرِ[١] فِي مِثْلِهِ:

احْذَرْ مَوَدَّةَ مَاذِقٍ شَابَ الْمَرَارَةَ بِالْحَلَاوَةْ
يُحْصِي الْعُيُوبَ عَلَيْكَ أَيَّا مَ الصَّدَاقَةِ لِلْعَدَاوَةْ

– قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُعْتَزِّ: إِخْوَانُ السُّوءِ يَنْصَرِفُونَ عِنْدَ النَّكْبَةِ، وَيُقْبِلُونَ مَعَ النِّعْمَةِ، وَمِنْ شَأْنِهِمُ التَّوَسُّلُ بِالْإِخْلَاصِ وَالْمَحَبَّةِ، إِلَى أَنْ يَظْفَرُوا بِالْأُنْسِ وَالثِّقَةِ، ثُمَّ يُوَكِّلُونَ الْأَعْيُنَ بِالْأَفْعَالِ، وَالْأَسْمَاعَ بِالْأَقْوَالِ، فَإِنْ رَأَوْا خَيْرًا أَوْ نَالُوهُ لَمْ يَذْكُرُوهُ وَلَمْ يَشْكُرُوهُ، وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ خَدَعُوا صَاحِبَهُمْ عَنْهُ وَقَمَرُوهُ[٢]، وَإِنْ رَأَوْا شَرًّا أَوْ ظَنُّوهُ أَذَاعُوهُ وَنَشَرُوهُ، فَإِنْ أَدَمْتَ مُوَاصَلَتَهُمْ فَهُمُ الدَّاءُ الْمُمَاطِلُ، الْمَخُوفُ عَلَى الْمُقَاتِلِ، وَإِنِ اسْتَرَحْتَ إِلَى مُصَارَمَتِهِمُ ادَّعَوُا الْخِبْرَةَ بِكَ لِطُولِ الصُّحْبَةِ وَالْعِشْرَةِ، فَكَانَ حَدِيثُهُمْ مُصَدَّقًا وَبَاطِلُهُمْ مُحَقَّقًا.

---

[١] هو منصور بن إسماعيل الفقيه.

[٢] غلبوه وخدعوه.

بَاب فِيمَنْ آثَرَ الْمَرَضَ وَالْعَمَى عَلَى لِقَاءِ النَّاسِ

– قَالَ الْفُضَيلُ[١] رَحْمَةُ اللَّهُ عَلَيْهِ: "إِنِّي لَأَتَمَنَّى الْمَرَضَ. قيلَ لَهُ: لِمَ ذَلِكَ؟ قَالَ: لِئَلَّا أَرَى النَّاسَ"[٢].

– قَالَ أَبُو الصَّغْدِيِّ الْحَارِثِيُّ: "أَتَيْتُ عَوَانَةَ بَعْدَمَا كُفَّ بَصَرُهُ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ وَسَأَلْتُ بِهِ ثُمَّ قُلْتُ: إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمْ يَسْلُبْ عَبْدًا شَيْئًا إِلَّا عَوَّضَهُ مَكَانَهُ شَيْئًا هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، فَمَا الَّذِي عَوَّضَكَ مِنْ بَصَرِكَ؟ قَالَ: أَنْ لَا أَرَاكَ وَلَا يَقَعَ بَصَرِي عَلَيْكَ"[٣].

– عَنْ أَحْمَدَ بْنِ جَنحٍ لَمَّا كُفَّ بَصَرُهُ وَانْتَقَلَ إِلَى قَرْيَتِهِ بِغَوْرِ سَارَانَ قَصَدَهُ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْمُلْتَانِ، كَحَّالٌ حَاذِقٌ بَصِيرٌ بِالْقَدْحِ[٤]، فَلَمَّا وَرَدَ عَلَيْهِ أَنْزَلَهُ وَأَحْسَنَ تَعَهُّدَهُ، فَكَانَ الرَّجُلُ يَغْدُو عَلَيْهِ وَيَرُوحُ، وَجَعَلَ يُهَوِّنُ عَلَيْهِ الْأَمْرَ فِي مُعَالَجَتِهِ وَيُمَنِّيهِ رُجُوعَ بَصَرِهِ فِي مُدَّةٍ سَرِيعَةٍ، فَكَانَ أَحْمَدُ يُدَافِعُهُ الْوَقْتَ بَعْدَ الْوَقْتِ، إِلَى أَنْ ضَجرَ الرَّجُلُ بِطُولِ الْمَقَامِ وَمَلَّ الثَّوَاءَ عِنْدَهُ، فَحَضَرَنِي وَطَلَبَ

---

[١] في الطبوعة: الفضل، وهو خطأ، والمقصود الفضيل بن عياض.

[٢] انظر: جامع الورع وقامع البدع لأبي بكر الدشتي.

[٣] انظر: ذم الثقلاء لابن المرزبان المحولي.

[٤] يعني طبيب عيون.

إِلَيَّ أَنِ اسْتَأْذِنَ لَهُ فِي الِانْصِرَافِ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِ[١] وَعَرَّفْتُهُ قِصَّةَ الرَّجُلِ وَأَشَرْتُ عَلَيْهِ بِالْإِقْبَالِ عَلَى الْعِلَاجِ وَهَوَّنْتُ عَلَيْهِ الْأَمْرَ فِي ذَلِكَ. فَقَالَ لِي: يَا أَبَا سُلَيْمَانَ أَتُشِيرُ عَلَيَّ بِأَنِ أَحْتَمِلَ هَذَا الْأَلَمَ وَأَنْ أُغَرِّرَ بِجَمَالِ هَذِهِ الْمُقْلَةِ الْبَاقِيَةِ وَلَسْتُ عَلَى يَقِينٍ مِنَ السَّلَامَةِ؟! وَهَبْ أَنَّ الْعِلَاجَ قَدْ نَجَحَ وَوَقَعَ مَوْقِعَهُ وَعَادَ الْبَصَرُ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْقُوَّةِ فَقُلْ لِي: إِذَا فَتَحْتُ عَيْنِي وَأَبْصَرْتُ بِهَا أَنْظُرُ إِلَى مَنْ مِنْ إِخْوَانِي وَأَصْدِقَائِي وَقَدْ هَلَكُوا؟! أَلَا وَاللهِ إِنَّ الزَّمَانَ الَّذِي أَنَا فِيهِ، وَالنَّاسَ الَّذِينَ أَنَا بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ لَقَوْمٌ لَوْ كُنْتُ بَصِيرًا صَحِيحَ الْبَصَرِ لَكَانَ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَيَّ أَنْ أَتَعَامَى عَلَيْهِمْ فَأَغُضَّ بَصَرِي عَنِ النَّظَرِ إِلَيْهِمْ، قُلْ لِهَذَا الْإِنْسَانِ يَنْصَرِفُ فِي حِفْظِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَمَرَ بِتَجْهِيزِهِ، فَانْصَرَفْتُ وَدَفَعْتُ كِسْوَةً وَنَفَقَةً وَجَهَّزْتُهُ فَانْصَرَفَ".

بَاب فِي تَرْكِ الِاعْتِدَادِ بِعَوَامِ النَّاسِ وَقِلَّةِ الِاكْتِرَاثِ بِهِم

- قَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ[٢]: «رِضَاءُ النَّاسِ غَايَةٌ لَا تُدْرَكُ، وَلَا تَكْرَهْ سَخَطَ مَنْ رِضَاهُ الْجَوْرُ».

---

[١] الكلام للمصنف نفسه.

[٢] أكثم بن صيفي بن رباح الأسيدي العمروي التميمي: أشهر حكماء العرب في الجاهلية على الإطلاق وأحد المعمَّرين فيها، وكان أكثم سيد من سادات العرب شريفاً حكيماً وفارساً شجاعاً، ومستشاراً خبيراً.

- قَالَ يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى[١]: قَالَ لِي الشَّافِعِيُّ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ: «يَا أَبَا مُوسَى! رِضَاءُ النَّاسِ غَايَةٌ لَا تُدْرَكُ، ولَيْسَ إِلَى السَّلَامَةِ مِنَ النَّاسِ سَبِيلٌ؛ فَانْظُرْ مَا فِيهِ صَلَاحُ نَفْسِكَ فَالْزَمْهُ، وَدَعِ النَّاسَ وَمَا هُمْ فِيهِ».

- قَالَ النَّضْر بْن شُمَيْلٍ[٢]: «كَتَبَ إِلَيَّ الْخَلِيلُ[٣] أَنْ دَعِ النَّاسَ وَاشْمِئْزَازَهُمْ، وإِذَا عَرَفْتَ الْحَقَّ فَالْزَمْ».

---

[١] يونس بن عبد الأعلى بن ميسرة بن حفص بن حيان الصدفي المصري: كان من كبار العلماء في مصر، وكان كبير المحدثين والعلماء في زمانه بمصر، وأحد رواة الحديث النبوي. ولد سنة ١٧٠ هـ و توفي سنة ٢٦٤ هـ.

[٢] النضر بن شميل المازني التميمي البصري (١٢٢- ٢٠٣ هـ): قاضٍ ولغوي وراوٍ للحديث وفقيه، ولد بمرو ونشأ بالبصرة ثم غادرها إلى خراسان وأقام في نيسابور قليلاً. أخذ عن الخليل بن أحمد ولازمه مُدةً طويلةً، وأقام بالبادية زمناً فأخذ عن فصحاء العرب كأبي خيرة الأعرابي وأبي الدقيش وغيرهُما. وكان النضر من أهل السنة النبوية وهو أول من أظهرها بخراسان ومرو. ولي القضاء بمرو، وكان مُتقللاً مُتقشفاً زاهِداً.

[٣] الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠ . ١٧٠ هـ): شاعر ونحوي عربي بصري، يُعد عالما بارزًا وإمامًا من أئمة اللغة والأدب، وهو واضع علم العروض، وهو أيضاً أستاذ سيبويه النحويّ. ولد في البصرة في العراق ومات فيها.

- أَنْشَدَ أَبُو الْعَبَّاسِ[١]:

دَعِ النَّاسَ مَا شَاءُوا يَقُولُوا فَإِنَّنِي لِأَكْثَرِ مَا يُحْكَى عَلَيَّ حَمُولُ
فَمَا كُلُّ مَنْ أَغْضَبْتُهُ أَنَا مُعْتِبٌ وَلَا كُلُّ مَا يُرْوَى عَلَيَّ أَقُولُ

- عَنِ ابْنِ الْأَعْرَابِيِّ[٢]:

أَوَكُلَّمَا طَنَّ الذُّبَابُ زَجَرْتُهُ إِنَّ الذُّبَابَ إِذًا عَلَيَّ كَرِيمُ

---

[١] أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار، البغدادي النحوي، الشيباني الشهير بثعلب (٢٠٠ -٢٩١ هـ): إمام الكوفيين في عهده، وثالث ثلاثة قامت على أعمالهم مدرسة الكوفة النحوية، العلامة المحدث، وإمام النحو، صاحب الفصيح والتصانيف، ولد ببغداد في السنة الثانية من خلافة المأمون وبها مات.

[٢] محمد بن زياد بن الأعرابي الهاشمي: إمام لغة وراوية وناسب علامة باللغة، له مصنفات أدبية كثيرة، ولد في ١٥٠ هـ ومات بسامراء في ٢٣١ هـ. يعد ابن الأعرابي من أعلام أهل الكوفة وكان أحول، قال ثعلب: شاهدت مجلس ابن الأعرابي وكان يحضره زهاء مئة إنسان وكان يُسأل ويُقرأ عليه فيجيب من غير كتاب ولزمته بضع عشرة سنة ما رأيت بيده كتاباً قط ولقد أملى على الناس ما يُحمل على الجمال ولم يُر أحد في علم الشعر أغزر منه.

- عَنْ عُبَيْدَةَ[١] قَالَ: سَمِعْتُ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَخْطُبُ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ سَئِمْتُهُمْ وَسَئَمُونِي، وَمَلَلْتُهُمْ وَمَلُّونِي، فَأَرِحْنِي مِنْهُمْ وَأَرِحْهُمْ مِنِّي، مَا يَمْنَعُ أَشْقَاكُمْ أَنْ يَخْضِبَهَا بِدَمٍ؟![٢] وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى لِحْيَتِهِ»[٣].

- قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَكْثَرْتَ مِنَ الدُّعَاءِ بِالْمَوْتِ حَتَّى خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ أَسْهَلَ لَكَ عِنْدَ أَوَانِ نُزُولِهِ، فَلِمَاذَا مَلِلْتَ مِنْ أُمَّتِكَ؟ إِمَّا تُعِينُ صَالِحًا أَوْ تُقَوِّمُ فَاسِدًا، قَالَ: يَابْنَ عَبَّاسٍ إِنِّي قَائِلٌ لَكَ قَوْلًا وَهُوَ إِلَيْكَ[٤]، قُلْتُ: لَنْ يَعْدُوَنِي. قَالَ: «كَيْفَ لَا أُحِبُّ فِرَاقَهُمْ وَفِيهِمْ نَاسٌ كُلُّهم فَاتِحٌ فَاهُ لِلْهَوَةٍ[٥] مِنَ الدُّنْيَا إِمَّا بِحَقٍّ لَا يَنُوءُ بِهِ، أَوْ بِبَاطِلٍ لَا يَنَالُهُ. وَلَوْلَا أَنْ أُسْأَلَ عَنْكُمْ لَهَرَبْتُ مِنْكُمْ فَأَصْبَحَ الْأَرْضُ مِنِّي بَلَاقِعَ فَمَضَيْتُ لَشَأْنِي وَمَا قُلْتُ مَا فَعَلَ الْغَالِبُونَ».

---

[١] عبيدة بن عمرو السلماني المرادي الكوفي: أحد فقهاء التابعين بالكوفة، أسلم عبيدة في عام فتح مكة بأرض اليمن ولا صحبة له، وأخذ عن علي بن أبي طالب وابن مسعود وغيرهما وبرع في الفقه وكان ثبتا في الحديث.

[٢] كان لدى علي خبر بأنه سيُقتل شهيداً، فكأنه كان يستعجل هذا، فكان هذا الشقي ابن مُلجَم لعنه الله.

[٣] انظر: الجامع لمعمر بن راشد.

[٤] أي سر.

[٥] اللهوة: العطية. والجمع: اللُّهى.

– وَلَمَّا نَزَلَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِالْبَطْحَاءِ جَمَعَ كَوْمَةً مِنْ بَطْحَاء، بَسَطَ عَلَيْهَا رِدَاءَهُ ثُمَّ اضْطَجَعَ وَرَفَعَ يَدَيْهِ فَقَالَ: "اللَّهُمَّ كَبِرَتْ سِنِّي وَرَقَّ عَظْمِي وَضَعُفَتْ قُوَّتِي وَخَشِيتُ الِانْتِشارَ مِنْ رَعِيَّتِي؛ فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ عَاجِزٍ وَلَا مُضَيِّعٍ". ثُمَّ قَدِمَ الْمَدِينَةَ فَمَا انْسَلَخَ الشَّهْرُ حَتَّى مَاتَ[١].

– عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «ذَهَبَ صَفْوُ الدُّنْيَا فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْكَدَرُ؛ فَالْمَوْتُ الْيَوْمَ تُحْفَةٌ[٢] لِكُلِّ مُسْلِمٍ»[٣].

– عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ[٤] – وَهُوَ مَرِيضٌ – قَالَ: «إِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَمُوتَ فَمُتْ، فَوَاللَّهِ لَيَأْتِيَنَّ عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَكُونُ الْمَوْتُ أَحَبَّ إِلَى أَحَدِهِمْ مِنَ الذَّهَبِ الْأَحْمَرِ»[٥].

---

[١] انظر: الجامع لمعمر بن راشد.

[٢] هدية.

[٣] رواه الطبراني في المعجم الكبير.

[٤] أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف (٢٢ – ٩٤ هـ): تابعي، وأحد رواة الحديث، وأحد فقهاء المدينة السبعة من التابعين، والقاضي عليها من سنة ٤٨ هـ إلى ٥٤ هـ، وابن الصحابي عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المبشرين بالجنة.

[٥] انظر: الجامع لمعمر بن راشد.

- قَالَ طَاوُسٌ[١]: «لَا تُحْرِزُ[٢] دِينَ الْمَرْءِ إِلَّا حُفْرَتُهُ»[٣].

- قِيلَ لِلتَّوْرِيِّ: "لِمَ تَتَمَنَّى الْمَوْتَ وَقَدْ نَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْهُ؟ فَقَالَ سُفْيَانُ: لَوْ سَأَلَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ لَقُلْتُ: يَا رَبِّ لِثِقَتِي بِكَ وَخَوْفِي مِنَ النَّاسِ، لِأَنِّي لَوْ خَالَفْتُ وَاحِدًا فِي رُمَّانَةٍ فَقُلْتُ حُلْوَةٌ وَقَالَ مُرَّةٌ لَخِفْتُ أَنْ يُشَاطَ دَمِي".

- لِمَنْصُورِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ[٤]:

قَدْ قُلْتُ إِذْ مَدَحُوا الْحَيَاةَ فَأَكْثَرُوا فِي الْمَوْتِ أَلْفُ فَضِيلَةٍ لَا تُعْرَفُ

---

[١] طاووس بن كيسان اليماني (ت ١٠٦ هـ): فقيه وراوٍ وتابعي من كبار فقهاء التابعين. كان من خواص أصحاب ابن عباس، وعُرف بتقشفه في العيش، وجرأته في وعظ الخلفاء والولاة.

[٢] تُحرز: تَحفظ. والمعنى أن القبر يحفظ على المرء بالموت قبل أن يضيع في الحياة.

[٣] انظر الحلية، ترجمة طاوس بن كيسان.

[٤] منصور بن إسماعيل بن عمر التميمي المصري الضرير: كان إماماً في فقه مذهبه، أديباً شاعراً مجيداً متفنناً، له حظّ من كلّ علم، أصله من رأس العين المشهورة بالجزيرة، وقدم مصر وبها توفي، ولم يكن في زمانه مثله فيها، وكانت له منزلة جليلة عند أبي عبيد القاضي، وكان من خواصّه الذين يخلو بهم للمذاكرة والمحادثة، وكان بينهما مناظرات في الفروع أدّت إلى الخصام، فتعصب الأمير ذكا وجماعة من الجند لمنصور، وتعصب للقاضي أبي عبيد جماعة منهم ابن الربيع الجيزي، ثم شهد ابن الربيع على منصور بكلام زعم أنه سمعه منه فقال القاضي: إن شهد عليه آخر بمثل ما شهد به عليه ابن الربيع ضربتُ عنقه، فخاف على نفسه ومات، وكانت وفاته سنة ست وثلاثمائة. وله مصنفات في الفقه منها: كتاب الواجب. وكتاب المستعمل. وزاد المسافر، وغير ذلك.

مِنْهَا أَمَانُ لِقَائِهِ بِلِقَائِهِ وَفِرَاقُ كُلِّ مُعَاشِرٍ لَا يُنْصِفُ[١]

- ولَهُ أَيْضًا[٢]:

لَوْلَا بَنَاتِي وَسَيِّئَاتِي لَذُبْتُ شَوْقًا إِلَى الْمَمَاتِ

لِأَنَّنِي فِي جِوَارِ قَوْمٍ بَغَّضَنِي قُرْبُهُمُ حَيَاتِي

- قَالَ الْجَاحِظُ: قَدْ أَبْدَعَ الْعَبَّاسُ بْنُ الْأَحْنَفِ[٣] فِي قَوْلِهِ، وَلَمْ يُسْبَقْ إِلَيْهِ، يَعْنِي قَوْلَهُ:

يَبْكِي رِجَالٌ عَلَى الْحَيَاةِ وَقَدْ أَفْنَى دُمُوعِي شَوْقِي إِلَى أَجَلِي

أَمُوتُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُغَيِّرَكِ الدَّهْـ ـرُ فَإِنِّي مِنْهُ عَلَى وَجَلِ

- قَالَ شَيْخٌ مِنَ الْأَعْرَابِ: إِنِّي لَمُتَيَسِّرٌ لِلْمَوْتِ؛ لَا دَيْنَ وَلَا بَنَاتٍ؛ شَيْخٌ كَبِيرٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ[٤].

---

[١] وتنسب أيضاً لابن الرومي.

[٢] يعني لمنصور بن إسماعيل الفقيه الضرير.

[٣] العباس بن الأحنف بن الأسود الحنفي اليمامي: شاعر غزِل رقيق، قال فيه البحتري: أغزل الناس. أصله من اليمامة (في نجد) وكان أهله في البصرة، وبها مات أبوه. ونشأ هو ببغداد، وتوفي بها، خالف الشعراء في طريقتهم فلم يمدح ولم يهج، بل كان شعره كله غزلاً وتشبيباً.

[٤] انظر: البيان والتبيين للجاحظ.

- عَنْ عَطَاءٍ[١] أَنَّهُ «كَانَ يَسْتَخِفُّ بِالْغَوْغَاءِ وَيُشْلِي[٢] النَّاسَ بِهِمْ». يُرِيدُ بِهِ الْجُهَّالَ وَأَهْلَ الدَّنَاءَةَ وَقِلَّةِ الْمُرُوءَةِ.

تَفْسِيرُ الْغَوْغَاءِ

- قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: "الْغَوْغَاءُ الْجَرَادُ إِذَا مَاجَ بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ، وَبِهِ سُمِّيَ الْغَوْغَاءُ مِنَ النَّاسِ".

- عَنْ أَبِي عَاصِمٍ النَّبِيلِ[٣] أَنَّ رَجُلًا أَتَاهُ فَقَالَ: "إِنَّ امْرَأَتِي قَالَتْ لِي يَا غَوْغَاءُ، فَقُلْتُ لَهَا: إِنْ كُنْتُ غَوْغَاءَ فَأَنْتِ طَالِقٌ ثَلَاثًا. فَقَالَ أَبُو عَاصِمٍ: هَلْ أَنْتَ مِمَّنْ يَحْضُرُ الْمُنَاطَحَةَ بِالْكِبَاشِ وَالْمُنَاقَرَةَ بِالدُّيُوكِ؟ فَقَالَ: لَا. فَقَالَ لَهُ: فَهَلْ أَنْتَ الرَّجُلُ يَحْضُرُ يَوْمَ يَعْرِضُ السُّلْطَانُ أَهْلَ السُّجُونِ فَيَقُولُ: فُلَانٌ أَجْلَدُ

---

[١] عطاء بن أبي رباح أسلم بن صفوان (٢٧ - ١١٤ هـ): فقيه وعالم حديث، وهو من الفقهاء والتابعين في القرن الأول والثاني الهجري.

[٢] يغري.

[٣] أبو عاصم الضَّحاك بن مَخلَد الشيباني البصري، الشهير بأبي عاصم النبيل (١٢٢ - ٢١٢ هـ): أحد العلماء ومن رواة الحديث عند أهل السنة والجماعة. كان شيخ حفاظ الحديث في عصره. ولد بمكة وتحول إلى البصرة، فسكنها وتوفي بها. ونعِتَ بالنبل لأنه كان في مجلس شيخه شيخ المسلمين ابن جريج فجاء فيل عظيم إلى البلدة فسارع من في المجلس لرؤيته فبقي هو في مجلس شيخه قال: لِمَ لَمْ تخرج؟ قال: إجلالاً لك وهيبة منك واحتراما لك، فقال أنت كيّس نبيل، فصار هذا اللقب عليه ولا يُترجم إلا به

مِنْ فُلَانٍ؟ فَقَالَ: لَا. فَقَالَ: هَلْ أَنْتَ الرَّجُلُ الَّذِي إِذَا خَرَجَ الْأَمِيرُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ جَلَسْتَ لَهُ عَلَى ظَهْرِ الطَّرِيقِ حَتَّى يَمُرَّ ثُمَّ تُقِيمُ بِمَكَانِكَ حَتَّى يُصَلِّيَ وَيَنْصَرِفَ؟ فَقَالَ: لَا. فَقَالَ لَهُ أَبُو عَاصِمٍ: لَسْتَ بِغَوْغَاءَ إِنَّمَا الْغَوْغَاءُ مَنْ يَفْعَلُ هَذَا"، قَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: الْغَوْغَاءُ أَهْلُ الْبِدَعِ.

- كَانَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ كَثِيرًا مَا يَتَمَثَّلُ بِهَذِهِ الْأَبْيَاتِ[١]:

يُرَى مُسْتَكِينًا وَهْوَ لِلَّهْوِ مَاقِتُ ... لَهُ عَنْ حَدِيثِ الْقَوْمِ مَا هُوَ شَاغِلُهْ

عَبُوسٌ إِلَى الْجُهَّالِ حِينَ يَرَاهُمُ ... فَلَيْسَ لَهُ مِنْهُمْ خَدِينٌ يُغَازِلُهْ

وَأَزْعَجَهُ عِلْمٌ عَنِ الْجَهْلِ كُلِّهِ ... وَمَا عَالِمٌ شَيْئًا كَمَنْ هُوَ جَاهِلُهْ

تَذَكَّرَ مَا يَبْقَى مِنَ الْعَيْشِ آجِلًا ... فَأَشْغَلَهُ عَنْ عَاجِلِ الْعَيْشِ آجِلُهْ[٢]

- وَقِيلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ: إِنَّ الْعَامَّةَ يُثْنُونَ عَلَيْكَ، فَأَظْهَرَ الْوَحْشَةَ مِنْ ذَلِكَ وَقَالَ: لَعَلَّهُمْ رَأَوْا مِنِّي شَيْئًا أَعْجَبَهُمْ، وَلَا خَيْرَ فِي شَيْءٍ يَسُرُّهُمْ وَيُعْجِبُهُمْ.

---

[١] انظر: حلية الأولياء، ترجمة عمر بن عبدالعزيز.

[٢] وفي المجالسة وجواهر العلم للدينوري: أَنْشَدَنَا مُحَمَّدُ بْنُ فَضَالَةَ فِي الْخَوْفِ، فَقَالَ:

(يُرَى مُسْتَكِينًا وَهْوَ لِلَّهْوِ مَاقِتٌ ... بِهِ عَنْ حَدِيثِ النَّفْسِ مَا هُوَ شَاغِلُهْ)

(يَبِيتُ إِذَا نَامَ الْخَلِيُّونَ سَاهِرًا ... كَثِيرًا تَشَكِّيهِ كَثِيرًا بَلَابِلُهْ)

(تَأَوُّهَ ذِي لُبٍّ أُصِيبَ حَمِيمُهُ ... بِهِ وَجَعٌ تَحْتَ الشَّرَاسِيفِ قَاتِلُهْ)

(تَذَكَّرَ مَا يَبْقَى مِنَ الْعَيْشِ آجِلَا ... فَأَزْعَجَهُ مِنْ عَاجِلِ الْعَيْشِ آجِلُهْ)

- مَدَحَ رَجُلٌ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي وَجْهِهِ فَقَالَ وَهُوَ يَتَّهِمُهُ: "أَنَا دُونَ مَا قُلْتَ وَفَوْقَ مَا فِي نَفْسِكَ".

فَالْوَاجِبُ عَلَى الْعَاقِلِ أَنْ لَا يَغْتَرَّ بِكَلَامِ الْعَوَّامِ وَثَنَائِهِمْ، وَأَنْ لَا يَثِقَ بِعُهُودِهِمْ وَإِخَائِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ يُقْبِلُونَ مَعَ الطَّمَعِ، وَيُدْبِرُونَ مَعَ الْغِنَى، وَيَطِيرُونَ مَعَ كُلِّ نَاعِقٍ.

- وَكَانَ الْحَسَنُ[١] رَحْمَةُ اللَّهُ عَلَيْهِ يَقُولُ إِذَا رَآهُمْ: هَؤُلَاءِ قَتَلَةُ الْأَنْبِيَاءِ.

- وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَقُولُ إِذَا رَآهُمْ: قَاتَلَهُمُ اللَّهُ؛ هَذِهِ الْوُجُوهُ الَّتِي لَا تُرَى إِلَّا فِي الشَّرِّ.

- وَكَانَ آخَرُ مِنْهُمْ يَقُولُ فِي الْعَامَّةِ: إِنَّهُمْ إِذَا اجْتَمَعُوا غَلَبُوا وَإِذَا تَفَرَّقُوا لَمْ يُعْرَفُوا.

- وَقَالَ آخَرُ: إِذَا اجْتَمَعُوا أَضَرُّوا وَإِذَا تَفَرَّقُوا نَفَعُوا.

يُرِيدُ أَنَّهُمْ إِذَا تَفَرَّقُوا رَجَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ إِلَى صِنَاعَتِهِ فَيَحْرِزُ الْأَكَّافُ وَيَخْصِفُ الْحَذَّاءُ وَيَنْسِجُ الْحَائِكُ وَيَخِيطُ الْخَيَّاطُ فَيَنْتَفِعُ بِهِمُ النَّاسُ.

- لِمَنْصُورِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ:

اسْمَعْ فَهَذَا الْكَلَامُ وَاللَّهِ مَا فِيهِ عِلَّةْ
أَقَلُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَنْ لَا يَرَى النَّاسَ قِلَّةْ

---

[١] الحسن البصري.

- أَنْشَدَ ابْنُ عَائِشَةَ[١]:

بَرِمْتُ بِالنَّاسِ وَأَخْلَاقِهِمْ فَصِرْتُ أَسْتَأْنِسُ بِالْوَحْدَةِ
مَا أَكْثَرَ النَّاسَ لَعَمْرِي وَمَا أَقَلَّهُمْ فِي مُنْتَقَى الْعِدَّةِ

- وَأَنْشَدَنِي بَعْضُهُمْ[٢]:

مَا أَكْثَرَ النَّاسَ لَا بَلْ مَا أَقَلَّهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُ أَنِّي لَمْ أَقُلْ فَنَدَا
إِنِّي لَأَفْتَحُ عَيْنِي حِينَ أَفْتَحُهَا عَلَى كَثِيرٍ وَلَكِنْ لَا أَرَى أَحَدَا

- أَنْشَدَ الدَّغُولِيُّ[٣] فِي سِيَاسَةِ الْعَامَّةِ:

إِذَا أَمِنَ الْجُهَّالُ جَهْلَكَ مَرَّةً فَعِرْضُكَ لِلْجُهَّالِ غُنْمٌ مِنَ الْغُنْمِ
وَإِنْ أَنْتَ نَازَيْتَ السَّفِيهَ إِذَا نَزَا فَأَنْتَ سَفِيهٌ مِثْلُهُ غَيْرُ ذِي حِلْمِ
وَلَا تَتَعَرَّضْ لِلسَّفِيهِ وَدَارِهِ بِمَنْزِلَةٍ بَيْنَ الْعَدَاوَةِ وَالسِّلْمِ

---

[١] هما لأبي العتاهية، وفي الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني: قال ابنُ أبي العتاهية إنّ الرشيد لما أطلق أباه من الحبس، لزم بيته وقطع الناس؛ فذكره الرشيد فعرّف خبره، فقال: قولوا له: صرت زير نساء وحلس بيت؛ فكتب إليه أبو العتاهية... البيتين.

[٢] البيتان في ديوان دعبل بن علي الخزاعي.

[٣] مُحَمَّدُ بنُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ مُحَمَّدِ بنِ عَبْدِ اللهِ السَّرَخْسِيُّ، الدَّغُوْلِيُّ: أَحَد أَئِمَّةِ عَصْرِهِ بِخُرَاسَانَ فِي اللُّغَةِ، وَالفِقْهِ، توفي ٣٢٥ هـ.

فَيَخْشَاكَ تَارَاتٍ وَيَرْجُوكَ مَرَّةً وَتَأْخُذُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ بِالْحَزْمِ[١]

- قَالَ لُقْمَانُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لِابْنِهِ: «يَا بُنَيَّ، لَا تَكُنْ حُلْوًا فَتُبْلَعَ، وَلَا مُرًّا فَتُلْفَظَ».

- لِأَبِي الْعَتَاهِيَةِ:

صَانَ عَبْدٌ مَا لَدَيْهِ وَرَعَى مَا فِي يَدَيْهِ

وَإِذَا هَمَّ بِلِينٍ قَرَنَ الْحَزْمَ إِلَيْهِ

مَنْ يَلِنْ لِلنَّاسِ جِدًّا يَثِبُ النَّاسُ عَلَيْهِ

- قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحْمَةُ اللَّهُ عَلَيْهِ: «أَصْلُ كُلِّ عَدَاوَةٍ الصَّنِيعَةُ إِلَى الْأَنْذَالِ».

---

[١] جاء في الحلم لابن أبي الدنيا: قَالَ عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ مَرْوَانَ لِمُحَمَّدِ بْنِ عُطَارِدٍ التَّمِيمِيِّ: يَا مُحَمَّدُ، احْفَظْ عَنِّي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ وَاعْمَلْ بِهِنَّ:

إِذَا أَنْتَ جَارَيْتَ السَّفِيهَ كَمَا جَرَى فَأَنْتَ سَفِيهٌ مِثْلُهُ غَيْرُ ذِي حِلْمِ

إِذَا أَمِنَ الْجُهَّالُ جَهْلَكَ مَرَّةً فَعِرْضُكَ لِلْجُهَّالِ غَنْمٌ مِنَ الْغَنْمِ

فَلَا تَعْرِضَنْ عَرْضَ السَّفِيهِ وَدَارِهِ بِحِلْمٍ فَإِنْ أَعْيَا عَلَيْكَ فَبِالصِّرْمِ

وَعَمِّ عَلَيْكَ الْجَهْلَ وَالْحِلْمَ وَالْقَهُ بِمَرْتَبَةٍ بَيْنَ الْعَدَاوَةِ وَالسِّلْمِ

فَيَرْجُوكَ تَارَاتٍ وَيَخْشَاكَ تَارَةً وَتَأْخُذُ فِيمَا بَيْنَ ذَلِكَ بِالْحَزْمِ

فَإِنْ لَمْ تَجِدْ بُدًّا مِنَ الْجَهْلِ فَاسْتَعِنْ عَلَيْهِ بِجُهَّالٍ وَذَاكَ مِنَ الْعَزْمِ

– عَنِ الْأَصْمَعِيِّ قَالَ: "كَتَبَ كِسْرَى إِلَى عُمَّالِهِ: «عَامِلُوا وُجُوهَ النَّاسِ بِمَحْضِ الْمَوَدَّةِ، وَعَامِلُوا الرَّعِيَّةَ بِالرَّغْبَةِ وَالرَّهْبَةِ، وَعَامِلُوا السِّفْلَةَ بِالْمَخَافَةِ».

بَاب فِي فَسَادِ الْخَاصَّةِ وَمَا جَاءَ فِي عُلَمَاءِ السُّوءِ

– عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُ الْعِلْمَ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، فَإِذَا لَمْ يَبْقَ عَالِمٌ اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُوساً جُهَّالًا فَسُئِلُوا فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا»[1].

فَقَدْ أَعْلَمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ آفَةَ الْعِلْمِ ذَهَابُ أَهْلِهِ وَانْتِحَالُ الْجُهَّالِ وَتَرَؤُّسُهُمْ عَلَى النَّاسِ بِاسْمِهِ، وَحَذَّرَ النَّاسَ أَنْ يَقْتَدُوا بِمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الصِّفَةِ، وَأَخْبَرَ أَنَّهُمْ ضُلَّالٌ مُضِلُّونَ، وَأَنْذَرَ بِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ:

– عَنْ أَنَسٍ قَالَ: "لَأُحَدِّثَنَّكُمْ حَدِيثًا لَا يُحَدِّثُكُمْ أَحَدٌ بَعْدِي سَمِعَهُ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِنَّ مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ الْعِلْمُ وَيَظْهَرَ الْجَهْلُ»[2].

---

[1] متفق عليه.

[2] رواه البخاري ومسلم عن أنس: لَأُحَدِّثَنَّكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِن رَسولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم، لا يُحَدِّثُكُمْ به أحَدٌ غيرِي؛ سَمِعْتُ رَسولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: إنَّ مِن أشْرَاطِ السَّاعَةِ أنْ

يُرِيدُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، ظُهُورَ الْجُهَّالَ الْمُنْتَحِلِينَ لِلْعِلْمِ الْمُتَرَئِسِينَ عَلَى النَّاسِ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَيَرْسَخُوا فِي عِلْمِهِ.

- قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا»[1].

يُرِيدُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَخْدُمِ الْعِلْمَ فِي صِغَرِهِ اسْتَحْيَا أَنْ يَخْدُمَهُ فِي كِبَرِ السِّنِّ وَإِدْرَاكِ السُّؤْدَدِ.

- وَبَلَغَنِي عَنْ سُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، أَنَّهُ قَالَ: مَنْ تَرَأَّسَ فِي حَدَاثَتِهِ كَانَ أَدْنَى عُقُوبَتِهِ أَنْ يَفُوتَهُ حَظٌّ كَبِيرٌ مِنَ الْعِلْمِ.

- وَعَنْ أَبِي حَنِيفَةَ، رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ، أَنَّهُ قَالَ: مَنْ طَلَبَ الرِّيَاسَةَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ أَوَانِهِ لَمْ يَزَلْ فِي ذُلٍّ مَا بَقِيَ.

أَنْشَدَ مَنْصُورُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ لِنَفْسِهِ:

الْكَلْبُ أَكْرَمُ عِشْرَةً وَهُوَ النِّهَايَةُ فِي الْخَسَاسَةْ
مِمَّنْ يُنَازِعُ فِي الرِّيَاسَةِ قَبْلَ أَوْقَاتِ الرِّيَاسَةْ

يُرْفَعَ العِلْمُ، ويَكْثُرَ الجَهْلُ، ويَكْثُرَ الزِّنَا، ويَكْثُرَ شُرْبُ الخَمْرِ، ويَقِلَّ الرِّجَالُ، ويَكْثُرَ النِّسَاءُ حتَّى يَكونَ لِخَمْسِينَ امْرَأَةً القَيِّمُ الوَاحِدُ.

[1] سبق ذكره وتفسيره.

- قِيلَ لِلْمُبَرِّدِ[١]: لِمَ صَارَ أَبُو الْعَبَّاسِ أَحْفَظَ مِنْكَ لِلْغَرِيبِ وَالشِّعْرِ؟ يَعْنِي أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى[٢]، قَالَ: «لِأَنِّي تَرَأَّسْتُ وَأَنَا حَدَثٌ وَتَرَأَّسَ وَهُوَ شَيْخٌ».

- قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: "جَلَسْنَا[٣] إِلَى عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ[٤] فَأَحَطْنَا بِهِ، فَنَظَرَ إِلَيْنَا فَقَالَ: "شِنْتُمُ الْعِلْمَ وَذَهَبْتُمْ بِنُورِهِ، لَوْ أَدْرَكَنِي وَإِيَّاكُمْ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

---

[١] أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر المعروف بالْمُبَرِّد (٢١٠ - ٢٨٥ هـ): أحد العلماء الجهابذة في علوم البلاغة والنحو والنقد، عاش في العصر العباسي في القرن الثالث الهجري.

[٢] أبو العباس أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار، البغدادي النحوي، الشيباني المعروف بثعلب (٢٠٠ - ٢٩١ هـ): إمام الكوفيين في عهده، وثالث ثلاثة قامت على أعمالهم مدرسة الكوفة النحوية، العلامة المحدث، وإمام النحو، صاحب الفصيح والتصانيف، ولد ببغداد في السنة الثانية من خلافة المأمون وبها مات. كان راوياً للشعر، ومحدّثاً مشهوراً بالحفظ وصدق اللهجة والمعرفة بالغريب ورواية الشعر القديم، مقدماً عند الشيوخ منذ حداثته. وسمي ثعلباً لأنه كان إذا سئل عن مسألة أجاب من ههنا وههنا فشبهوه بالثعلب في روغانه.

[٣] يعني أهل الحديث.

[٤] عبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب، أبو عثمان القرشي العدوي ثم العمري المدني. وُلد سنة واحد وسبعين، ولحق أم خالد بنت خالد الصحابية، وسمع منها، فهو من صغار التابعين. كان عبيد الله من سادات أهل المدينة، أحد الفقهاء السبعة والعلماء الأثبات بالمدينة. كان من ساداتها ومن أشراف قريش فضلًا وعلمًا وشرفًا، وعبادة، وحفظًا، وإنفاقًا. مات سنة خمس وأربعين ومائة.

لَأَوْجَعَنَا ضَرْبًا، فمَا أَنَا أَهْلٌ لِأَنْ أُحَدِّثَ، وَلَا أَنْتُمْ أَهْلٌ لِأَنْ تُحَدِّثُوا، وَمَا مَثَلِي وَمَثَلُكُمْ إِلَّا كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ: افْتَضَحُوا فَاصْطَلَحُوا"[١].

- عَنْ رَجُلٍ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ[٢] قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ وَارَتِ الْقُبُورُ أَقْوَامًا لَوْ رَأَوْنِي مَعَكُمْ سَخِرُوا مِنِّي»[٣].

- قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: "كَيْفَ بِكُمْ إِذْ أَلْبَسَتْكُمْ فِتْنَةٌ يَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ وَيَهْرَمُ فِيهَا الْكَبِيرُ، وَتُتَّخَذُ سُنَّةً، فَإِنْ غُيِّرَتْ يَوْمًا قِيلَ: هَذَا مُنْكَرٌ! قَالُوا: وَمَتَى ذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ؟ قَالَ: ذَاكَ إِذَا قَلَّتْ أُمَنَاؤُكُمْ، وَكَثُرَ أُمَرَاؤُكُمْ، وَقَلَّتْ فُقَهَاؤُكُمْ، وَكَثُرَ قُرَّاؤُكُمْ، وَتُفُقِّهَ لِغَيْرِ الدِّينِ، وَالْتُمِسَتِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ"[٤].

عن وَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ذِكْرُهُ فِيمَا نَعَتَ، يَعِيبُ بِهِ أَحْبَارَ بَنِي إِسْرَائِيلَ: « تَتَفَقَّهُونَ لِغَيْرِ الدِّينِ، وَتَتَعَلَّمُونَ لِغَيْرِ الْعَمَلِ، وَتَتَنَازَعُونَ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الْآخِرَةِ، تَلْبَسُونَ جُلُودَ الضَّأْنِ، وَتُخْفُونَ أَنْفُسَ الذِّئَابِ، وَتَنْفُونَ الْقَذَاءَ[٥]

---

[١] صحيح، أخرجه أحمد في "العلل" والدارمي في "سننه" وابن أبي خيثمة في "تاريخه" من طرق عن سفيان بنحوه.

[٢] هو المِسْوَر بن مَخْرَمَة. انظر الهامش التالي.

[٣] في السنن الكبرى للبيهقي، كتاب المواعظ: عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، عَنِ الْمِسْوَرِ بْنِ مَخْرَمَةَ، قَالَ: «لَقَدْ وَارَتِ الْقُبُورُ أَقْوَامًا، لَوْ رَأَوْنِي جَالِسًا مَعَكُمْ لَاسْتَحْيَيْتُ».

[٤] رواه الدارمي والحاكم وعبدالرزاق.

[٥] قَذَى الشَّرَابِ: مَا يَقَعُ فِيهِ مِنْ تِبْنٍ وَحَصىً وَتُرَابٍ.

مِنْ شَرَابِكُمْ، وَتَبْتَلِعُونَ أَمْثَالَ الْجِبَالِ مِنَ الْحَرَامِ، وَتُثَقِّلُونَ الدِّينَ عَلَى النَّاسِ أَمْثَالَ الْجِبَالِ، ثُمَّ لَا تُعِينُوهُمْ بِرَفْعِ الْخَنَاصِيرِ[١]، وَتُطِيلُونَ الصَّلَاةَ، وَتُبَيِّضُونَ الثِّيَابَ، تَقْتَنِصُونَ بِذَلِكَ مَالَ الْيَتِيمِ وَالْأَرْمَلَةِ، فَبِعِزَّتِي حَلَفْتُ، لَأَضْرِبَنَّكُمْ بِفِتْنَةٍ يَضِلُّ فِيهَا رَأْيُ ذِي الرَّأْيِ، وَحِكْمَةُ الْحَكِيمِ»[٢].

- عَنِ الْحَسَنِ[٣] قَالَ: "طَلَبَ هَذَا الْعِلْمَ ثَلَاثَةُ أَصْنَافٍ مِنَ النَّاسِ؛ فَاعْرِفُوهُمْ بِصِفَاتِهِمْ: فَصِنْفٌ تَعَلَّمُوهُ لِلْمِرَاءِ وَالْجَهْلِ، وَصِنْفٌ تَعَلَّمُوهُ لِلِاسْتِطَالَةِ وَالْخَتْلِ[٤]، وَصِنْفٌ تَعَلَّمُوهُ لِلتَّفَقُّهِ وَالْعَقْلِ، فَصَاحِبُ الْمِرَاءِ وَالْجَهْلِ مُتَعَرِّضٌ لِلْقِتَالِ فِي أَنْدِيَةِ الرِّجَالِ، يُذَاكِرُ الْعِلْمَ بِخِفَّةِ الْحِلْمِ، قَدْ تَسَرْبَلَ الْجَشَعَ وَتَبَرَّأَ مِنَ الْوَرَعِ، فَدَقَّ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ هَذَا خَيْشُومَهُ وَقَطَعَ مِنَ الحَزْمِ حَيْزُومَهُ، وَصَاحِبُ الِاسْتِطَالَةِ وَالْخَتْلِ ذُو خِبٍّ وَمَلَقٍ، يَسْتَطِيلُ عَلَى أَشْبَاهِهِ مِنْ أَمْثَالِهِ فَيَخْتِلُهُمْ بِخَلْعِ جَبِينِهِ[٥]، فَهُوَ لِحُلْوَانِهِمْ[٦] هَاضِمٌ، وَلِدِينِهِ حَاطِمٌ، فَأَعْمَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى هَذَا خَبَرَهُ، وَقَطَعَ مِنْ آثَارِ الْعُلَمَاءِ أَثَرَهُ، وَصَاحِبُ التَّفَقُّهِ وَالْعَقْلِ ذُو كَآبَةٍ وَحُزْنٍ، قَدْ

---

[١] جمع خنصر، وهو الأصبع الصغرى في اليد.

[٢] انظر الحلية، ترجمة وهب بن منبه.

[٣] البصري.

[٤] الخَتْلُ: الخِداع. يقال: ختلت الصيد وختلت الرجل ختلًا.

[٥] هكذا، ولعله تحريف، ففي بعض الروايات: بخلع حليته.

[٦] حلوانهم: رشوتهم. وفي رواية: لحلوائهم هاضم (بالهمزة).

تَنَحَّى فِي بُرْنُسِهِ[١]، وَقَامَ اللَّيْلَ فِي حِنْدِسِهِ[٢]، يَعْمَلُ وَيَخْشَعُ، قَدْ أَكْأَدَتَاهُ يَدَاهُ[٣]، وَأَعْمَدَتَاهُ رِجْلَاهُ[٤]، فَهُوَ مُقْبِلٌ عَلَى شَانِهِ، عَارِفٌ بِأَهْلِ زَمَانِهِ، قَدِ اسْتَوْحَشَ مِنْ كُلِّ ذِي ثِقَةٍ مِنْ أَقْرَانِهِ، فَشَدَّ اللهُ مِنْ هَذَا أَرْكَانَهُ وَأَعْطَاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمَانَهُ"[٥].

- عَنْ يَزِيدَ بْنِ أَبِي حَبِيبٍ[٦] قَالَ: "إِنَّ مِنْ فِتْنَةِ الْعَالِمِ الْفَقِيهِ أَنْ يَكُونَ الْكَلَامُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنَ الِاسْتِمَاعِ، وَإِنْ وَجَدَ مَنْ يَكْفِيهِ، وَفِي الِاسْتِمَاعِ سَلَامَةٌ وَزِيَادَةٌ

---

[١] تَنَحَّى فِي بُرْنُسِهِ: أي توجه للصلاة وأقبل عليها، وكل من قصد قصد شيء فقد تَنَحَّى له (الخطابي).

[٢] الحِنْدِسُ: سواد الليل وظلمته، يقال: ليل حِنْدِس: أي مظلم (الخطابي).

[٣] أَكْأَدَتَاه يداه: أي أتعبتاه. يقال: أَكْأَدَنِي الأمر وتكاءدني الشيء: إذا شق عليك، وعقبة كَؤُود وكَأْدَاء: أي ذات مشقة (الخطابي).

[٤] وأَعْمَدَتَاه رجلاه: أي صيرتاه عميدًا؛ لطول اعتماده في القيام عليهما، والعَمِيْد: المريض الذي لا يستطيع أن يثبت على المكان حتى يُعْمَد من جوانبه ويرفد (الخطابي).

[٥] رواه الخطابي في غريب الحديث، وفسر ألفاظه، كما في الهوامش السابقة.

[٦] يزيد بن أبي حبيب الأزدي المصري (٥٣ - ١٢٨ هـ): فقيه ومُحدّث من الثقات من صغار التابعين، ومفتي مصر وعالمها، وُلد في خلافة معاوية بن أبي سفيان بالفسطاط، وهو من صغار التابعين، نوبي الأصل، أسود اللون، يرجع نسبه إلى «دنقلا»، أخذ العلم عن بعض الصحابة وكبار التابعين الذين أقاموا بمصر، وأدرك عبد الله بن الحارث بن جزء الزبيدي الصحابي وحدَّث عنه.

فِي الْعِلْمِ، وَفِي الْكَلَامِ – إِلَّا مَنْ عَصَمَ اللَّهُ – تَنَمُّقٌ[١] وَتَزَيُّنٌ، وَزِيَادَةٌ وَنُقْصَانٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرَى أَنَّ بَعْضَ النَّاسِ لِشَرَفِهِ وَوَجْهِهِ أَحَقُّ بِالْكَلَامِ مِنْ غَيْرِهِ، وَيَزْدَرِي الْمَسَاكِينَ وَلَا يَرَاهُمْ مِنْ ذَلِكَ مَوْضِعًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَخْزُنُ عِلْمَهُ، وَلَا يُحِبُّ أَنْ يُوجَدَ إِلَّا عِنْدَهُ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَأْخُذُ فِي عِلْمِهِ بِأَخْذِ السُّلْطَانِ حَتَّى يَغْضَبَ أَنْ يُرَدَّ عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ قَوْلِهِ أَوْ يُغْفَلَ عَنْ شَيْءٍ مِنْ حَقِّهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْصِبُ نَفْسَهُ لِلْفُتْيَا، وَلَعَلَّهُ يُؤْتَى بِالْأَمْرِ لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ فَيَسْتَحِيِي أَنْ يَقُولَ لَا عِلْمَ لِي؛ فَيَرْجُمَ[٢] فَيُكْتَبَ مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَرْوِي كُلَّ مَا سَمِعَ حَتَّى يَرْوِيَ كَلَامَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى؛ إِرَادَةَ أَنْ يُغْزِرَ كَلَامَهُ"[٣].

– قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ[٤]: «وَيْلٌ لِلَّذِي لَا يَعْلَمُ، مرةً، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى لَعَلَّمَهُ، وَوَيْلٌ لِلَّذِي يَعْلَمُ وَهُوَ لَا يَعْمَلُ بِهِ، سَبْعَ مَرَّاتٍ»[٥].

---

[١] تنمُّق: تزيين.

[٢] رجم بالظنّ: رمى به، وخمَّن.

[٣] انظر: الصمت وآداب اللسان لابن أبي الدنيا، باب النهي عن فضول الكلام، وكتاب الزهد والرقائق لابن المبارك، باب من طلب العلم لعرض في الدنيا.

[٤] لعله أبو الدرداء، انظر الهامش التالي.

[٥] أخْرَجَ ابْنُ سَعْدٍ وابْنُ أَبِي شَيْبَةَ وأَحْمَدُ في الزُّهْدِ عَنْ أَبِي الدَّرْداءِ قالَ: ويْلٌ لِلَّذِي لا يَعْلَمُ مَرَّةً ولَوْ شاءَ اللَّهُ لَعَلَّمَهُ، ووَيْلٌ لِلَّذِي يَعْلَمُ ولا يَعْمَلُ سَبْعَ مَرّاتٍ.

- عن سَعِيدِ بْنِ مَسْرُوقٍ[١] قالَ: كَانَ يُقَالُ: «ذَهَبَ الْعِلْمُ وَبَقِيَتْ بَقِيَّةٌ فِي أَوْعِيَةِ سُوءٍ»[٢].

- قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ[٣]: "خَرَجْتُ غَلَسًا أُرِيدُ ضَيْعَةً لِي فَإِذَا أَنَا بِرُقْعَةٍ تَهْفُو بِهَا الرِّيحُ، فَلَمَّا أَضَاءَ لِيَ الصُّبْحُ نَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا:

عِشْ مُوسِرًا إِنْ شِئْتَ أَوْ مُعْسِرًا ... لَا بُدَّ فِي الدُّنْيَا مِنَ الْغَمِّ
وَكُلَّمَا زَادَكَ مِنْ نِعْمَةٍ ... زَادَ الَّذِي زَادَكَ فِي الْهَمِّ
إِنِّي رَأَيْتُ النَّاسَ فِي دَهْرِنَا ... لَا يَطْلُبُونَ الْعِلْمَ لِلْعِلْمِ
إِلَّا مُبَاهَاةً لِإِخْوَانِهِمْ ... وَحُجَّةً لِلْخَصْمِ وَالظُّلْمِ[٤]

---

[١] سعيد بن مسروق بن حمزة الثوري التميمي الكوفي: من أئمة الحديث وهو ثقة متقن، وهو والد سفيان الثوري، مات سنة ثمان وعشرين ومائة. وهو من أصحاب عامر الشعبي وخيثمة بن عبد الرحمن، ويُعدُّ من ثقات الكوفيين، وهو في عداد صغار التابعين.

[٢] انظر: معجم شيوخ ابن الأعرابي، وفي سير أعلام النبلاء عن ابن سيرين.

[٣] عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج الأموي (٨٠ - ١٥٠ هـ): أحد العلماء الفقهاء وقرّاء القرآن ورواة الحديث عند أهل السنة والجماعة. وهو من تابعي التابعين.

[٤] قال ابن مفلح في "الآداب الشرعية والمنح المرعية"، وابن الجوزي في "مناقب الإمام أحمد": قَالَ أَبُو يَعْلَى الْمُوصِلِيُّ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ يَقُولُ: خَرَجْتُ فِي وَجْهِ الصُّبْحِ فَإِذَا أَنَا بِرَجُلٍ مُسْبِلٍ مِنْدِيلَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَنَاوَلَنِي رُقْعَةً، فَلَمَّا أَضَاءَ الصُّبْحُ قَرَأْتُهَا فَإِذَا فِيهَا مَكْتُوبٌ... الأبيات. قَالَ: فَظَنَنْتُ أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ يَحْيَى الذُّهْلِيُّ نَاوَلَنِي، فَلَقِيتُهُ فَقُلْتُ لَهُ: الرُّقْعَةُ الَّتِي نَاوَلْتَنِي، فَقَالَ: مَا رَأَيْتُكَ ومَا نَاوَلْتُكَ رُقْعَةً، فَعَلِمْتُ أَنَّهَا عِظَةٌ لِي.

قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: فَلَقَدْ مَنَعَتْنِي هَذِهِ الْأَبْيَاتُ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً.

- عَنِ الْأَعْمَشِ قَالَ: "مَا فِي الدُّنْيَا قَوْمٌ شَرٌّ مِنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ[١]. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَأَنْكَرْتُهَا عَلَيْهِ حَتَّى رَأَيْتُ مِنْهُمْ مَا أعلمُ"[٢].

- قَالَ سَهْلُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ: "كُنَّا عِنْدَ أَبِي خَلِيفَةَ فَرَأَى مِنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ بِدْعَةً سَيِّئَةً فَقَالَ: صَدَقَ عَمْرُو بْنُ الْحَارِثِ[٣]. فَقُلْنَا: وَمَا قَالَ ابْنُ الْحَارِثِ؟ قَالَ: قَالَ عَمْرُو[٤] بْنُ الْحَارِثِ: «مَا عِلْمٌ أَشْرَفُ، وَلَا قَوْمٌ أَسْخَفُ مِنَ الْحَدِيثِ وَأَهْلِهِ»[٥].

---

[١] يقصد المقصرين المبتدعين الذين لا يعملون بعلمهم، وإلا فإن علوم الحديث من أشرف العلوم.

[٢] انظر: شرف أصحاب الحديث للخطيب البغدادي للخطيب البغدادي، في أخبار الأعمش.

[٣] عمرو بن الحارث بن يعقوب بن عبد الله، الأنصاري السعدي المدني الأصل المصري: يوصف بالعلامة الحافظ الثبت، ويلقب عالم الديار المصرية ومفتيها. ولد بعد عام ٩٠ هـ وتوفي سنة سبع وأربعين ومائة.

[٤] في المطبوعة: عمر. وهو خطأ من الناسخ.

[٥] انظر: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي.

– عن شُعْبَةَ[١] قالَ: «إِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ يَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ»[٢].

وحِينَ قَالَ شُعْبَةُ هَذَا الْكَلَامَ رُئِيَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِ الْحَدِيثِ صَلَّى، وَقَدْ فَاتَتْهُ رَكْعَةٌ، فَلَمَّا سَلَّمَ الْإِمَامُ سَلَّمَ وَأَخَذَ دَفَاتِرَهُ وَلَمْ يُصَلِّ الرَّكْعَةَ الَّتِي فَاتَتْهُ[٣].

– ازْدَحَمَ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ عَلَى هُشَيْمٍ[٤] فَطَرَحُوهُ عَنْ حِمَارِهِ، فَكَانَ سَبَبَ مَوْتِهِ.

– قَالَ يَحْيَى بْنُ حَسَّانَ: "كُنَّا عِنْدَ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ وَهُوَ يُحَدِّثُ، فَازْدَحَمَتْ فِرْقَةٌ مِنَ النَّاسِ عَلَى مَحْمَلِ شَيْخٍ ضَعِيفٍ فَانْتَهَبُوهُ، وَدَقُّوا يَدَ الشَّيْخِ، فَجَعَلَ

---

[١] في حلية الأولياء عن مسعر بن كدام.

[٢] قال الخطيب البغدادي في "شرف أصحاب الحديث": عن أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ، وَسُئِلَ عَنْ قَوْلِ، شُعْبَةَ: إِنَّ هَذَا الْحَدِيثَ يَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ، وَعَنِ الصَّلَاةِ، فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ؟ فَقَالَ: «لَعَلَّ شُعْبَةَ كَانَ يَصُومُ، فَإِذَا طَلَبَ الْحَدِيثَ وَسَعَى فِيهِ يَضْعُفُ، فَلَا يَصُومُ، أَوْ يُرِيدُ شَيْئًا مِنْ أَعْمَالِ الْبِرِّ، فَلَا يَقْدِرُ أَنْ يَفْعَلَهُ لِلطَّلَبِ. فَهَذَا مَعْنَاهُ».

[٣] لحرصه على إدراك درس الحديث كان مشغول الذهن فنسي الركعة الأخيرة فسلم وقام دون أن ينتبه.

[٤] هشيم بن بشير بن أبي خازم قاسم بن دينار السلمي الواسطي: من حفاظ الحديث الثقات، روى له أصحاب الكتب الستة ولد سنة ١٠٤ هـ، وسكن بغداد، وصنف التصانيف ، قال يعقوب الدورقي :«كان عند هشيم عشرون ألف حديث». توفّي ببغداد في شعبان سنة ١٨٣ هـ في خلافة هارون الرشيد، وهو يومئذٍ ابن تسع وسبعين سنة، ودفن في مقابر الخَيْزُرَان.

الشَّيْخُ يَصِيحُ: سُفْيَانُ، لَا جَعَلْتُكَ مِمَّا عَمِلُوا بِي فِي حِلٍّ، وَسُفْيَانُ لَا يَسْمَعُ، حَتَّى نَظَرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَنَعُوا بِالشَّيْخِ مَا صَنَعُوا فَقَالَ لَهُ: مَا يَقُولُ الشَّيْخُ؟ قَالَ: يَقُولُ: زِدْنَا فِي السَّمَاعِ".

بَابٌ فِي آفَاتِ الْقُرَّاءِ[١]

– قَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: مَثَلُ قُرَّاءِ هَذَا الزَّمَانِ كَمَثَلِ رَجُلٍ نَصَبَ فَخًّا وَنَصَبَ فِيهِ بُرَّةً[٢]، فَجَاءَ عُصْفُورٌ فَوَقَعَ قَرِيبًا مِنْهُ، فَقَالَ لَهُ: مَا غَيَّبَكَ فِي التُّرَابِ؟ فَقَالَ: التَّوَاضُعُ، فَقَالَ: مِمَّ انْحَنَيْتَ؟ قَالَ: مِنْ طُولِ الْعِبَادَةِ، فَقَالَ: مَا هَذِهِ الْبُرَّةُ الْمَنْصُوبَةُ فِيكَ؟ قَالَ: أَعْدَدْتُهَا لِلصَّائِمِينَ. قَالَ: نِعْمَ الْجَارُ أَنْتَ. فَلَمَّا أَمْسَى وَغَابَتِ الشَّمْسُ دَنَا الْعُصْفُورُ فَأَخَذَ الْبُرَّةَ فَخَنَقَهُ الْفَخُّ، قَالَ الْعُصْفُورُ: إِنْ كَانَ كُلُّ الْعُبَّادِ يَخْنُقُونَ خَنْقَكَ فَلَا خَيْرَ فِي الْعُبَّادِ الْيَوْمَ".

– عن مُغِيرَةَ قالَ: «وَاللَّهِ أَنَا مِنْكُمْ أَخْوَفُ مِنِّي مِنَ الْفُسَّاقِ»[٣].

---

[١] القراء: العبّاد.

[٢] حبة قمح.

[٣] انظر: كتاب تاريخ ابن معين.

- كَتَبَ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ[١] إِلَى بَعْضِ أَصْحَابِهِ: اكْتَرِ لِي مَنْزِلًا، وَلَا تَكْتَرِ بَيْنَ الْقُرَّاءِ، فَإِنِّي أَتَخَوَّفُ أَنْ أَقُولَ تُفَّاحَةً فَيَقُولُونَ لُفَّاحَةً، فَإِذَا لَمْ أُجِبْهُمْ إِلَى تِلْكَ ذَهَبُوا فَهَيَّأُوا بَيْتًا، وَهَيَّأُوا فِيهِ طُنْبُورًا وَغُلَامًا وَخَمْرًا، وَدَعَوْنِي وَأَنَا لَا أَدْرِي، وَدَعَوُا النَّاسَ فَقَالُوا: تَعَالَوُا انْظُرُوا مَا مَعَ يُوسُفَ".

- عن مَالِكِ بْنِ دِينَارٍ قالَ: «أُجِيزُ شَهَادَةَ الْقُرَّاءِ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ، وَجَدْتُهُمْ أَشَدَّ تَحَاسُدًا مِنَ التُّيُوسِ؛ تُوثَقُ الشَّاةُ فَيُرْسَلُ عَلَيْهَا التَّيْسُ فَيَهُبُّ هَذَا وَيَهُبُّ هَذَا».

- قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: «لَأَنْ أَصْحَبَ فَتًى أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَصْحَبَ قَارِئًا».

- زَارَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ نَيْسَابُورَ، وَكَانَ يُنْسَبُ إِلَى الزُّهْدِ وَالتَّقَشُّفِ، فَلَمَّا دَخَلَ إِلَيْهِ لَمْ يُقْبِلْ عَلَيْهِ الرَّجُلُ وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، فَلَمَّا خَرَجَ مِنْ عِنْدِهِ أُخْبِرَ بِمَكَانِهِ وَأُعْلِمَ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ يَعْتَذِرُ وَيَتَنَصَّلُ، وَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ اعْذُرْنِي وَعِظْنِي، قَالَ: نَعَمْ! إِذَا خَرَجْتَ مِنْ مَنْزِلِكَ فَلَا يَقَعْ بَصَرُكَ عَلَى أَحَدٍ إِلَّا أُرِيتَ أَنَّهُ خَيْرٌ مِنْكَ. وَذَلِكَ أَنَّهُ رَآهُ مُعْجَبًا بِنَفْسِهِ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْهُ فَإِذَا هُوَ حَائِكٌ".

---

[١] يوسف بن أسباط بن واصل الشيباني (ت ١٩٥ هـ): محدّث، اشتهر بالزهد. كان مقامه الصوفي هو العلم والخوف، والتصوف عنده هو "التَّخلي والتحلّي"، حيث تخلى عن الدنيا وتحلى بالزهد.

- عَنْ سُفْيَانَ قَالَ: «مَنْ لَمْ يَتَفَتَّ لَمْ يُحْسِنْ يَتَقَرَّأَ»[١].

فإِنَّ مِنْ عَادَةِ الْفِتْيَانِ وَمَنْ أَخَذَ بِأَخْذِهِمْ بَشَاشَةَ الْوَجْهِ وَسَجَاحَةَ الْخُلُقِ وَلِينَ الْعَرِيكَةِ، وَمِنْ شِيمَةِ الْأَكْثَرِينَ مِنَ الْقُرَّاءِ الْكَزَازَةُ وَسُوءُ الْخُلُقِ، فَمَنِ انْتَقَلَ مِنَ الْفُتُوَّةِ إِلَى الْقِرَاءَةِ كَانَ جَدِيرًا أَنْ يَتَبَاقَى مَعَهُ ذلكَ الذَّوْقُ[٢] وَالْهَشَاشَةُ، وَمَنْ تَقَرَّأَ فِي صِبَاهُ لَمْ يَخْلُ مِنْ جَفْوَةٍ أَوْ غِلْظَةٍ.

وَقَدْ يَتَوَجَّهُ قَوْلُ سُفْيَانَ إِلَى وَجْهٍ آخَرَ وَهُوَ أَنَّهُ إِذَا انْتَقَلَ مِنَ الْفُتُوَّةِ إِلَى الْقِرَاءَةِ كَانَ مَعَهُ الْأَسَفُ عَلَى مَا مَضَى، وَالنَّدَمُ عَلَى مَا فَرَطَ مِنْهُ، فَكَانَ أَقْرَبَ لَهُ إِلَى أَنْ لَا يُعْجَبَ بِعَمَلٍ صَالِحٍ يَكُونُ مِنْهُ، وَإِذَا كَانَ عَارِفًا بِالشَّرِّ كَانَ أَشَدَّ لِحَذَرِهِ وَأَبْعَدَ مِنَ الْوُقُوعِ فِيهِ.

- عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ قَالَ: "كَانَ يُعْجِبُهُمْ أَنْ يَكُونَ لِلشَّابِّ صَبْوَةٌ"[٣]، قَالَ الْأَعْمَشُ: يَخَافُ وَيَحْذَرُ وَيَجْتَهِدُ[٤].

---

[١] انظر: الحلية لأبي نعيم، وغريب الحديث للخطابي. والتفتي من الفتوة، وهو عمل الفتيان، ويتقرأ أي: يتنسك.

[٢] الذَّوْقُ: آدابُ السلوك التي تقتضي معرفة ما هو لائق أو مناسب في موقف اجتماعيّ معيّن.

[٣] أخرجه عبدُ اللهِ بنُ أحمدَ في زوائده على الزهد.

[٤] والمعنى: وإنما كان يعجبُهم ذلك منه - وإن كان تركُ الصِّبا أسلمَ له - لأنه إذا تابَ وارْعَوَى كان أشدَّ لاجتهادِه في الطاعةِ، وأكثرَ لندَمِه على ما فرَّط منه، وأبعدَ له من أن يُعجَبَ بعملِه أو يتَّكِلَ

- قَالَ أَبُو حَازِمٍ[١]: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ السَّيِّئَةَ ما عَمِلَ حَسَنَةً قَطُّ أَنْفَعَ لَهُ مِنْهَا، وَإِنَّهُ لَيَعْمَلُ الْحَسَنَةَ ما عَمِلَ سَيِّئَةً قَطُّ أَضَرَّ عَلَيْهِ مِنْهَا»[٢].

قَالَ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: مَعْنَاهُ أَنْ يَعْمَلَ الذَّنْبَ فَلَا يَزَالُ مِنْهُ مُشْفِقًا حَذِرًا أَنْ يُعَاوِدَهُ فَيَنْفَعَهُ ذَلِكَ، وَيَعْمَلَ الْحَسَنَةَ فَيَحْتَسِبَ بِهَا عَلَى رَبِّهِ تَعَالَى وَيُعْجَبَ بِهَا، وَيَتَّكِلَ عَلَيْهَا فَتُهْلِكَهُ.

وإِنَّ فِتْنَةَ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُمْ مِنَ الْقُرَّاءِ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ عَلَى النَّاسِ، وَالْمَئُونَةَ فِي مُعَاشَرَتِهِمْ عَلَى الْخَاصَّةِ مَئُونَةٌ غَلِيظَةٌ؛ وَذَلِكَ أَنَّ جَهْلَهُمْ يَحْمِلُهُمْ عَلَى الْإِعْجَابِ بِأَنْفُسِهِمْ، وَسِيمَاهُمْ وَالظَّاهِرُ مِنْ شَمَائِلِهِمْ يَدْعُو الْجُهَّالَ مِنَ الْعَامَّةِ إِلَى تَعْظِيمِهِمْ وَالْمَيْلِ إِلَيْهِمْ وَالتَّعَصُّبِ لَهُمْ. فَمَنْ رَامَ مِنَ الْخَاصَّةِ إِرْشَادَهُمْ وَتَعْلِيمَهُمْ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِمَلَامِهِمْ وَاسْتُهْدِفَ لِسِهَامِهِمْ، فَمُدَارَاتُهُمْ غُصَّةٌ وَهُجْنَةٌ، وَمُكَاشَفَتُهُمْ شُهْرَةٌ وَفِتْنَةٌ، وَشَرُّهُمْ طَوَائِفُ مِنْ أَصْحَابِ الْعُزْلَةِ وَالتَّبَتُّلِ

عليه. وفي قولِ إبراهيمَ وجهٌ آخرُ: وهو إنما حَمِدَها له لئلَّا يُؤتى من ناحيَةِ الغفلةِ، فيقعَ في الشرِّ وهو لا يعلمُ.

[١] سلمة بن دينار المديني وكنيته أبو حازم: إمام قدوة وعالم واعظ، شيخ المدينة النبوية. مات سنة ١٣٣ هـ.

[٢] انظر: الزهد والرقائق لابن المبارك، باب ما جاء في الخشوع والخوف، وشرح السنة للبغوي، باب الرجاء وسعة رحمة الله عز وجل. والحلية، ترجمة سلمة بن دينار. والخطابي في غريب الحديث.

وَأَهْلِ التَّصَوُّفِ وَالتَّبَطُّلِ؛ فَإِنَّهُمْ جُهَّالٌ لَا يَتَعَلَّمُونَ، وَمَرَدَةٌ لَا يَنْقَادُونَ، قَدْ مَلَكَ الشَّيْطَانُ قِيَادَهُمْ فَهُمْ وَالْعِلْمُ عَلَى تَضَادٍّ وَخِلَافٍ.

- كَانَ الشَّافِعِيُّ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ رَجُلًا عَطِرًا، وَكَانَ يَجِيءُ غُلَامُهُ كُلَّ غَدَاةٍ بِغَالِيَةٍ[١] فَيَمْسَحُ بِهَا الْأُسْطوَانَةَ الَّتِي يَجْلِسُ إِلَيْهَا، وَكَانَ إِلَى جَنْبِهِ إِنْسَانٌ مِنَ الصُّوفِيَّةِ، وَكَانَ يُسَمِّي الشَّافِعِيَّ الْبَطَّالَ، يَقُولُ: هَذَا الْبَطَّالُ وَهَذَا الْبَطَّالُ، فَلَمَّا كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ عَمَدَ إِلَى شَارِبِهِ فَوَضَعَ فِيهِ قَذَرًا، ثُمَّ جَاءَ إِلَى حَلْقَةِ الشَّافِعِيِّ، فَلَمَّا شَمَّ الشَّافِعِيُّ الرَّائِحَةَ أَنْكَرَهَا وَقَالَ: فَتِّشُوا نِعَالَكُمْ، فَقَالُوا: مَا نَرَى شَيْئًا يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، قَالَ: فَلْيُفَتِّشْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا، فَوَجَدُوا ذَلِكَ الرَّجُلَ، فَقَالُوا: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ هَذَا، فَقَالَ لَهُ: مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا؟ قَالَ: رَأَيْتُ تَجَبُّرَكَ فَأَرَدْتُ أَنْ أَتَوَاضَعَ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: خُذُوهُ فَاذْهَبُوا بِهِ إِلَى عَبْدِ الْوَاحِدِ، وَكَانَ عَلَى الشُّرْطَةِ، فَقُولُوا لَهُ: يقولُ لَكَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ اعْتَقِلْ هَذَا إِلَى وَقْتِ نَنْصَرِفُ، فَلَمَّا خَرَجَ الشَّافِعِيُّ دَخَلَ إِلَيْهِ فَدَعَا بِهِ فَضَرَبَهُ ثَلَاثِينَ دِرَّةً أَوْ أَرْبَعِينَ دِرَّةً وقَالَ: هَذَا بما تَخَطَّيْتَ الْمَسْجِدَ بِالْقَذَرَةِ وَصَلَّيْتَ عَلَى غَيْرِ الطَّهَارَةِ"[٢].

---

[١] نوع من الطيب والعطر المخلوط من أجود أنواع الطيب.

[٢] انظر: مناقب الشافعي للبيهقي.

- كَانَ رَجُلٌ يَخْتَلِفُ إِلَى أَبِي ثَوْرٍ[١] وَكَانَ ذَا سَمْتٍ وَخُشُوعٍ، فَكَانَ أَبُو ثَوْرٍ إِذَا رَآهُ جَمَعَ نَفْسَهُ وَضَمَّ أَطْرَافَهُ وَقَيَّدَ كَلَامَهُ، فَغَابَ عَنْ مَجْلِسِهِ مُدَّةً فَتَعَرَّفَ خَبَرَهُ فَلَمْ يُوقَفْ لَهُ عَلَى أَثَرٍ، ثُمَّ عَادَ إِلَى الْمَجْلِسِ بَعْدَ مُدَّةٍ طَوِيلَةٍ وَقَدْ نَحَلَ جِسْمُهُ وَشَحَبَ لَوْنُهُ وَعَلَى إِحْدَى عَيْنَيْهِ قِطْعَةُ شَمْعٍ قَدْ أَلْصَقَهَا بِهَا، فَمَا كَادَ يَتَبَيَّنَهُ أَبُو ثَوْرٍ، ثُمَّ تَأَمَّلَهُ فَقَالَ لَهُ: أَلَسْتَ صَاحِبَنَا الَّذِي كُنْتَ تَأْتِينَا؟ قَالَ: بَلَى. قَالَ: فَمَا الَّذِي قَطَعَكَ عَنَّا؟ فَقَالَ: قَدْ رَزَقَنِي اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْإِنَابَةَ إِلَيْهِ وَحَبَّبَ إِلَيَّ الْخَلْوَةَ وَأَنِسْتُ بِالْوَحْدَةِ وَاشْتَغَلْتُ بِالْعِبَادَةِ. قَالَ لَهُ: فَمَا بَالُ عَيْنِكَ هَذِهِ؟ قَالَ: نَظَرْتُ إِلَى الدُّنْيَا فَإِذَا هِيَ دَارُ فِتْنَةٍ وَبَلَاءٍ قَدْ ذَمَّهَا اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْنَا وَعَابَهَا وَذَمَّ مَا فِيهَا، فَلَمْ يُمْكِنِّي تَغْمِيضُ عَيْنِيَّ كِلْتَيْهِمَا عَنْهَا، وَرَأَيْتُنِي وَأَنَا أُبْصِرُ بِإِحْدَيْهِمَا نَحْوًا مِمَّا أُبْصِرُ بِهِمَا جَمِيعًا؛ فَغَمَّضْتُ وَاحِدَةً وَتَرَكْتُ الْأُخْرَى. فَقَالَ لَهُ أَبُو ثَوْرٍ: وَمُنْذُ كَمْ هَذِهِ الشَّمْعَةُ عَلَى عَيْنِكَ؟ قَالَ: مُنْذُ شَهْرَيْنِ أَوْ نَحْوِهِمَا. قَالَ أَبُو ثَوْرٍ: يَا هَذَا أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ لِلَّهِ عَلَيْكَ صَلَاةَ شَهْرَيْنِ وَطَهَارَةَ شَهْرَيْنِ! انْظُرُوا إِلَى هَذَا الْبَائِسِ قَدْ خَدَعَهُ الشَّيْطَانُ فَاخْتَلَسَهُ مِنْ بَيْنِ أَهْلِ الْعِلْمِ. ثُمَّ وَكَلَ بِهِ مَنْ يَحْفَظُهُ وَيَتَعَهَّدُهُ وَيُلَقِّنُهُ الْعِلْمَ".

---

[١] أبو ثور إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان الكلبي البغدادي: فقيه من بغداد وصاحب الإمام الشافعي، وناقل الأقوال القديمة عنه، ويعد أحد أهم الفقهاء المأخوذ برأيهم. ذكر أنه حين قدم الشافعي العراق وأخذ عنه ترك مذهبه واتبع مذهب الشافعي حتى مات.

فَالْعُزْلَةُ إِنَّمَا تَنْفَعُ الْعُلَمَاءَ الْعُقَلَاءَ، وَهِيَ مِنْ أَضَرِّ شَيْءٍ عَلَى الْجُهَّالِ، وَقَدْ رُوِّينَا عَنْ إِبْرَاهِيمَ[١]، أَنَّهُ قَالَ لِمُغِيرَةَ[٢]: "تَفَقَّهْ ثُمَّ اعْتَزِلْ"[٣].

بَاب فِي فَسَادِ الْأَئِمَّةِ وَمَا جَاءَ فِي الْإِقْلَالِ مِنْ صُحْبَةِ السَّلَاطِينِ

- عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِكَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ[٤]: «أَعَاذَكَ اللَّهُ يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ» قَالَ: وَمَا إِمَارَةُ السُّفَهَاءِ؟ قَالَ: "أُمَرَاءُ يَكُونُونَ بَعْدِي لَا يَهْدُونَ بِهَدْيِي وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَأُولَئِكَ لَيْسُوا مِنِّي وَلَسْتُ مِنْهُمْ وَلَا يَرِدُونَ عَلَى حَوْضِي، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ فَأُولَئِكَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ وَسَيَرِدُونَ عَلَى حَوْضِي، يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ لَا يَدْخُلُ

---

[١] إبراهيم النخعي.

[٢] مغيرة بن مقسم الضبي، الكوفي الأعمى الفقيه، الإمام العلامة الثقة: من فقهاء التابعين بالكوفة، تابعي من صغار التابعين، ومن رواة الحديث، كان من أئمة الفروع، ذكره أبو إسحاق الشيرازي في طبقات الفقهاء. وكان من فقهاء أصحاب إبراهيم وكان أعمى. ويعد من الثقات.

[٣] رواه عن الربيع بن خثيم: ابن أبي الدنيا في العزلة والانفراد، وأحمد بن حنبل في الزهد، وأبو بكر البيهقي في الزهد الكبير.

[٤] الصحابي كعب بن عجرة البلوي الأنصاري السالمي المدني، حليف الخزرج من أهل بيعة الرضوان. توفي في المدينة عام (٥١ هـ).

الْجَنَّةَ لَحْمٌ نَبَتَ مِنْ سُحْتٍ أَبَدًا النَّارُ أَوْلَى بِهِ، يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ النَّاسُ غَادِيَانِ: فَمُبْتَاعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ بَائِعُهَا فَمُوبِقُهَا"[١].

- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْضَلُ الْجِهَادِ كَلِمَةُ عَدْلٍ عِنْدَ سُلْطَانٍ جَائِرٍ»[٢].

وإِنَّمَا كَانَ هَذَا أَفْضَلَ الْجِهَادِ لِأَنَّ مَنْ جَاهَدَ الْعَدُوَّ كَانَ عَلَى أَمَلٍ مِنَ الظَّفَرِ بِعَدُوِّهِ، وَلَا يَتَيَقَّنُ الْعَجْزَ عَنْهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَعْلَمُ يَقِينًا أَنَّهُ مَغْلُوبٌ، وَهَذَا يَعْلَمُ أَنَّ يَدَ سُلْطَانِهِ أَقْوَى مِنْ يَدِهِ، فَصَارَتِ الْمَثُوبَةُ فِيهِ عَلَى قَدْرِ عِظَمِ الْمَئُونَةِ.

ولَيْتَ شِعْرِي مَنِ الَّذِي يَدْخُلُ إِلَيْهِمُ الْيَوْمَ فَلَا يُصَدِّقُهُمْ عَلَى كَذِبِهِمْ! وَمَنِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِالْعَدْلِ إِذَا شَهِدَ مَجَالِسَهُمْ؟! وَمَنِ الَّذِي يَنْصَحُ؟! وَمَنِ الَّذِي يَنْتَصِحُ مِنْهُمْ؟! إِنَّهُ أَسْلَمُ لَكَ يَا أَخِي فِي هَذَا الزَّمَانِ وَأَحْوَطُ لِدِينِكَ أَنْ تُقِلَّ مِنْ مُخَالَطَتِهِمْ وَغَشَيَانِ أَبْوَابِهِمْ. وَنَسْأَلُ اللَّهَ الْغِنَى عَنْهُمْ وَالتَّوْفِيقَ لَهُمْ.

- عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «إِنَّ عَلَى أَبْوَابِ السُّلْطَانِ فِتَنًا كَمَبَارِكِ الْإِبِلِ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تُصِيبُونَ مِنْ دُنْيَاهُمْ شَيْئًا إِلَّا أَصَابُوا مِنْ دِينِكُمْ مِثْلَهُ»[٣].

---

[١] صححه الألباني.

[٢] صححه الألباني.

[٣] انظر: الجامع لمعمر بن راشد ٢٠٦٤٤، وشرح السنة للبغوي، وجامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر.

– سُمِعَ الْحَسَنُ يَقُولُ: «لَا تَجِيئَنَّ أَمِيرًا وَإِنْ دَعَاكَ لِتَقْرَأَ عِنْدَهُ سُورَةً مِنَ الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّكَ لَا تَخْرُجُ مِنْ عِنْدِهِ إِلَّا شَرًّا مِمَّا دَخَلْتَ».

– قَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ وَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: أَوْصِنِي يَا أَبَا عَبْدِ اللهِ! قَالَ: «إِيَّاكَ وَالْأَهْوَاءَ، إِيَّاكَ وَالسُّلْطَانَ».

– قَالَ سُفْيَانُ: "إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَنْجُوَ فَاجْتَنِبْ ثَلَاثًا: لَا تَدْخُلَنَّ عَلَى السُلْطَانِ، وَلَا تَدْخُلْ فِي وَصِيَّةٍ، وَلَا تَحُجَّ عَنْ مَيِّتٍ".

– قَالَ زِيَادٌ[١] لِجُلَسَائِهِ: "مَنْ أَغْبَطُ النَّاسِ عَيْشًا؟ قَالُوا: الْأَمِيرُ وَجُلَسَاؤُهُ. فَقَالَ: مَا صَنَعْتُمْ شَيْئًا؛ إِنَّ لِأَعْوَادِ الْمِنْبَرِ هَيْبَةً، وَإِنَّ لِقَرْعِ لِجَامِ الْبَرِيدِ لَفَزْعَةً، وَلَكِنَّ أَغْبَطَ النَّاسِ عِنْدِي رَجُلٌ لَهُ دَارٌ لَا يَجْرِي عَلَيْهِ كِرَاهَا، وَزَوْجَةٌ صَالِحَةٌ قَدْ رَضِيَتْهُ وَرَضِيَهَا فَهُمَا رَاضِيَانِ بِعَيْشِهِمَا لَا يَعْرِفُنَا وَلَا نَعْرِفُهُ، فَإِنَّهُ إِنْ عَرَفَنَا وَعَرَفْنَاهُ أَتْعَبَنَا لَيْلَهُ وَنَهَارَهُ وَأَذْهَبَنَا دِينَهُ وَدُنْيَاهُ".

– لِلْعَتَّابِيِّ:

تَلُومُ عَلَى تَرْكِ الْغِنَى بَاهِلِيَّةٌ زَوَى الدَّهْرُ عَنْهَا كُلَّ طِرْفٍ وَتَالِدِ
تَرَى حَوْلَهَا النِّسْوَانَ يَرْفُلْنَ فِي الْكُسَا مُقَلَّدَةً أَجْيَادُهَا بِالْقَلَائِدِ

---

[١] زياد بن أبيه: قائد عسكري ، كان من أعلام عهد الخلافة الراشدة، وسياسي أموي شهير، لم يعرف اسم أبيه ونسبه فقيل زياد بن عبيد الثقفي، وقيل ابن أبي سفيان بعد أن استلحقه معاوية بن أبي سفيان. ساهم في تثبيت الدولة الأموية وكان واحدًا من دهاة العرب.

وَأَفْضَلُ عَيْشٍ فِي الشِّتَاءِ تَنَالُهُ هَبِيدٌ يُغادى أَصْلُهُ بِالثَّرَائِدِ
يَسُرُّكِ أَنِّي نِلْتُ مَا نَالَ جَعْفَرٌ مِنَ الْمُلْكِ أَوْ مَا نَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدِ[١]
وَأَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَغَصَّنِي مَغَصَّهُمَا بِالْمُرْهَفَاتِ الْبَوَارِدِ
دَعِينِي تَجِئْنِي مِيتَتِي مُطْمَئِنَّةً وَلَمْ أَتَجَشَّمْ هَوْلَ تِلْكَ الْمَوَارِدِ
فَإِنَّ جَسِيمَاتِ الْأُمُورِ مَشُوبَةٌ بِمُسْتَوْدَعَاتٍ فِي رُءُوسِ الْأَسَاوِدِ

– لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ طَاهِرٍ[٢]:

كَيْفَ عَيْشُ امْرِئٍ لَهُ كُلَّ يَوْمٍ عَلَمٌ دُونَ بَلْدَةٍ مَنْشُورُ
وَإِذَا الرِّيحُ حَرَّكَتْ صَوْتَ طَبْلٍ مِنْ بَعِيدٍ فَقَلْبُهُ مَذْعُورُ
يَا غَنِيًّا عَنِ الْعَسَاكِرِ وَالْبَعْثِ هَنِيئًا لَكَ الْمَقِيلُ الْوَثِيرُ
مَنْ لَهُ كِسْرَةٌ يَعِيشُ عَنِ النَّا سِ غَنِيًّا بِهَا فَذَاكَ الْأَمِيرُ

– أَنْشَدَ بَعْضُهُمْ[٣]:

أَنِسْتُ بِوَحْدَتِي وَلَزِمْتُ بَيْتِي فَدَامَ الْأُنْسُ لِي وَنَمَا السُّرُورُ

---

[١] جعفر ويحيى من أعيان البرامكة الذين نكبهم أمير المؤمنين هارون الرشيد وسجنهم.

[٢] عبد الله بن طاهر بن الحسين الخراساني كان الحاكم الطاهري على خراسان وحتى وفاته. وربما كان أشهر حكام الطاهريين. قلده المأمون مصر والمغرب، ثم نقله عنها إلى خراسان بعد وفاة أبيه. ومولده سنة ثلاث وثمانين ومئة. وتوفي عبد الله بنيسابور في خلافة الواثق سنة ثلاثين ومئتين.

[٣] الأبيات منسوبة للخليل بن أحمد الفراهيدي من أئمة اللغة والأدب، وواضع علم العروض.

وَأَدَّبَنِي الزَّمَانُ فَلَا أُبَالِي هُجِرْتُ فَلَا أُزَارُ وَلَا أَزُورُ
فَلَسْتُ بِسَائِلٍ مَا دُمْتُ حَيًّا أَسَارَ الْجُنْدُ أَمْ رَكِبَ الْأَمِيرُ

- وَأَنْشَدَنِي آخَرُ:

ضَنَّ الْأَمِيرُ بِإِذْنِهِ فَقَعَدْتُ فِي بَيْتِي أَمِيرَا
وَتَرَكْتُ إِمْرَتَهُ لَهُ وَاللَّهُ مَحْمُودٌ كَثِيرَا

- أَنْشَدَ مُحَمَّدُ بْنُ شُعْبَةَ[1]:

بَابُ الْأَمِيرِ عَرَاءٌ مَا بِهِ أَحَدٌ إِلَّا امْرُؤٌ وَاضِعٌ كَفًّا عَلَى ذَقَنِ
كَفَيْتُكَ الْأَمْرَ لَا تَلْقَى أَخَا أَمَلٍ بِبَابِ دَارِكَ يَسْتَعْدِي عَلَى الزَّمَنِ
إِنَّ الرَّجَاءَ الَّذِي قَدْ كُنْتُ آمُلُهُ جَعَلْتُهُ وَرَجَاءَ النَّاسِ فِي كَفَنِ

- وَرُوِيَ لِذِي النُّونِ الْمِصْرِيِّ:

مَلَكْتُ نَفْسِي وَذَاكَ مُلْكٌ مَا مِثْلُهُ لِلْمُلُوكِ مُلْكُ
فَصِرْتُ حُرًّا بِمِلْكِ نَفْسِي فَمَا لِخَلْقٍ عَلَيَّ مُلْكُ

- أَنْشَدَ الْحَدَّادِيُّ فِي الْإِقْلَالِ مِنْ صُحْبَةِ السُّلْطَانِ[2]:

إِنَّ الْمُلُوكَ بَلَاءٌ حَيْثُ مَا حَلُّوا فَلَا يَكُنْ لَكَ فِي أَكْنَافِهِمْ ظِلُّ

---

[1] والأبيات في الكامل منسوبة لإسحاق بن خلف البهراني يمدح علي بن عيسى القمى.

[2] الأبيات في ديوان الشافعي.

مَاذَا تُؤَمِّلُ مِنْ قَوْمٍ إِذَا غَضِبُوا جَارُوا عَلَيْكَ وَإِنْ أَرْضَيتَهُمْ مَلُّوا

وَإِنْ نَصَحْتَهُمُ ظَنُّوكَ تَخْدَعُهُمْ وَاسْتَثْقَلُوكَ كَمَا يُسْتَثْقَلُ الْكَلُّ

فَاسْتَغْنِ بِاللَّهِ عَنْ أَبْوَابِهِمْ كَرَمًا إِنَّ الْوُقُوفَ عَلَى أَبْوَابِهِمْ ذُلُّ

– وَكَانَ الْعَتَّابِيُّ لَا يَقْرَبُ السُّلْطَانَ وَلَا يَسْتَمِيحُهُ[١]، فَقِيلَ لَهُ: هَذَا مُحَمَّدٌ الْأَمِينُ يَهَبُ مَا بَيْنَ الْعَشْرَةِ الْآلَافِ وَالْمِائَةِ أَلْفٍ وَأَنْتَ رُبَّمَا تَحْتَاجُ إِلَى عَشْرَةِ دَرَاهِمَ فَكَيْفَ لَا تَقْصِدُهُ؟ فَقَالَ: لِأَنِّي رَأَيْتُهُ يَهَبُ الْعَشْرَةَ الْآلَافَ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ وَيُرْدِي الرَّجُلَ مِنَ السُّورِ مِنْ غَيْرِ سَبَبٍ؛ فَلَسْتُ أَدْرِي أَيُّ الرَّجُلَيْنِ أَكُونُ عِنْدَهُ، وَلَيْسَ الَّذِي أُغَرِّرُ بِهِ[٢] كَالَّذِي آمُلُهُ مِنْهُ.

– بَعَثَ بَعْضُ الْعُمَّالِ إِلَى أَبِي عُمَرَ[٣] صَاحِبِ أَبِي الْعَبَّاسِ[٤] رَسُولًا يَقُولُ لَهُ: أَخْبِرْنِي بِمِقْدَارِ مَا يَمُرُّ لَكَ فِي النَّفَقَةِ فِي سَنَةٍ حَتَّى أُجْرِيَهُ لَكَ؟ فَقَالَ لِلرَّسُولِ: قُلْ لَهُ: عَافَاكَ اللَّهُ أَنَا فِي جِرَايَةٍ مَنْ إِذَا سَخِطَ عَلَيَّ لَمْ يُسْقِطْ جِرَايَتِي.

---

[١] يسأله العطاء.

[٢] أخاطر به وأعرضه للهلاك.

[٣] أبو عمر محمد بن عبد الواحد بن أبي هاشم البغدادي الزاهد المعروف بغلام ثعلب، (٢٦١ – ٣٤٥ هـ): عالم لغوي، ومحدّث، سُمي بغلام ثعلب لملازمته شيخه في اللغة أبي العباس ثعلب، وكان علمه واسع بلسان العرب وكلامهم، له العديد من التصانيف أشهرها «ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن» المعروف بالياقوتة.

[٤] أبو العباس ثعلب.

- قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: إِنَّ الَّذِي يُحْدِثُ لِلسُّلْطَانِ التِّيهَ فِي أَنْفُسِهِمْ وَالْإِعْجَابَ بِآرَائِهِمْ كَثْرَةُ مَا يَسْمَعُونَهُ مِنْ ثَنَاءِ النَّاسِ عَلَيْهِمْ، وَلَوْ أَنَّهُمْ أَنْصَفُوهُمْ فَصَدَقُوهُمْ عَنْ أَنْفُسِهِمْ لَأَبْصَرُوا الْحَقَّ وَلَمْ يَخْفَ عَلَيْهِمْ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِهِمْ.

- قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: خَيْرُ السُّلْطَانِ زِيَادَةٌ فِي الْحَالِ، وَشَرُّهُ هَلَاكٌ وَاسْتِئْصَالٌ.

- قِيلَ لِيَحْيَى بْنِ الْحَكَمِ: عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ مَوْلِدُهُ وَمَنْشَؤُهُ جَاءَ كَمَا رَأَيْتَ، يَعْنِي فِي الْكَمَالِ. قَالَ: إِنَّ أَبَاهُ كَانَ أَرْسَلَهُ إِلَى الْحِجَازِ شَابًّا سُوقَةً[1] يُغْضِبُ النَّاسَ وَيَغْضِبُونَهُ وَيَمْخُضُ النَّاسَ وَيَمْخُضُونَهُ، وَاللَّهِ لَقَدْ وَلِيَ الْحَجَّاجُ وَمَا عَرَبِيٌّ أَحْسَنَ أَدَبًا مِنْهُ، فَطَالَتْ وِلَايَتُهُ، فَكَانَ لَا يَسْمَعُ إِلَّا مَا يُحِبُّ، فَمَاتَ وَإِنَّهُ لَأَحْمَقُ سَيِّئُ الْأَدَبِ".

- أَرْسَلَ عُمَرُ بْنُ هُبَيْرَةَ[2]، وَهُوَ عَلَى الْعِرَاقِ، إِلَى فُقَهَاءِ مِنْ فُقَهَاءِ الْبَصْرَةِ وَفُقَهَاءَ مِنْ فُقَهَاءِ الْكُوفَةِ، وَكَانَ مِمَّنْ أَتَاهُ مِنْ أَهْلِ الْبَصْرَةِ الْحَسَنُ، وَمِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ الشَّعْبِيُّ، فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُمْ: إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ يَزِيدُ يَكْتُبُ إِلَيَّ فِي أُمُورٍ أَعْمَلُ بِهَا فَمَا تَرَيَانِ؟ فَقَالَ الشَّعْبِيُّ: أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ أَنْتَ مَأْمُورٌ وَالتَّبِعَةُ عَلَى مَنْ أَمَرَكَ، فَأَقْبَلَ عَلَى الْحَسَنِ فَقَالَ: مَا تَقُولُ؟ قَدْ قَالَ هَذَا قُلْ أَنْتَ.

---

[1] يعني من عوام الناس وليس أميراً.

[2] عمر بن هبيرة بن معاوية بن سكين: أمير العراقين: عراق العرب وعراق العجم.

قَالَ: اتَّقِ اللَّهَ يَا عُمَرُ فَكَأَنَّكَ بِمَلَكٍ قَدْ أَتَاكَ فَاسْتَنْزَلَكَ عَنْ سَرِيرِكَ هَذَا، وَأَخْرَجَكَ مِنْ سَعَةِ قَصْرِكَ إِلَى ضِيقِ قَبْرِكَ، إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُنْجِيكَ مِنْ يَزِيدَ وَإِنَّ يَزِيدَ لَا يُنْجِيَكَ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، فَإِيَّاكَ أَنْ تَعْرِضَ لِلَّهِ تَعَالَى بِالْمَعَاصِي فَإِنَّهُ لَا طَاعَةَ لِمَخْلُوقٍ فِي مَعْصِيَةِ الْخَالِقِ. ثُمَّ قَامَ فَتَبِعَهُ الْآذِنُ فَقَالَ: أَيُّهَا الشَّيْخُ مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا اسْتَقْبَلْتَ بِهِ الْأَمِيرَ؟ قَالَ: حَمَلَنِي عَلَيْهِ مَا أَخَذَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى الْعُلَمَاءِ فِي عِلْمِهِمْ، ثُمَّ تَلَا {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ} فَأَخْرَجَ أُعْطِيَاتِهِمْ، وَفَضَّلَ الْحَسَنَ.

فَمَنْ لَنَا الْيَوْمَ بِمِثْلِ الْحَسَنِ رَحْمَةُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِخْلَاصِ نَصِيحَتِهِ وَبَلِيغِ مَوْعِظَتِهِ، وَلَوْ صَلَحَتْ مِنَّا الضَّمَائِرُ وَصَفَتِ السَّرَائِرُ لَوَقَعَتِ النَّصِيحَةُ مَوْقِعَهَا، وَاللَّهُ يُصْلِحُنَا وَيُصْلِحُ أَئِمَّتَنَا فَإِنَّ فَسَادَهُمْ بِذُنُوبِنَا.

- أَنْشَدَ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ:

بِذُنُوبِنَا دَامَتْ بَلِيَّتُنَا وَاللَّهُ يَكْشِفُهَا إِذَا تُبْنَا

خاتمة فِي لُزُومِ الْقَصْدِ فِي حَالَتَيِ الْعُزْلَةِ وَالْخُلْطَةِ

قَدِ انْتَهَى مِنَّا الْكَلَامُ فِي أَمْرِ الْعُزْلَةِ إِلَى حَيْثُ شَرَطْنَا أَنْ نَبْلُغَهُ، وَأَوْرَدْنَا فِيهَا مِنَ الْأَخْبَارِ مَا خِفْنَا أَنْ نَكُونَ قَدْ حَسَّنَا مَعَهُ الْجَفَاءُ مِنْ حَيْثِ أَرَدْنَا الِاحْتِرَازَ مِنْهُ، وَلَيْسَ إِلَى هَذَا أَجْرَيْنَا وَلَا إِيَّاهُ أَرَدْنَا، فَإِنَّ الْإِغْرَاقَ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَذْمُومٌ،

وَخَيْرُ الْأُمُورِ أَوْسَطُهَا، وَالْحَسَنَةُ بَيْنَ السَّيِّئَتَيْنِ، وَقَدْ عَابَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْإِغْرَاقَ فِي عِبَادَةِ الْخَالِقِ عَزَّ وَعَلَا وَالْحَمْلِ عَلَى النَّفْسِ مِنْهَا مَا يَؤُودُهَا وَيَكِلُّهَا، فَمَا ظَنُّكَ بِمَا دُونَهَا مِنْ بَابِ التَّخَلُّقِ وَالتَّكَلُّفِ؟!

- عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ هَذَا الدِّينَ مَتِينٌ فَأَوْغِلْ فِيهِ بِرِفْقٍ وَلَا تُبَغِّضْ إِلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ اللَّهِ؛ فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى»[١].

- عَنِ ابْنِ عَائِشَةَ[٢] قَالَ: "مَا أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى عِبَادَهُ بِأَمْرٍ إِلَّا وَلِلشَّيْطَانِ فِيهِ نَزْعَتَانِ: فَإِمَّا إِلَى غُلُوٍّ، وَإِمَّا إِلَى تَقْصِيرٍ، فَبِأَيِّهِمَا ظَفَرَ قَنَعَ".

- قَالَ عَلِيُّ بْنُ عثَّامٍ[٣]: «كِلَا طَرَفَيِ الْقَصْدِ مَذْمُومٌ».

---

[١] إسناده ضعيف، والصحيح رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: إنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، ولَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أحَدٌ إلَّا غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وقَارِبُوا، وأَبْشِرُوا، واسْتَعِينُوا بالغَدْوَةِ والرَّوْحَةِ وشيءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ.

[٢] عبيد الله العيشي، ويعرف بابن عائشة، وبالعيشي، لأنه من ولد عائشة بنت طلحة بن عبيد الله. ولد بعد الأربعين ومائة، ومات في سنة ثمان وعشرين ومائتين. قال عنه الذهبي: «الإمام العلامة الثقة أبو عبد الرحمن، عبيد الله بن محمد بن حفص بن عمر بن موسى بن عبيد الله بن معمر القرشي التيمي البصري الأخباري الصادق».

[٣] في المطبوعة: غنام، وهو خطأ من الناسخ؛ علي بن عثام بن علي، أبو الحسن الكلابي العامري الكوفي، أحد أئمة ورواة الحديث وهو ثقة. قال الحاكم في "تاريخه": أديب فقيه، حافظ زاهد، واحد عصره لا يحدث إلا بالجهد، وأكثر ما أخذ عنه الحكايات والزهديات والتفسير، والجرح والتعديل"، سكن نيسابور ومات بطرسوس آخر أيام التشريق سنة ثمان وعشرين ومائتين.

وَأَنْشَدَ أَبُو سُلَيْمَانَ[١]:

تَسَامَحْ وَلَا تَسْتَوْفِ حَقَّكَ كُلَّهُ وَأَبْقِ فَلَمْ يَسْتَوْفِ قَطُّ كَرِيمُ
وَلَا تَغْلُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَمْرِ وَاقْتَصِدْ كِلَا طَرَفَيْ قَصْدِ الْأُمُورِ ذَمِيمُ

وَالطَّرِيقَةُ الْمُثْلَى فِي هَذَا الْبَابِ أَنْ لَا تَمْتَنِعَ مِنْ حَقٍّ يَلْزَمُكَ لِلنَّاسِ وَإِنْ لَمْ يُطَالِبُوكَ بِهِ، وَأَنْ لَا تَنْهَمِكَ لَهُمْ فِي بَاطِلٍ لَا يَجِبُ عَلَيْكَ وَإِنْ دَعَوْكَ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّ مَنِ اشْتَغَلَ بِمَا لَا يَعْنِيهِ فَاتَهُ مَا يَعْنِيهِ، وَمَنِ انْحَلَّ فِي الْبَاطِلِ جَمُدَ عَنِ الْحَقِّ، فَكُنْ مَعَ النَّاسِ فِي الْخَيْرِ، وَكُنْ بِمَعْزِلٍ عَنْهُمْ فِي الشَّرِّ، وَتَوَخَّ أَنْ تَكُونَ فِيهِمْ شَاهِدًا كَغَائِبٍ وَعَالِمًا كَجَاهِلٍ.

- عَنْ وُهَيْبِ بْنِ الْوَرْدِ[٢] قَالَ: "قُلْتُ لِوَهْبِ بْنِ مُنَبِّهٍ: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَعْتَزِلَ النَّاسَ، فَقَالَ لِي: لَا بُدَّ لَكَ مِنَ النَّاسِ وَلِلنَّاسِ مِنْكَ؛ لَكَ إِلَيْهِمْ حَوَائِجُ، وَلَهُمْ إِلَيْكَ حَوَائِجُ، وَلَكِنْ كُنْ فِيهِمْ أَصَمَّ سَمِيعًا أَعْمَى بَصِيرًا سَكُوتًا نَطُوقًا".

- قَالَ أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ: "الِانْقِبَاضُ عَنِ النَّاسِ مَكْسَبَةٌ لِلْعَدَاوَةِ، وَمَعْرِفَتُهُمْ مَكْسَبَةٌ لِقَرِينِ السُّوءِ؛ فَكُنْ لِلنَّاسِ بَيْنَ الْمُنْقَبِضِ وَالْمُقَارِبِ، فَإِنَّ خَيْرَ الْأُمُورِ أَوْسَاطُهَا".

---

[١] المؤلف رحمه الله.

[٢] وُهَيْبُ بنُ الورد بن أَبي الورد القرشي: من العباد وأحد رواة الحديث النبوي من تابعي التابعين، توفي ١٥٣ هـ.

- وَأَنْشَدَ أَبُو زَيْدٍ فِي هَذَا الْمَعْنَى[١]:

إِذَا مَا عَمَمْتَ النَّاسَ بِالْأُنْسِ لَمْ تَزَلْ ... لِصَاحِبِ سُوءٍ مُسْتَفِيدًا وَكَاسِبَا

وَإِنْ تُقْصِهِمْ يَرْمُوكَ عَنْ سَهْمِ بَغْضَةٍ ... فَكُنْ خَلِطًا إِنْ شِئْتَ أَوْ كُنْ مُجَانِبَا

فَلَا تَدْنُوَنْ مِنْهُمْ وَلَا تُقْصِيَنَّهُمْ ... وَلَكِنَّ أَمْرًا بَيْنَ ذَاكَ مُقَارِبَا

- عَنْ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَا يَكُنْ حُبُّكَ كَلَفًا، وَلَا بُغْضُكَ تَلَفًا»[٢].

- قَالَ وَهْبُ بْنَ مُنَبِّهٍ: إِنِّي وَجَدْتُ فِي حِكْمَةِ آلِ دَاوُدَ: "حَقٌّ عَلَى الْعَالِمِ أَنْ لَا يُشْغَلَ عَنْ أَرْبَعِ سَاعَاتٍ: سَاعَةٍ يُنَاجِي فِيهَا رَبَّهُ، وَسَاعَةٍ يُحَاسِبُ فِيهَا نَفْسَهُ، وَسَاعَةٍ يُفْضِي فِيهَا إِلَى إِخْوَانِهِ الَّذِينَ يَصْدُقُونَهُ عُيُوبَهُ وَيَنْصَحُونَهُ فِي نَفْسِهِ، وَسَاعَةٍ يَخْلُو فِيهَا بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ لَذَّاتِهَا مِمَّا يَحِلُّ وَيَجْمُلُ؛ فَإِنَّ هَذِهِ السَّاعَةَ عَوْنٌ لِهَذِهِ السَّاعَاتِ، وَاسْتِجْمَامٌ لِلْقُلُوبِ، وَفَضْلٌ، وَبُلْغَةٌ، وَعَلَى الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ عَارِفًا بِزَمَانِهِ، مُمْسِكًا بِلِسَانِهِ، مُقْبِلًا عَلَى شَانِهِ".

- قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: «خَالِطِ النَّاسَ وَزَايِلْهُمْ وَدِينَكَ لَا تَكْلِمَنَّهُ».

---

[١] الأبيات منسوبة لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي: شاعر فحل، من بني الحارث بن كعب، من قحطان، كان من سكان الفلجة، من الأراضي التابعة لدمشق في أيامه.

[٢] في مصنف عبدالرزاق: عن زيد بن أسلم، عن أبيه قال: قال لي عمر بن الخطاب: "يا أسلم لا يكن حبك كلفاً، ولا يكن بغضك تلفاً"، قلت: وكيف ذلك؟ قال: "إذا أحببت فلا تكلف كما يكلف الصبي بالشيء يحبه، وإذا أبغضت فلا تبغض بغضاً تحب أن يتلف صاحبك ويهلك".

يُرِيدُ خَالِطْهُمْ بِبَدَنِكَ وَزَايِلْهُمْ بِقَلْبِكَ، وَلَيْسَ هَذَا مِنْ بَابِ النِّفَاقِ وَلَكِنَّهُ مِنْ بَابِ الْمُدَارَاةِ. وَقَدْ قَالَ: النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مُدَارَاةُ النَّاسِ صَدَقَةٌ»[١].

- قَالَ صَعْصَعَةُ بْنُ صُوحَانَ[٢] لِابْنِ أَخِيهِ: «كُنْتُ أَحَبَّ إِلَى أَبِيكَ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنِ ابْنِي، إِذَا رَأَيْتَ الْمُؤْمِنَ فَخَالِصْهُ، وَإِذَا رَأَيْتَ الْفَاجِرَ فَخَالِقْهُ[٣]».

قَالَ الْحَسَنُ: يَقُولُونَ: "الْمُدَارَاةُ نِصْفُ الْعَقْلِ، وَأَنَا أَقُولُ: هُوَ الْعَقْلُ كُلُّهُ".

- عَنْ مُحَمَّدِ ابْنِ الْحَنَفِيَّةِ[٤] قَالَ: "لَيْسَ الْحَكِيمُ مَنْ لَمْ يُعَاشِرْ بِالْمَعْرُوفِ مَنْ لَا يَجِدُ مِنْ مُعَاشَرَتِهِ بُدًّا حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُ فَرَجًا أَوْ قَالَ: مَخْرَجًا".

---

[١] أخرجه بن عدي والطبراني في الأوسط، وفي سنده يوسف بن محمد بن المنكدر ضعفوه، وقال ابن عدي أرجو أنه لا بأس به، وأخرجه ابن أبي عاصم في آداب الحكماء بسند أحسن منه.

[٢] صعصعة بن صوحان العبدي: من كبار أصحاب علي بن أبي طالب، وشارك معه في معركة الجمل وصفين والنهروان، وكان خطيبًا بليغًا، واستخدم هذا الفن في الدفاع عن علي بن ابي طالب.

[٣] عامله بأخلاقه.

[٤] محمد بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي: أمه خولة بنت جعفر الحنفية فينسب إليها تمييزاً عن أخويه الحسن والحسين، يكنى أبا القاسم، حيث أذن رسول الله لولد من علي بن أبي طالب أن يسمى باسمه ويكنى بكنيته. ولد في خلافة عمر بن الخطاب سنة إحدى وعشرين للهجرة، وهو أحد الأبطال الأشداء، كان ورعاً واسع العلم ثقة له عدة أحاديث في الصحيحين.

- قَالَ الْمُتَنَبِّي:

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنْيَا عَلَى الْحُرِّ أَنْ يَرَى عَدُوًّا لَهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُدُّ

انتهى كتاب العزلة للخطابي رحمه الله

المراجع

وهي منثورة في الهوامش

من هذا الكتاب

للمراسلة والتواصل:

محمد علي حسين

mali_١١١@hotmail.com

الكويت تليفون ٩٨٨٦٦٩٠٣

مصر تليفون ٠١٠٩٩٦٩٤١٤٠

تعريف

- محمد علي حسين (أبو زهرة)

- لُغوي وباحث في التراث الإسلامي

- موجِّه في مادة اللغة العربية - مواليد نبروه — مصر ١٩٦٢م

- مهتم بنشر التراث في سلسلة صدر منها خمسة وعشرون عملاً، جمعاً ودراسة واختصاراً وتحقيقاً، هي: (التوبة وقصص التوابين - هذا نبينا كأننا نراه - دولة بني العباس - دولة بني أمية - الثائران: الحسين وابن الزبير - معاويةُ كِسْرى العرب — خلافة علي بن أبي طالب - خلافة ذي النورين عثمان بن عفان - خلافة الصِّدِّيق والفاروق - محمد رسول رب العالمين - - عليٌّ ومعاويةُ يومَ صِفِّين - الفتنة ووقعة الجمل لسيف بن عمر - التعازي والمراثي للمبرِّد - محاضرات الأدباء للراغب الأصفهاني - الداء والدواء لابن القيم - أخبار الحمقى والمغفَّلين لابن الجوزي - النساء لابن قتيبة - بهجة المجالس لابن عبد البر - تهذيب تاريخ ابن خياط - مختصر زاد المعاد — قصة الإيمان منذ آدم حتى محمد — العواصم من القواصم لابن العربي — حقوق

آل البيت في مفهوم ابن تيمية – الشواهد الشعرية في معجم البلدان لياقوت الحموي – مختصر فضائل القرآن لأبي عبيد) إضافة إلى كتابين آخرين خارج السلسلة هما: "علماء معاصرون نصروا الإسلام"، وكتاب "غرباء".

وكلها كتب منشورة على مواقع نشر الكتب الإلكترونية مثل موقع: نور، وموقع فولة بوك (في صفحة: محمد علي أبو زهرة).